سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض

(١٦١)

تدبر القرآن الكريم

تأليف

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع هذا الكتاب بدعم من

نورة بنت عبد العزيز المفرج

رحمها الله تعالى

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع بالرياض

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التويجري، عبد اللطيف عبد الله

تدبر القرآن الكريم. / عبد اللطيف عبد الله التويجري .- الرياض، ١٤٣٦هـ

٤٢٨ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٣ - ٩٠ - ٨٠٣٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - أحكام ٢ - القرآن - مباحث عامة أ. العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٤٣٦/١١٣٠

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

المركز الرئيسي - الدائري الشرقي - مخرج ١٥ - جنوب أسواق المجد

ت: ٤٤٥٦٢٢٩ - فاكس: ٤٩٦٢٠١٤ - ص ب: ٥١٩٢٩ - الرياض ١١٥٥٣

الفروع - طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقًا) ت: ٢٣٢٢٠٩٥

مكة المكرمة - الجميزة - الطريق النازل للحرم - ت ١٢/٥٧٦١٣٧٧.

المدينة النبوية - أمام الجامعة الإسلامية من جهة الجنوب - ت: ١٤/٨٤٦٧٩٩٩.

حساب الدار في موقع تويتر: @Alminhajj

سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ١٦١

تدبر القرآن الكريم

تأليف

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع بالرياض

أصل هذا الكتاب

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد أجيزت بتقدير «ممتاز» ورُشحت من القسم لجائزة البحث العلمي بتاريخ ١٠/١/١٤٣٥هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدِّمة

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١]، أَمَّا بَعْدُ[1]:

---

(١) هذه تسمى خطبة الحاجة، وقد وردت عن ستة من الصحابة وهم: عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، ونُبيط بن شريط، وعائشة ﷺ. وقد كان السلف الصالح يقدمونها بين يدي دروسهم وكتبهم ومختلف شؤونهم، فكانوا يفتتحون كتبهم بهذه الخطبة، **كما صنع الإمام أبو جعفر الطحاوي (ت٣٢١هـ) حيث قال في مقدمة كتابه «مشكل الآثار»**: «وأبتدئ بما أمر ﷺ بابتداء الحاجة، مما قد روي عنه بأسانيد أذكرها بعد ذلك إن شاء الله: إن الحمد لله...» ثم ذكرها بتمامها. وقد جرى على هذا النهج أيضًا شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيميَّة فهو يكثر من ذلك في مؤلفاته، كما لا يخفى على من له عناية بها. **ينظر**: =

فإنَّ أنفع شيء للعبد في معاشه ومعاده هو تدبُّر كتاب ربه، وإطالة تأمُّله، وتلاوة حروفه، وإقامة حدوده، واتِّباع محكمه، والإيمان بمتشابهه، والتفرغ لتعلمه، والقيام بتعليمه؛ حيث إن هذه الأمور تُطْلع العبد على معالم الخير والشر، وتجعل في يده مفاتيح كنوز السعادة، وتثبِّت الإيمان في قلبه، وتشيِّد بنيانه، وتوطِّد أركانه، وتعطيه قوة في قلبه، وسعة وانشراحًا، وبهجة وسرورًا.

فالعيش مع القرآن مزية لا تعدلها مزية، ومرتبة لا تفوقها المراتب؛ فهو الكتاب الذي لا ريب فيه، ولا نقص يعتريه، معجز بلفظه ومعناه، رُوح الأمة ومصدر عزِّها وقوتها، وما أحوجها اليوم إلى تدبر آياته، والتفكر في معانيه، **ولله درُّ**[١] **أبي العباس شيخ الإسلام ابن تيميَّة حين قال:** «وحاجة الأمة ماسَّة إلى فهم القرآن»[٢].

فالواجب عليها أن تستمسك به، وتعتصمَ بحبله؛ فبه تواجه قضاياها، وتقيم أحكامها، وتجاهد أعداءها، وتصلح دنياها، وتستقبل آخرتها، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

۞ **وإنَّ من أفضل ما يُفنى فيه العُمر، ويُقضى فيه الأجل:** تدبر كتاب الله ﷻ، علمًا وعملًا وتفهمًا وتعليمًا ودعوة؛ إذ إن ذلك هو الغاية

= كتاب: خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

(١) **قال بعض أَهل اللُّغة في قولهم: «لله دَرُّه»:** «الأَصل فيه أَن الرجل إذا كثُرَ خَيرهُ وعَطاؤُه وإنَالتُه النَّاس قيل: لله دَرُّه! **أي:** عطاؤُه وما يُؤْخذُ منه، فشبَّهوا عَطاءه بدَرِّ النّاقَة، ثم كثر استعمَالُهم حتَّى صارُوا يقُولُونه لكل متعجَّب منه». تاج العروس، مادة: (درر)، (١١/ ٢٨٠).

(٢) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية: (ص٢).

الكبرى من إنزاله؛ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ولقد وردت نصوص أخرى كثيرة من الكتاب والسُّنَّة، تبيِّن أهمية تدبر كتاب الله، وتحثُّ عليه، وتذمُّ تركه والإعراض عنه؛ مما جعل العلماء السابقين يتكلمون عن ذلك في مؤلفاتهم ومصنفاتهم: جمعًا وتحليلًا، وترغيبًا وترهيبًا، فسطروا أروع الكلام والسِّيَر، واستنبطوا أفضل الأحكام والعِبَر.

ولمَّا كان هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي نبَّه عليها القرآن الكريم، ودلت عليها السُّنَّة المطهرة؛ **تمخضت لديَّ الرغبة في دراسة هذا الموضوع من عدة جهات:**

١ - تحرير مفهوم التدبُّر، وبيان الصلة بينه وبين المفاهيم المقاربة له.

٢ - تقرير ضوابط التدبُّر التي يجب مراعاتها والأخذ بها.

٣ - إيضاح الضوابط والشروط التي يجب على المتدبِّر التزامُها.

٤ - جمع ما يتعلق بدوافع التدبُّر وموانعه، وتأصيل ذلك برسالة علمية متخصِّصة.

٥ - استقراء الأسباب الباعثة على التدبُّر، وضبطها بالضوابط العلمية، من خلال المنهجية الآتية:

- جمع هذه الأسباب وتنسيقها وتقسيمها.
- تأصيلها تأصيلًا علميًّا بالأدلة والشواهد والأقوال.
- تحليل مادَّتها العلمية وإظهار نتائجها من الأحكام والفوائد.

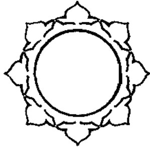
٦ - إبراز بعض المسائل المهمة في موضوع التدبُّر، ومنها:

- تركيز الحديث عن مقاصد التدبُّر وغاياته.

• دراسة نتائج التدبُّر وأثره على الفرد وعلى الأمة.

• معرفة الأمور التي تمنع التدبُّر، وتركيز الحديث عنها في باب مستقل؛ نظرًا لأهميتها وقلة الحديث عنها.





أَهَمِّيَّةُ المَوْضُوعِ وَأَسْبَابُ اخْتِيَارِهِ

تكمن أهمية هذا الموضوع في الأمور الآتية:

أولًا: أن هذا الموضوع هو المقصود الأعظم من إنزال كتاب الله ﷻ إلينا؛ فنحن مأمورون بالعمل بما فيه من الأوامر والنواهي والاعتبار، ولا يكون ذلك إلا بتدبر آياته والتفكر في معانيه، قال الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ثانيًا: أن قضية التدبُّر من أهم القضايا التي دعا إليها القرآن الكريم، ووبَّخ من تركها أو هجرها في آيات كثيرة.

ثالثًا: أن التدبُّر من ثمرات تعلُّم القرآن الكريم، والذي به تُنال الخيرية والأفضلية التي بيَّنها رسول الله ﷺ، في حديث عثمان رضي الله عنه بقوله: (**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**)[١]. فحريٌّ أن تجرَّد له رسائل علمية تُبرز قيمته.

رابعًا: كثرة العوائق الصارفة في هذه الأزمان عن تدبُّر القرآن الكريم، والعمل بما فيه.

---

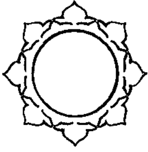
(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، حديث رقم: (٥٠٢٧)، وفي هذا الحديث فائدة عملية ضافية، حيث روي هذا الحديث من طريق مقرئ الكوفة العالم أبي عبد الرحمٰن السُّلمي عن عثمان رضي الله عنه مرفوعًا، وذكر أن سبب جلوسه للإقراء وتعليم القرآن هذا الحديث، **حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ بعدما روى الحديث**: «وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا»؛ كما في البخاري، ونقل الذهبي في السير: (٤/٢٦٨) أنه كان يقرئ الناس في المسجد الأعظم في الكوفة أربعين سنة. فرحم اللهُ أبا عبد الرحمٰن عَلِمَ وعَمِلَ.

خامسًا: أن مصادر علوم القرآن الكريم والتفسير والسير؛ قد حفلت بمادة علميَّة غزيرة في هذا الموضوع؛ فأضحى من المهم جمعها ودراستها تحليلًا واستنباطًا في دراسة متخصصة.

سادسًا: الاستجابة لتوصية بعض المختصين فيمن كتب عن هذا الموضوع؛ حيث بيَّنوا أن هذا الموضوع يحتاج إلى رسالة علمية متخصصة[١].



(١) كما في توصيات كتاب: تعليم تدبر القرآن الكريم، للدكتور: هاشم الأهدل: (ص١٨٤)، ومقدمة كتاب: تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، للدكتورة: رقية العلواني: (ص٦)، وأيضًا في بعض توصيات أوراق عمل برنامج الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم، في ملتقى أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية.



الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَة

أولًا: الرسائل الجامعية:

بعد البحث والاستقصاء للموضوع، والرجوع للجامعات ومراكز البحوث والمكتبات المتخصصة في مجال البحث العلمي من أمثال: مكتبة الملك فهد، ومكتبة الملك عبد العزيز، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، لم أقف ـ حسب اطلاعي ـ على من أفرد موضوع: تدبر القرآن الكريم برسالة علمية مستقلة.

ثانيًا: الكتب المطبوعة:

هناك كتب تناولت تدبر القرآن الكريم من جوانب أخرى، أو تكلمت عنه بإشارات مختصرة، علمًا أن المنهجية العلمية والأفكار البحثية اختلف تناولها لدى الباحثين، وتعددت نتائجهم، **وهذا يدلُّ على أمور، من أهمها**: اتساع الموضوع وكثرة مادته، **والأمر الآخر**: أن هذا الموضوع قابل لإضافة الجديد، والوصول إلى نتائج علمية جديدة، التي أرجو من الله العلي القدير أن يوفقني في بحثها وعرضها، وفيما يلي عرض لأبرز هذه الكتب التي تناولت الموضوع من جوانب أخرى، مع بيان أهم الفروق بينها وبين الرسالة، **وهي كالآتي**:

١	عنوان الكتاب	قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ
	اسم المؤلف	عبد الرحمٰن حسن حَبَنَّكَة الميداني
	دار النشر	دار القلم في دمشق

من الفروق بين الدراسة وهذا الكتاب:

١ ـ أن المنهجية العلمية لهذا الكتاب تدور حول التدبر من الناحية التطبيقية؛ بينما يركز البحث في الرسالة على التدبر من الناحية التنظيرية، حيث تطرقت إلى مفهوم التدبر مع بيان العلاقة بينه وبين المصطلحات الأخرى المشابهة له، مثل: التفكر والتفسير والتأمل، ثم الكلام بعد ذلك على ضوابط التدبر والمتدبِّر، وبعد ذلك الحديث حول الدوافع التي تدفع إلى تدبر القرآن: من استشعار أهمية التدبر وتحصيل أسبابه القلبية والعملية الباعثة على تدبره، والوقوف على مقاصده وغاياته، واستشعار أثره على الأفراد والمجتمعات، ثم بعد ذلك الكلام في باب مستقل عن الموانع التي تمنع التدبر، سواء كانت من الشهوات أم الشبهات، وهذه الفصول والمباحث لا توجد في كتاب: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ.

٢ ـ أن الرسالة ناقشت موضوع التدبر من الناحية الشرعية الأثرية، سواء ما أُثر عن التدبر في الكتاب والسُّنَّة، أو ما أُثر عن السلف الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين.

أمَّا الكتاب فهو مبني على الناحية الاستنباطية؛ حيث ذَكَرَ المؤلف قواعد مستنبطة في طريقة التدبر، اجتهد ـ رحمه الله تعالى ـ في اكتشافها، كما قال في مقدمته، صفحة (١٢): «وخلال ممارستي الطويلة للتدبر في القرآن العظيم، ومطالعتي لتفاسير المفسرين على اختلاف مناهجهم، تكشّفت لي جملة قواعد هادية لمن أراد أن يتدبر كلام الله

بصورة فُضْلى. . . وما أظن أنني استقصيت كلَّ القواعد التي يمكن التوصل إليها».

فذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ أربعين قاعدة في ذلك، وكل قاعدة يذكر عليها أكثر من مثال تطبيقي، واستوعبت هذه الأمثلة وتحليلها مباحث هذا الكتاب.

٣ ـ إضافةً أن الكتاب مطبوع قديمًا، حيث مضى على طباعته نحو ثلاثين عامًا، والموضوع يحتاج إلى التنوع والتجديد؛ خاصة في طريقة التناول من ناحية تشخيص الواقع والحلول؛ لأنه قد طرأت صوارف جديدة عن التدبر، لم تكن على عهد صدور هذا الكتاب، قد أحدثتها ثورة الاتصالات والمعلومات، التي تحول دون التدبر أو تعين عليه.



٢	عنوان الكتاب	فتح من الرحيم الرحمن، في بيان كيفية تدبر كلام المنان
	اسم المؤلف	د. أحمد بن منصور آل سبالك
	دار النشر	المكتب الإسلامي لإحياء التراث

طُبِعَ هذا الكتاب في مجلدين، وبعد الاطلاع عليه سجلت الملحوظات الآتية:

١ ـ أن أصل فكرة الكتاب وطريقة بحثه تختلف عن فكرة الرسالة وأبوابها وفصولها، فالكتاب مثلًا تطرق إلى خصائص القرآن الكريم بتوسع، وفي باب آخر: القرآن القول الفصل بين كلام الله وكلام البشر، وجعل تحته أربعة فصول، وفي الباب الذي يليه: تكلم عن قواعد التدبر، وفيه أكثر من أربعين قاعدة، نقلها حرفيًا من الكتاب السابق للميداني، وسماها وسائل التدبُّر بدلًا من قواعد التدبر؛ بينما الرسالة ركزت على تحرير مفهوم التدبر، وتقرير ضوابطه، مع بيان الأمور الدافعة لتدبره، والأمور المانعة عن تدبره.

٢ ـ أن مادة هذا الكتاب قائمة على الجمع ـ **أي**: الجمع من الكتب السابقة المؤلفة في فن التدبر ـ كما أشار إلى ذلك مؤلفه كما في المقدمة، في الصفحتين (١٢ ـ ١٣)، فالمؤلف لم يأتِ بشيء جديد من الناحية العلمية، فمثلًا نجد أن المجلد الأول نقل أكثره بالنص من كتاب خصائص القرآن للدكتور فهد الرومي، والمجلد الثاني بأكمله منقول من كتاب الميداني السابق، قواعد التدبر الأمثل، وهذا ما جعل بعض المختصين يقلل من قيمة الكتاب العلمية[١].

---

(١) **ينظر**: ملتقى أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية فقد نُوقش ما ورد في هذا الكتاب في هذا الملتقى.

٣	عنوان الكتاب	تعليم تدبر القرآن الكريم
	اسم المؤلف	د. هاشم بن علي الأهدل
	دار النشر	معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية
	عدد الصفحات	(١٨٤) صفحة

هذا الكتاب حكَّمه مجموعة من المختصين، وقد كتب عليه عبارة: (حُكِّم هذا الإصدار التحكيمَ العلمي المتعارف عليه)، وهو مطبوع آخر سنة: (١٤٢٩هـ)، ولقد استفاد مؤلفه من جميع المؤلفات السابقة في الموضوع، كما في حواشي الكتاب وأهم مراجعه. وبعد الاطلاع عليه سجلت هذه الفروق والملاحظات:

١ ـ أن موضوع الكتاب منصبٌّ على تعليم التدبر كما هو بيِّن من عنوان الكتاب، ومع ذلك لم يستوعب جميع ما يتعلق بالقضية التعليمية للتدبر، فكيف بموضوع التدبر، ولذلك كان حجم الكتاب: (١٨٤) صفحة، وهذا ما جعل المؤلف يقول في صفحة: (٧): «هذا البحث لم يستوعب كل ما يتصل بهذا التنظير الجديد لموضوع التدبر، وما ذكر من تفصيلات تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث».

٢ ـ أن الكتاب يستهدف الناشئة وطلاب الحلقات، قال المؤلف ـ وفقه الله ـ في مقدمته صفحة: (٥): «ولكن من الملاحظ في مؤسسات وحلق تعليم القرآن أنه قليلًا ما يعنى بهذا الجانب المهم من القرآن، فقد تجد الطالب يحفظ كتاب الله كاملًا، ولا يعرف معاني آيات من القرآن الكريم، ولا يحسن تدبرها».

٣ ـ أن حدود هذا الكتاب مقتصرة على موضوع التدبر من منظور علم التربية والنفس، كما ذكر المؤلف ـ وفقه الله ـ في مقدمته صفحة: (٨).

٤	عنوان الكتاب	منهج تدبر القرآن الكريم
	اسم المؤلف	أ. د. حكمت بن بشير ياسين
	دار النشر	دار الحضارة
	عدد الصفحات	(١٠٢) صفحة

هذا الكتاب مختصر، وتكلم مؤلفه عن منهج التدبر من خلال أسبابه، وعالجها علاجًا مختصرًا، فلم يتكلم عن مفهوم التدبر وضوابطه، ولا عن مقاصده وغاياته وأثره، ولا عن موانعه. وللمؤلف عذره فهو كتاب ميسر ومختصر، وليس الهدف منه أن يكون رسالة علمية شاملة لموضوع التدبر.



٥	عنوان الكتاب	تدبر القرآن
	اسم المؤلف	سلمان بن عمر السنيدي
	دار النشر	المنتدى الإسلامي
	عدد الصفحات	(١٥٤) صفحة

هذا الكتاب من ألصق هذه الكتب وأقربها للرسالة، والفرق بين هذا الكتاب وبين الرسالة، أنه كتاب مختصر، ولم يكن هدف الكتاب التطرق لجميع قضايا التدبر كما أشار المؤلف ـ وفقه الله ـ في مقدمته، إضافة إلى اختصاره للكلام في بعض المباحث والمواطن، مثل: تحرير مفهوم التدبر؛ وأيضًا اقتصر المؤلف ـ وفقه الله ـ على سبعة أسباب للتدبر بكلام مختصر، والذي ظهر أنها أربعة عشر سببًا أو تزيد، وكذلك في موانعه، لم يتطرق إلا لجزء منها؛ بينما الرسالة ستناقش هذا الموضوع ـ بمشيئة الله تعالى ـ في باب مستقل **قسمت فيه موانع التدبر إلى فصلين**: **الأول**: الوقوع في الشهوات، وتحته مباحث، **والآخر**: الوقوع في الشبهات، وتحته مباحث.

وهناك عناصر أخرى مهمة لم يتطرق لها الكتاب أيضًا، وقد تطرقت لها الرسالة بفصول مستقلة: كضوابط التدبُّر والمتدبِّر، وأثر التدبر على الفرد والأمة، ولأن الكتاب لم يكن رسالة علمية، يظهر أن خطاب الكتاب عمومًا لم يكن للمختصين، بل لعموم القراء، كما جاء في أسباب تأليف الكتاب في المقدمة، وفي تقاسيم الكتاب، والله أعلم.

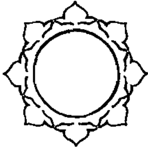


٦	عنوان الكتاب	تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق
	اسم المؤلف	د. رقية طه جابر العلواني
	دار النشر	المعهد النسوي للتكوين الشرعي في المغرب
	عدد الصفحات	(٨٣) صفحة

هذا الكتاب صغير الحجم، وقد درس الموضوع دراسة يسيرة؛ كما تقول المؤلفة في خاتمة الكتاب صفحة: (٨٣) «تناول هذا الكتاب دراسة مبسطة للتدبر»؛ فقد أشار هذا الكتاب إشارات يسيرة دون تفصيل أو تقسيم لبعض مواضيع التدبر، وهناك فروق بينه وبين الرسالة من جهات عديدة، مثل: تحرير مفهوم التدبر عند المفسرين، والكلام عن ضوابط التدبر وشروط المتدبِّر وآدابه، وأيضًا أسبابه العملية والعلمية، والحديث عن مقاصد التدبر وغاياته، والكلام عن موانعه، فكل هذه الأشياء لم يتناولها الكتاب، إضافة إلى أن مؤلفة هذا الكتاب قد أوصت بضرورة إعمال المزيد من البحوث والدراسات في هذا الموضوع كما في مقدمة الكتاب صفحة: (٦).

فهذه بعض الفروق بين الرسالة التي سأقوم ببحثها ـ إن شاء الله ـ وهذه الكتب المطبوعة، اجتهدتُّ في إخراجها، وقد تحريت الصواب، فإن أصبت فمن الله وحدَه، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، ولا ريب أني سأستفيد من هذه الكتب المذكورة، ومنها سأنطلق مستفيدًا من تجاربها ونتائجها، **سائلًا الله ﷻ التوفيق والسداد والهداية... إنه على كلِّ شيء قدير.**





خُطَّةُ البَحْثِ

يتكون البحث من مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وفهارس، وهي على النحو الآتي:

* **المقدمة، وفيها ما يلي:**

١ ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

٢ ـ أهداف البحث.

٣ ـ الدراسات السابقة.

٤ ـ خُطَّة البحث.

٥ ـ منهج البحث.

* **الباب الأول**: التدبُّر مفهومه وحُكمه وضوابطه، **وفيه فصلان:**

• **الفصل الأول**: مفهوم التدبُّر وحُكمه، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم التدبُّر عند اللُّغويِّين.

المبحث الثاني: مفهوم التدبر عند المفسِّرين.

المبحث الثالث: تعريف هذا المركب الإضافي: (تدبر القرآن الكريم).

المبحث الرابع: المعاني المقاربة لمفهوم التدبر، **وفيه أربعة مطالب:**

- **المطلب الأول**: الفرق بين التدبر والتفسير.
- **المطلب الثاني**: الفرق بين التدبر والاستنباط.
- **المطلب الثالث**: الفرق بين التدبر والتفكر.

- **المطلب الأول:** الإيمان بالله ﷻ والاستعانة به.
- **المطلب الثاني:** استشعار عظمة القرآن الكريم.
- **المطلب الثالث:** الإخلاص في طلب التدبر.
- **المطلب الرابع:** طهارة القلب.

المبحث الثاني: الأسباب العلمية والعملية، **وفيه أحد عشر مطلبًا:**

- **المطلب الأول:** ربط الجوارح بالقرآن الكريم.
- **المطلب الثاني:** مراعاة الأحوال المناسبة للقراءة، **ويشتمل على مسائل:**
  - **المسألة الأولى:** القراءة في الصلاة المكتوبة.
  - **المسألة الثانية:** القراءة في التهجُّد.
  - **المسألة الثالثة:** القراءة عند راحة البال والسكون.
  - **المسألة الرابعة:** اختيار المكان المناسب للقراءة.
- **المطلب الثالث:** سلامة التلاوة، ومراعاة التجويد.
- **المطلب الرابع:** الترتيل.
- **المطلب الخامس:** الجهر بالقرآن.
- **المطلب السادس:** معرفة الوقف والابتداء.
- **المطلب السابع:** المداومة على قراءة القرآن.
- **المطلب الثامن:** فهم معاني الآيات، **ويشتمل على مسائل:**
  - **المسألة الأولى:** فهم الآيات بالمأثور عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والسلف الصالح.
  - **المسألة الثانية:** معرفة أسباب النزول وتصوُّرها في أثناء القراءة.
  - **المسألة الثالثة:** إدراك المعنى اللُّغوي للكلمات.
  - **المسألة الرابعة:** معرفة دلالة الآية وما يتعلق بها.

• **الفصل الرابع**: معرفة آثار التدبر، **وفيه مبحثان**:

المبحث الأول: أثر تدبر القرآن الكريم على الفرد والمجتمع، **وفيه ثلاثة مطالب**:

▪ **المطلب الأول**: أثره الإيماني.

▪ **المطلب الثاني**: أثره النفسي.

▪ **المطلب الثالث**: أثره السلوكي.

المبحث الثاني: أثر تدبر القرآن الكريم على الأمَّة، **وفيه ثلاثة مطالب**:

▪ **المطلب الأول**: أثره الأمني.

▪ **المطلب الثاني**: أثره الاقتصادي.

▪ **المطلب الثالث**: أثره السياسي.

* **الباب الثالث**: موانع تدبر القرآن الكريم، **وفيه ثلاثة فصول**:

• **الفصل الأول**: الوقوع في الشبهات، **وفيه ثمانية مباحث**:

المبحث الأول: الجلوس مع أهل البدع، والاستماع إليهم.

المبحث الثاني: قصر تدبر القرآن على المجتهدين فقط.

المبحث الثالث: الحرص على تتبُّع شواذِّ القراءات.

المبحث الرابع: اتِّباع المتشابه من الآيات.

المبحث الخامس: الحرص على كثرة التلاوة والحفظ دون التدبر، **وفيه ثلاثة مطالب**:

▪ **المطلب الأول**: ذكر الخلاف في هذه المسألة، مع بيان القول الراجح.

▪ **المطلب الثاني**: المبالغة في تجويد الحروف دون التدبر.

▪ **المطلب الثالث**: الحرص على الحفظ دون التدبر.

المبحث السادس: قصر معاني القرآن على أحوال خاصَّة، **وفيه مطلبان**:

- **المطلب الأول**: قصر حديث القرآن عن الأمم السابقة على من وردت فيهم.
- **المطلب الثاني**: قصر معاني القرآن على أحوال شخصية معينة.

المبحث السابع: الانشغال بتتبع المبهمات.

المبحث الثامن: ابتداع طرائق مزعومة للتدبر، **وفيه مطلبان**:

- **المطلب الأول**: الطرائق المبتدعة القديمة ونقدها.
- **المطلب الثاني**: الطرائق المبتدعة المعاصرة ونقدها.

• **الفصل الثاني**: الوقوع في الشهوات، **وفيه خمسة مباحث**:

المبحث الأول: الإصرار على المعاصي والذنوب.

المبحث الثاني: مرض القلب.

المبحث الثالث: اتباع الهوى.

المبحث الرابع: الانشغال بالحياة الدنيا وزينتها.

المبحث الخامس: استماع الغناء وآلات اللهو.

• **الفصل الثالث**: العلاج القرآني لترك التدبر، ويشتمل على الآيات التي ذمَّت ترك التدبر، وأرشدت إلى علاجه.

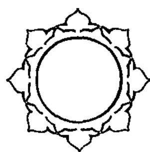
* **الخاتمة**:

تتضمَّن أهم النتائج التي توصَّلت إليها في هذا البحث، وبعض التوصيات.

* **الفهارس**:

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.



مَنْهَجُ البَحْثِ

سأسلك في هذا البحث ـ بعون الله تعالى ـ المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، وَفْقَ ما يلي:

١ ـ جمع ما يتعلق بالتدبر من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وجمع ما ورد أيضًا عن التدبر في كتب علوم القرآن وكتب المفسرين وكتب أهل اللُّغة، مستخلصًا منها منهج الرسول ﷺ ومنهج أصحابه رضوان الله عليهم ومنهج السلف الصالح من بعدهم، مع استعراض أقوالهم ومواقفهم وتحليلها، واستخراج الفوائد والأحكام والعِبَر.

٢ ـ كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني المكتوب برواية حفص عن عاصم، مع عزوها بأرقامها إلى سورها.

٣ ـ عزو القراءات إلى قرائها، وتوثيقها من مصادرها الأصلية، مع بيان المتواتر منها والشاذِّ.

٤ ـ الإفادة من المصادر والمراجع القديمة لأصالتها، وكذلك الرجوع إلى المصادر الحديثة من البحوث والكتب والمجلات العلمية، عند تعذر المطلوب من المصادر القديمة.

٥ ـ تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، مع ذكر أقوال أهل العلم المحققين في درجتها؛ ما لم تكن في الصحيحين أو أحدهما، فأكتفي بالعزو إليهما أو أحدهما.

٦ ـ إثبات أسماء المصادر والمراجع في الحاشية، وأمَّا المعلومات الأخرى فسوف أذكرها ضمن ثبت المراجع والمصادر.

٧ ـ ذكر الأقوال مع نسبتها إلى قائليها، وتوجيه الخلاف وبيان الراجح بأدلته.

٨ ـ العناية بشرح الألفاظ والمصطلحات الغريبة، مع ضبطها والتعليق عليها ما أمكن.

٩ ـ نسبة الأبيات الشعرية إلى قائليها، وتوثيقها من المصادر الأصلية.

١٠ ـ التعريف بالأعلام غير المشهورين عند ورودهم أول مرَّة في صلب البحث(١).

* **وفي خاتمة هذه المقدمة** أحمد الله ﷻ على تيسيره وعونه، وهدايته وتوفيقه، فله الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وأشكر ثانيًا لمن كانا السبب في وجودي بعد الله ﷻ؛ امتثالًا لأمر الله ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، فلهما الشكر والدعاء، سائلًا الله ﷻ أن يرحمهما كما ربَّياني صغيرًا.

كما أتوجَّه بالشكر الجزيل لكل من وقف معي أو ساعدني في مسيرة هذه الرسالة برأي أو تسديد أو إثراء، فلهم منِّي الدعاء الصادق بأن يكتب اللهُ أجرهم ويجزل لهم العطاء والمثوبة.

وبعد؛ فمع هذا الجهد في الجمع والكتابة والصياغة والاستشارة إلا أن الله يأبى أن تكون العصمة لغير كتابه، وإنني كلما طالعت هذا البحث وراجعته بحذف أو زيادة أو نقصان؛ تذكرت قولةً بديعة للقاضي البَيْساني يصفُ بها من هم على مثل حالي، **حيث يقول**: «إنِّي رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن،

---

(١) **وضابط ذلك**: أنني لا أُترجم للخلفاء الراشدين ولا الصحابة المشتهرين؛ كأبي هريرة وعائشة وابن عمر ونحوهم، ولا الأئمة المعروفين كالإمام أحمد وابن تيميَّة وابن القيِّم ونحوهم؛ وذلك لكي لا أثقل البحث بكثرة الحواشي، ولأنهم أشهر من أن يعرَّف بهم.

ولو زيد لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل؛ وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البَشَر»[١].

فرجائي من كل ناظر يطَّلع على عيب أو خلل أن يدلَّني عليه ويرشدني إليه؛ فالدين النصيحة، والمسلمون بخير ما تعاونوا، والحمد لله ربِّ العالمين.

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري
A44t@hotmail.com

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، للزبيدي: (١/ ٣).

البَابُ ٱلْأَوَّلُ

التدبـــر

مفهومه وحكمه وضوابطه



ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

مفهوم التدبر وحُكمه

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: مفهوم التدبر عند اللُّغويين.
- المبحث الثاني: مفهوم التدبر عند المفسِّرين.
- المبحث الثالث: تعريف هذا المركب الإضافي: «تدبر القرآن الكريم».
- المبحث الرابع: المعاني المقاربة لمفهوم التدبر.
- المبحث الخامس: حُكم التدبر.



المَبۡحَثُ ٱلۡأَوَّلُ

مفهوم التدبر عند اللُّغويين

الناظر في كتب أهل اللُّغة يجد أنه لا يخلو كتاب أُلف في هذا العلم، من التطرُّق لمدلول كلمة: **(التَّدبر)**؛ وما ذاك إلا لشيوعها وانتشارها؛ حيث ذكروا أن المادة الأصلية لكلمة التدبر: **(د ب ر)**، تدل على معانٍ متعددة:

• **جاء في «مقاييس اللغة»**: «الدَّال والباء والرَّاء، أصل هذا الباب أنَّ جُلّه في قياسٍ واحد، وهو آخِر الشَّيء وخَلْفُه، خلافُ قُبُلِه... فمعظم الباب أنَّ الدُّبُرَ خلافُ القُبُل... من ذلك: دبَّرْتُ الحديثَ عن فُلانٍ، إذا حدَّثتَ به عنه، وهو من الباب؛ لأنَّ الآخِر المحدِّث يَدْبُر الأوّلَ يجيءُ خَلْفَه... وقد دَبَرَ يَدْبُرُ دُبُورًا، والدَّبَرانُ: نجمٌ، سمِّي بذلك لأنَّه يَدْبُر الثُّريَّا، ودابَرْتُ فُلانًا: عاديتُه، وفي الحديث: **(لَا تَدَابَرُوا)**، وهو من الباب، وذلك أنْ يترُكَ كلٌّ واحدٍ منهما الإقبالَ على صاحبه بوجْهه، والتدبير: أنْ يُدبِّر الإنسانُ أمرَه، وذلك أنَّه يَنظُر إلى ما تصير عاقبتُه وآخرُه... والدابر من القِداح: الذي لم يَخْرُج؛ وهو خلاف الفائز، وهو من الباب؛ لأنَّه ولّى صاحبَه دُبُرَه، والدَّابر: التابع؛ يقال: دَبَرَ دُبُورًا...»[1].

• **وفي «لسان العرب»**: «دبَّر الأمر وتدبَّره؛ **أي**: نظر في عاقبته وعرف الأمر تدبُّرًا؛ **أي**: بآخره. فتدبُّر الكلام؛ **أي**: النظر في أوله

---

(١) مقاييس اللغة، مادة: (دبر)، (٢/ ٣٢٤).

وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة... والتدبر في الأمر: التفكُّرُ فيه»[(١)].

• وفي **«التعريفات»**: «التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر: تصرُّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر: تصرُّفه بالنظر في العواقب»[(٢)].

• وفي **«روح المعاني»**: «أصل التدبُّر: التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استُعمل في كل تأمل سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»[(٣)].

• وفي **«المعجم الوسيط»**: «دَبَّر الأمر: ساسَه ونظر في عاقبته»[(٤)].

وهناك مرادفات أخرى للتدبر، مثل: الحرث، يقال: حرثت القرآن؛ **أي**: أطلت دراسته وتدبره[(٥)]، ومثل التعقل: يقال: تعقلت الشيء؛ **أي**: تدبرته[(٦)].

ولو تأملنا الأقوال السابقة لمعاني التدبر نجد أنها تتلخص فيما يلي:

- النظر في آخر الشيء، وخَلْفَهُ.
- النظر في أول الشيء وآخره، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة.
- التفكر في الأمر.
- النظر في عواقب الأمور.
- التأمل في أدبار الأمور وعواقبها.

---

(١) لسان العرب، لابن منظور: (٤/ ٢٦٨)، مادة: (دبر).
(٢) التعريفات، للجرجاني: (ص١٦٧).
(٣) روح المعاني، للآلوسي: (٥/ ٩٢).
(٤) المعجم الوسيط: (١/ ٢٦٩)، مادة: (دبر).
(٥) أساس البلاغة، للزمخشري، مادة: (حرث).
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي: (١/ ١٨٨).

فالملاحظ على هذه المعاني تقاربها، وأن جُلَّها مأخوذ من النظر في أدبار الشيء، وعواقبه ونهاياته، **وبهذا ندرك أن دلالات هذه المادة يمكن أن ترشدنا إلى أن (التدبر) يحتاج إلى**: التتبع، والتعمق، والنظر في مآلات العواقب، وقد جمع الإمام ابن القيِّم هذه المعاني بكلام جامع في أثناء تعريفه للتدبر، **حيث يقول**: «**تدبر الكلام**: أن ينظر في أوله وآخره، ثم يعيد نظره مرة بعد مرة؛ ولهذا جاء على بناء التَّفَعُّل كالتجرُّع والتفهُّم والتبيُّن...»[(١)].



(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٣).

المَبۡحَثُ ٱلثَّانِي

مفهوم التدبر عند المفسرين

إنَّ من أهم المسائل التي اعتنى بها العلماء في مصنفاتهم مسألة: تحرير المصطلحات وضبطها؛ لأجل تمييزها عن غيرها، وليكون الكلام فيما بعدها دقيقًا مبنيًّا على هذا المصطلح المحرَّر، ومن خلال البحث في كتب المفسرين لم أجد ـ حسب اطلاعي ـ أحدًا من المفسرين المتقدمين نصَّ على تعريف التدبر اصطلاحًا، وإنما عرَّف أكثرهم معنى التدبر لغةً، واكتفوا به كما سيأتي، وأكثر التعريفات التي وجدتُّها كانت في كتب المعاصرين، اجتهدوا في إخراجها من كلام المفسرين في مواضع مختلفة من كتبهم، إمَّا في شرحهم لآيات التدبر، أو في سياق آخر.

أمَّا العلماء المتقدمون فلم يخصُّوه بتعريف اصطلاحي خاص ينفرد عن التعريف اللُّغوي، وهذا ليس بغريب؛ لأن كلمة **(التدبر)** من الكلمات الواردة في القرآن على أصل معناها اللُّغوي، ولم تنتقل إلى اصطلاح شرعي جديد، فحقيقتها اللُّغوية متَّفقٌ على معناها، ولم تنتقل إلى حقيقة شرعية أخرى، مثل: الصلاة والحج وغيرهما من المصطلحات، فلم تكن الحاجة تتطلب تعريف مصطلح التدبر شرعًا؛ بل يبقى التعريف على الاستعمال اللُّغوي، وبه تُفَسَّرُ الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، وإن كان المعنى عند المفسرين أخصَّ من المدلول العام للتدبر عند اللُّغويين، وعلى ذلك يكون مصطلح التدبر قد أصبح حقيقة عرفية عند المفسرين، والمراد به تدبر القرآن، فهو يفسَّر عند الإضافة بما يناسب المضاف إليه،

مثل أن يقال: تدبر القرآن، أو تدبر الكلام، أو تدبر الكتاب وهكذا[(١)].

والمفهوم السابق هو الذي سار عليه المفسرون ـ رحمهم الله تعالى ـ فإنهم فسَّروا التدبر بمعناه اللُّغوي، وذكروا في كل آية ما يناسب السياق، **وفيما يلي جملة من نصوصهم في ذلك؛ يتضح بها المراد:**

- **قال الضحاك[(٢)] في معنى تدبر القرآن:** «النَّظَرُ فِيهِ»[(٣)].
- **وقال الحسن البصري:** «وما تدبرُ آياتِهِ إلا اتباعُهُ بعلمِهِ»[(٤)].
- **وقال مقاتل بن سليمان[(٥)] في بيانه:** «هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك»[(٦)].
- **وقال الطبري:** «ليتدبَّروا حُجَج الله التي فيه، وما شرع فيه من

---

(١) **ينظر في ذلك كتاب:** مفهوم التدبر... تحرير وتأصيل «أوراق عمل الملتقى الأول لتدبر القرآن الكريم»، إشراف مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية: (ص٦٤ ـ ٨٨ ـ ٨٩)، **وينظر** في الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية؛ كتاب: الصَّاحبي في فقه اللغة، لابن فارس: (ص٧٨ ـ ٨٦)، وروضة الناظر وجنة المناظر، لابن قدامة المقدسي: (١/ ١٧٤)، والإحكام للآمدي: (١/ ٢٨)، والبحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي: (٢/ ١٥٤ ـ ١٧٠).

(٢) الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد وقيل أبو القاسم، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم، وثَّقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما، وحديثه في السنن، وله باع كبير في التفسير والقصص، نقل غير واحد وفاة الضحاك في سنة اثنتين ومئة، وقال أبو نعيم الملائي: توفي سنة خمس ومئة، وقال الحسين بن الوليد النيسابوري: توفي سنة ست ومئة. **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (٤/ ٥٩٨ ـ ٦٠٠).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٤/ ٢٦٥).

(٤) مصنف عبد الرزاق: (٥٩٨٤).

(٥) مقاتل بن سليمان البلخي صاحب التفسير والمناكير، قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة. وقال البخاري: مقاتل لا شيء البتة. وقال الذهبي: قلت: أجمعوا على تركه. مات رَحِمَهُ اللهُ سنة نيف وخمسين ومئة. **ينظر**: الجرح والتعديل: (٨/ ٣٥٤)، وسير أعلام النبلاء: (٧/ ٢٠١ ـ ٢٠٢).

(٦) تفسير مقاتل: (١/ ٣٣٥).

شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به»[١].

▪ **وقال الزمخشري**[٢]: «**معنى تدبر القرآن**: تأمل معانيه وتبصر ما فيه»[٣].

▪ **وعرَّفه ابن عطية**[٤] **بأنه**: «النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء»[٥].

▪ **وقال القرطبي**: «**هو**: التفكُّر فيه؛ (**أي**: في القرآن) وفي معانيه»[٦].

▪ **وقال البيضاوي**[٧]: «التأمُّل في معاني القرآن، والاستبصار بما فيه»[٨].

---

(١) جامع البيان: (٢٣/ ١٥٣).

(٢) **الزمخشري**: محمود بن عمر بن محمد بن عمر العلامة أبو القاسم الزَّمَخْشَريّ الخوارزمي، النحوي، اللُّغوي، المتكلم، المعتزلي، المفسر، برع في الأدب والنحو واللغة، لقي الكبار وصنف التصانيف، وكان متظاهرًا ببدعة الاعتزال داعية إليه، قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ٧٨): «داعية إلى الاعتزال ـ أجارنا الله ـ فكن حَذِرًا من كشافه»، له تصانيف منها: الكشاف في التفسير، وأساس البلاغة، والمفصل في النحو، وغيرها، توفي سنة (٥٣٨هـ). **ينظر**: سير أعلام النبلاء للذهبي: (٢٠/١٥١)، طبقات المفسرين للسيوطي: (ص١٢٠).

(٣) الكشاف: (١/ ٤٣٨).

(٤) **ابن عطية**: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن غالب بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، أبو محمد، المفسر الفقيه، كان عارفًا بالأحكام والحديث وله شعر، ولي القضاء، له مؤلفات أشهرها: المحرر الوجيز، توفي سنة (٥٤٢هـ)، وقيل غير ذلك. **ينظر**: نفح الطيب للمقري: (٢/ ٥٢٦)، سير أعلام النبلاء للذهبي: (١٩/ ٥٨٧).

(٥) المحرر الوجيز: (٢/ ١٦١).

(٦) الجامع لأحكام القرآن: (٥/ ٢٩٠).

(٧) **البيضاوي**: عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، ناصر الدين، أبو سعيد، البيضاوي، الشيرازي، الشافعي، فقيه، مفسر، أصولي، محدث، ولي قضاء القضاة بشيراز، أخذ الفقه عن والده ومعين الدين أبي سعيد وأبي حامد الغزالي وغيرهم. من تصانيفه: منهاج الأصول إلى علم الوصول، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل وهو المشهور بتفسير البيضاوي، وشرح مصابيح السُّنَّة للبغوي، توفي سنة (٦٨٥هـ). **ينظر**: طبقات الشافعية: (٥/ ٥٩)، والبداية والنهاية: (١٣/ ٣٠٩).

(٨) تفسير البيضاوي: (١/ ٤٧٨).

▪ **وقال النسفي**[(١)]: «التأمل والنظر في أدبار الأمور، وما يؤول إليه في عاقبته»[(٢)].

▪ **وقال ابن القيِّم**: «تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقُّله»[(٣)].

▪ **وعرَّفه السعدي**[(٤)] **بقوله**: «هو التأمُّل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك»[(٥)]، وهو تعريف مقاتل بن سليمان السابق أعجبه ونقله.

▪ **وعرَّفه ابن عاشور**[(٦)] **بقوله**: «**التدبر**: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نُصبت له. وأصله أنه من النظر في دُبُر الأمر؛ **أي**: فيما لا يظهر منه للمتأمل بادئ ذي بدء»[(٧)].

---

(١) **نجم الدين النسفي**: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ـ نسبة إلى نسف من بلاد ما وراء النهر ـ الحنفي، أحد الزهاد المتأخرين وصاحب تصانيف متنوعة في الأصول والفقه وغيرهما، من مؤلفاته: متن الوافي في الفروع، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل وهو المسمى بتفسير النسفي، والمنار في أصول الفقه، وغيرها، توفي سنة (٧٠١هـ). **ينظر**: الدرر الكامنة: (٢/ ٢٤٧)، والفوائد البهية في تراجم الحنفية: (ص١٠٢).

(٢) **ينظر**: تفسير النسفي المسمى: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»: (١/ ٢٣٦).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٤٥١).

(٤) **السعدي**: عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي: مفسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد. مولده ووفاته في عنيزة (بالقصيم)، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها سنة (١٣٥٨هـ)، من مصنفاته: تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان، وطريق الوصول إلى العلم المأمول، والقواعد والأصول الجامعة في أصول الفقه، والقول السديد شرح كتاب التوحيد، توفي سنة (١٣٧٦هـ). **ينظر**: الأعلام: (٣/ ٣٤٠).

(٥) تفسير السعدي: (ص١٨٩).

(٦) **محمد الطاهر ابن عاشور**: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، عُيِّن عام (١٩٣٢م) شيخًا للإسلام، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، من مصنفاته: مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، والتحرير والتنوير في تفسير القرآن، توفي سنة (١٣٩٣هـ). **ينظر**: الأعلام: (٦/ ١٧٤).

(٧) التحرير والتنوير: (١٨/ ٧١).

▪ **وقال محمد الأمين الشنقيطي**[١]: «تدبر آيات هذا القرآن العظيم؛ **أي**: تصفحها، وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها»[٢].

▪ **وعرَّفه عبد الرحمٰن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني**[٣] **بأنه**: «التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكَلِم ومراميه البعيدة»[٤].

إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة التي ذكرها المفسرون، وعند التأمل في جميع هذه المعاني نجد انسجامها مع بعضها، وأن ليس بينها تناقضٌ يذكر، وهي تصب في معنى واحد، وبعضها قد يكون أدق من بعض، ويظهر أن كلام المفسرين فيها، يدور على إعمال الفكر والنظر والتأمل والتفهم في آي القرآن الكريم، للتوصل إلى معانيه ومقاصده، والعمل بما فيه.



---

(١) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني،عالم محقق ومفسر، له تصانيف كثيرة. ولد في شنقيط، وطلب العلم في سن مبكرة، فحفظ القرآن ودرس الفقه المالكي، ثم رحل إلى الحج، وبقي في المملكة العربية السعودية إلى أن توفي عام (١٣٩٣هـ) في المدينة النبوية، وكان ضمن هيئة كبار العلماء وعضوًا في رابطة العالم الإسلامي. ترك عدة كتب أبرزها تفسيره المشهور: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، **ينظر كتاب**: العلامة الشنقيطي مفسرًا: (ص١٩ ـ ٧٧).

(٢) أضواء البيان، للشنقيطي: (٧/ ٤٢٩).

(٣) عبد الرحمٰن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، ولد في دمشق سنة (١٣٤٥هـ) ونشأ في بيت علمٍ ودعوةٍ، وكان لوالده الشيخ حسن حَبَنَّكَة فضل تربيته وتأديبه وتعليمه، درس في معهد التوجيه الإسلامي في دمشق، ثمَّ درس في الأزهر، وعمل بعد تخرُّجه في سورية، ثمَّ انتقل إلى السعوديَّة، وعمل أستاذًا في جامعة الإمام محمَّد بن سعود في الرياض، ثمَّ أستاذًا في جامعة أمِّ القرى في مكَّة قرابة ثلاثين عامًا. ومن أشهر كتبه: قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله، وصراعٌ مع الملاحدة حتى العظم، وغيرهما، توفي سنة (١٤٢٥هـ). **ينظر ترجمته في كتاب**: عبدُ الرَّحمٰن حَبَنَّكَة المَيدانيُّ العالم المفكِّر المفسِّر، بقلم زوجه الأستاذة بجامعة أمِّ القُرى سابقًا: عائدة راغب الجرَّاح، صدرَ عن دار القلم بدمشق.

(٤) قواعد التدبر الأمثل، للميداني: (ص١٠).

المَبحَثُ ٱلثَّالِثُ

تعريف هذا المركَّب الإضافي:
(تدبر القرآن الكريم)

من خلال التأمل فيما سبق من هذه النصوص التي ذكرها العلماء حول معنى تدبر القرآن؛ فإنه يصعب على الباحث أن يختار حدًّا(١) جامعًا مانعًا يتفق عليه الجميع، وبما أن الأمر اجتهادي، **فالأقرب ـ والله أعلم ـ أن يقال في تعريف تدبر القرآن الكريم إنه:**

«النظرُ في آياتِ القرآنِ الكريمِ، والتفكرُ في معانيها؛ بقصدِ اتعاظِ القلب، وامتثالِ الجوارحِ»(٢).

وهذا المفهوم اجتهدتُّ في إخراجه بعد جمع هذه الأقوال ومقارنتها، **وتحليل ذلك فيما يلي:**

---

(١) يستخدم بعض العلماء كلمة: حدَّه ويعنون به تعريفه، وبعضهم يقول: رسمه، وبعضهم يقول: حقيقته، وجميعها سواء. **ينظر كتاب**: توضيح الأفكار، للصنعاني: (١/١٥٨).

(٢) **من أفضل ما وقفت عليه في تحرير مفهوم تدبر القرآن تعريفان للمعاصرين:**
الأول: تعريف الدكتور محمد بن عبد الله الربيعة الذي جاء في ورقته المقدمة للملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم، بعنوان: مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسُّنَّة وأقوال السلف، حيث عرّفه بأنه: «الوقوف مع الآيات والتأمل فيها؛ للانتفاع بها إيمانًا وعملًا وعلمًا»، **والتعريف الآخر**: تعريفُ الدكتور فهد بن مبارك الوهبي الذي جاء في ورقته للملتقى نفسه، بعنوان: «تحرير معنى التدبر عند المفسرين»، حيث يقول: «يمكن الخروج بتعريف لكلمة التدبر بمعناها الاصطلاحي عند المفسرين بأن التدبر هو: «تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والاعتبار»». **ينظر كتاب**: مفهوم التدبر... تحرير وتأصيل: (ص٩٧ ـ ١٧٨). وفي اعتقادي أن هذه التعريفات تدور حول معنى واحد، والخلاف فيها سهل، ولا مشاحة في الاصطلاح.

أن كلمة: (النظر) قد اتفق عليها أغلب المعرفين للتدبر، كما سبق من تعريف اللُّغويين لكلمة التدبر؛ حيث ذكروا أن التدبر هو النظر في عواقب الأمور؛ إضافةً إلى كثرة كلمة (النظر) أيضًا في نصوص علماء التفسير كما ظهر، والنظر مقصود لذاته؛ إذ كيف يكون تدبرٌ للقرآن دون إعمال النظر في آياته.

أمَّا كلمة: (التفكر) فهي كسابقتها نصَّ عليها غير واحد من العلماء، **إضافةً إلى أن التفكر هو**: تصرف القلب بالنظر في الدليل كما بيَّنه الجرجاني[١] في «التعريفات»[٢] وهذا هو المقصود؛ إذ إن القرآن حثَّ على النظر في أدلته وآياته وهو عين التفكر في معانيه، فلا يكون المرء متدبرًا للقرآن إلا إذا تفكر في معانيه.

وجملة: (بقصد اتعاظ القلب، وامتثال الجوارح) هذا هو لازم التدبر، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

يقول الإمام ابن جرير الطبري في تفسير الآية السابقة؛ أي: «ليتدبَّروا حُجَج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به»[٣].

وهذا أيضًا ما عناه التابعي الجليل الحسن البصري حين فسر التدبر بلازمه، فقال: «وما تدبرُ آياتِهِ إلا اتباعُهُ بعلمِهِ»[٤].

---

(١) **الجرجاني**: علي بن محمد بن علي المعروف بالسيد الشريف، أبو الحسن، الجرجاني، الحسيني الحنفي، مشارك في أنواع من العلوم. كان ذا خلق وتواضع مع الفقراء. من تصانيفه: التعريفات، ورسالة في فن أصول الحديث، توفي سنة (٨١٦هـ). **ينظر**: الضوء اللامع: (٥/ ٣٢٨)، والفوائد البهية: (ص١٢٥).

(٢) التعريفات، للجرجاني، (ص١٦٧).

(٣) جامع البيان: (٢٣/ ١٥٣).

(٤) **ينظر**: مصنف عبد الرزاق: (٥٩٨٤).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «تدبر آيات هذا القرآن العظيم؛ **أي**: تصفحها، وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها»[(١)].

وبناء على جميع ما ذُكِر نستطيع القول: إن التدبر عملية عقلية ذهنية، قد ينشأ عنه التأثر وهو أمر وجداني، وقد ينشأ عنه العمل والامتثال، وهو غاية العلم، وهو أمر يقوم على تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي[(٢)]، ولذلك كانت هذه الأمور مطلوبة من قارئ القرآن، **كما بيَّنها السيوطي بقوله**: «فالمطلوب من قارئ القرآن أن يُعمل نظره في آيات القرآن، ويشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى الآيات، ويتأمل الأوامر والنواهي، من أجل أن يتعظ ويعتبر، فإن كان مما قصَّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوَّذ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرَّع وطلب»[(٣)].

فكلامه هنا تضمن إعمال العقل والذهن، وشمل أيضًا التأثير الوجداني بالتفكر والتأمل، وشمل العمل والتنفيذ الذي هو ثمرة التدبر ومقصوده.

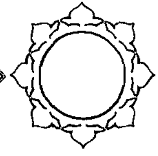


---

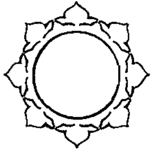
(١) أضواء البيان: (٧/ ٤٢٩).

(٢) **ينظر كتاب**: مفهوم التدبر... تحرير وتأصيل: (ص٨٢).

(٣) الإتقان في علوم القرآن: (١/ ١٢٧).



المَبحَثُ الرَّابِعُ



المعاني المقاربة لمفهوم التدبر

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: الفرق بين التدبر والتفسير.
- المطلب الثاني: الفرق بين التدبر والاستنباط.
- المطلب الثالث: الفرق بين التدبر والتفكر.
- المطلب الرابع: الفرق بين التدبر والتأمل.

تمهيد

يَقْرُب من معنى التدبر عدة ألفاظ، مثل: التفكر، والتذكر، والنظر، والتأمل، والاعتبار، والاستبصار، ووردت هذه الألفاظ في القرآن في مواطن مختلفة(١).

وقد علَّق عليها ابن القيِّم في كلام نفيس، وبيَّن أنها معانٍ متقاربة تجتمع في شيء، وتفترق في شيء آخر، فيقول بعدما ذكرها: «وهذه معان متقاربة تجتمع في شيء وتتفرق في آخر، فيسمى تفكرًا؛ لأنه استعمال الفكرة في ذلك، وإحضاره عنده، ويسمى تذكرًا؛ لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته، بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ويسمى نظرًا؛ لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه، ويسمى تأملًا؛ لأنه مراجعة للنظر كرَّة بعد كرَّة، حتى يتجلى له وينكشف لقلبه، ويسمى اعتبارًا، وهو افتعال من العُبور؛ لأنه يعبر منه إلى غيره، فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة، وهي المقصود من الاعتبارِ... ويسمى تدبرًا؛ لأنه نظر في أدبار الأمور، وهي أواخرها وعواقبها، ومنه: تدبُّر القول... ويُسمى استبصارًا، وهو استفعال من التبصر، وهو تبيُّن الأمر وانكشافه وتجلِّيه للبصيرة...»(٢).

وأكثر هذه الكلمات السابقة تقاربًا وتداخلًا مع كلمة التدبر، هي: التفسير والاستنباط والتفكر والتأمل، **وفيما يلي بيان لأهم الفروق بينها وبين التدبر**:

---

(١) **ينظر**: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، د: مساعد الطيار: (ص٢٠٢).

(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيِّم: (١/ ١٨٢).

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

الفرق بين التدبر والتفسير

تدور مادة «فَسَرَ» في لغة العرب على عدة معان، منها: البيان والكشف والوضوح، **فالتفسير:** تفعيل من الفَسْر، وهو: البيان أو الإبانة وكشف المُغَطَّى[(١)].

قال ابن فارس[(٢)]: «الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه»[(٣)].

ويأتي بالتخفيف والتشديد، لكنِ التشديدُ أعمُّ في الاستعمال[(٤)]، وبه جاء القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]؛ **أي**: بيانًا وتفصيلًا[(٥)].

وعلى ذلك يكون تفسير الكلام: بيانه، وإيضاحه، وإظهاره، والكشف عن المراد منه[(٦)].

---

(١) **ينظر**: مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: (فسر)، (٤/ ٥٠٤)، وتهذيب اللغة، للأزهري: (١٢/ ٤٠٦)، ولسان العرب، لابن منظور، مادة: (فسر)، (٥/ ٥٥)، والقاموس المحيط، للفيروزابادي: (٢/ ١١٤).

(٢) **ابن فارس**: اللغوي أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي، كان إمامًا في علوم شتى، خصوصًا اللغة، فإنه أتقنها، وألَّف كتابه المجمل في اللغة، وله كتاب حلية الفقهاء، وكان رأسًا في الأدب، بصيرًا بفقه مالك، ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين، جمع إتقان العلم إلى ظرف أهل الكتابة والشعر، توفي سنة (٣٩٥هـ). **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (١٧/ ١٠٣ ـ ١٠٤)، وشذرات الذهب: (٣/ ١٣٢).

(٣) مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: (فسر)، (٤/ ٥٠٤).

(٤) تاج العروس، للزبيدي، مادة: (فسر)، (١٣/ ٣٢٣).

(٥) جامع البيان، لابن جرير الطبري: (١٧/ ٤٤٨)، ومعالم التنزيل، للبغوي: (٦/ ٨٣).

(٦) تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه، للعبيد: (ص١٦).

وقد اختلفت عبارات العلماء في معنى التفسير في الاصطلاح، وتنوعت، وبلغت حوالي عشرين تعريفًا، وقد يطول المقام بسردها[(١)]، **وأجود هذه التعاريف وأحسنها ما استخلصه الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال في تعريفه اصطلاحًا:** «بيان معاني القرآن الكريم»[(٢)].

«**فخرج بالبيان:** ما كان خارجًا عن حدِّ البيان؛ ككثير من المسائل الفقهية، والمسائل النحوية، ومبهمات القرآن، وغيرِها مما يُذكر في كتب التفسير، مما لا أثر له في التفسير.

ويخرج بالقرآن: غيرُ كلام الله سبحانه، وكلامُه لملائكته، وكلامُه لرسلِه السابقين، والحديثُ القدسيُّ»[(٣)].

وبعد معرفة ذلك يمكننا التفريق بين التدبر والتفسير بما يلي[(٤)]:

أولًا: أن التدبر من أكبر مقاصد التفسير؛ وذلك لأن كثيرًا من آياتِ القرآن الكريم هي آيات عظة وعبرة، وبيان تلك العبر والعظات من التفسير قطعًا، لأنَّه بيانٌ للمراد من هذه الآيات.

---

(١) **ينظر في تعريف التفسير اصطلاحًا، الكتب الآتية:** مقدمة تفسير الثعلبي المسمى بالكشف والبيان: (١/ ٨٧)، والثعلبي المتوفى سنة (٤٢٧هـ)، هو أقدم من اطلعت عليه ممن ذكر مفهوم التفسير، حيث قال: «فيكون معنى التفسير: كشف المنغلق من المراد بلفظه، وإطلاق المحتبس عن فهمه». وذكره أيضًا شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: (١٧/ ٣٦٧)، **وينظر أيضًا في تعريف التفسير:** التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جُزَي: (١/ ٦)، والبحر المحيط، لأبي حيان: (١/ ٢٦)، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي: (١/ ١٣)، ومناهل العرفان، للزرقاني: (٢/ ٣)، ومفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، للطيار: (ص٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٦٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن عثيمين: (١/ ٢٠).

(٣) **ينظر**: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، للطيار: (ص٣٢).

(٤) استفدت في تلخيص هذه الفروق من كتاب: مفهوم التدبر... تحرير وتأصيل، (ص١١٠ ـ ١١١).

ثانيًا: أن المقصود الأصلي للتفسير هو بيان معاني كلام الله تعالى، ومقصود التدبر هو الاتعاظ والاعتبار.

ثالثًا: أن التفسير لا يلزم منه الاتعاظ والعمل؛ فقد يأتي إنسان غير مسلم ويُفسِّر معاني القرآن، بينما التدبر لا بد فيه من الاتعاظ والعمل.

رابعًا: أن المفسر غرضه العلم بالمعنى، والمتدبر غرضه الانتفاع والامتثال: علمًا وإيمانًا وعملًا وسلوكًا؛ ولذا فإن التفسير يغذي القوة العلمية، والتدبر يغذي القوة العلمية والإيمانية والعملية.

خامسًا: أن التدبر مأمور به عامة الناس للانتفاع بالقرآن والاهتداء به؛ ولذلك خوطب به ابتداءً الكفار في آيات التدبر، والناس فيه درجات؛ بحسب رسوخ العلم والإيمان وقوة التفاعل والتأثر. أما التفسير فمأمور به بحسب الحاجة إليه لفهم كتاب الله تعالى بحسب الطاقة.

سادسًا: أن التدبر هو الغاية من نزول القرآن؛ لأنه باعث على الامتثال والعمل، وأما التفسير فهو وسيلة للتدبر.



المَطْلَبُ الثَّانِي

الفرق بين التدبر والاستنباط

يقول ابن فارس: «نَبَطَ: النون والباء والطاء كلمةٌ تدلُّ على استخراج شيء. واستنبَطْتُ الماءَ: استخرجتُه»(١).

وعرفه الجرجاني اصطلاحًا بأنه: «استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة»(٢).

قال ابن جرير الطبري: «وكل مُستخرِج شيئًا كان مستترًا عن العيون أو عن معارف القلوب فهو له مُستنبِط»(٣).

وقال النووي: «قال العلماء: الاستنباط: استخراج ما خفيَ المراد به من اللفظ، وسمِّي النَّبَط والأَنْبَاط؛ لاستخراجهم ينابيع الأرض بحيث لا يهتدي إليها غيرهم كاهتدائهم»(٤).

وعلى ذلك فإنه يمكن أن يفرَّق بين التدبر والاستنباط في الأمور الآتية(٥):

أولًا: بالنظر في أصلهما في اللغة يتبين الفرق بينهما، فالتدبر هو النظر إلى أدبار الشيء ونهاياته، وهذا يدخل فيه الدلالات والنهايات من الانتفاع والاهتداء، وأما الاستنباط فهو استخراج ما خفي، وهذا مقصور في الدلالات.

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: (نبط)، (٥/ ٣٨١).
(٢) التعريفات، للجرجاني: (ص٨٣).
(٣) جامع البيان: (٨/ ٥٧١).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا النووي: (٢/ ١٥٨).
(٥) **ينظر كتاب:** مفهوم التدبر... تحرير وتأصيل: (١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٢٦ ـ ١٣٠).

ثانيًا: أنهما يجتمعان في إعمال الفكر والنظر والتأمل، ويختلفان في الغرض؛ فغرض المستنبط: العلمُ بدقائق المعاني والدلالات والهدايات، وهو خاصٌّ بخواصِّ العلماء، وغرض المتدبر يتجاوزه إلى قصد الانتفاع والامتثال والعمل، وهو عام لجميع الناس.

ثالثًا: أنه يشترط في التدبر قصد الانتفاع والامتثال، بخلاف الاستنباط، وإنما يشترط فيه وجود ما يدل عليه في النص بشروط وضوابط.

رابعًا: أن الاستنباط نتيجة للتدبر فهو فرع منه، وذلك أن التدبر هو الوقوف مع الآيات والتأمل فيها؛ فينتج من ذلك الاستنباط.



 المَطْلَبُ الثَّالِثُ 

الفرق بين التدبر والتفكر[١]

وردت مادة: (التفكر) في نحو تسعة عشر موضعًا في القرآن الكريم[٢]، وقد يتوهم المرء بأنها مترادفة مع لفظ التدبر، والصحيح أن بينهما تقاربًا، فقد يجتمعان في شيء واحد، فيقال: تفكر في الكلام، وتفكر في الخلق، **ويفترقان في الأمور الآتية:**

أولًا: أن التفكر أظهر في النظر في الآيات الكونيَّة الواقعة والمشاهَدة، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]. وهذا غالب استعمال القرآن، وقد يأتي بمعنى التفكر في الآيات القرآنية كما قال تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

أمَّا التدبر فهو أظهر في النظر في الآيات القرآنيَّة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

ثانيًا: أن التدبر تصرُّف القلب بالنظر في عواقب الأمور، بينما التفكر تصرُّف القلب بالنظر في الدلائل والمعاني، **كما جاء في «الفروق اللغوية»:** «الفرق بين التدبر والتفكر: أن التدبر تصرُّف القلب بالنظر في العواقب، والتفكر تصرُّف القلب بالنظر في الدلائل»[٣].

---

(١) **ينظر:** الفروق اللغوية، للعسكري: (١/ ١٢١)، والتعريفات، للجرجاني: (ص١٦٧)، وكتاب المعين على تدبر الكتاب المبين، لمجد مكي: (ص٦).

(٢) **ينظر كتاب:** تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق، لرقية العلواني: (ص١٩).

(٣) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: (١/ ١٢١).

ثالثًا: أن التفكر مقتصر على الذهن، فهو إدامة النظر العقلي في الآيات والإشارات فقط.

بينما التدبر ليس مقتصرًا على الذهن فقط؛ بل هو مرحلة من ذلك، ثم يتبعه مرحلة التطبيق والعمل.



المطلب الرابع

الفرق بين التدبر والتأمل

جاء في «الفروق اللُّغوية» أنَّ التأمل هو: «النظر المؤمَّل به معرفة ما يُطلب، ولا يكون إلا في طُول مدَّة، فكل تأمل نظر، وليس كل نظر تأملًا»(١).

وجاء في كتاب «العين» للخليل(٢): «**التَّأَمُّل**: التَّثَبُّتُ في النّظر»(٣). وفي «القاموس المحيط»: «تأمَّلَ: تَلَبَّثَ في الأَمْرِ والنَّظَرِ»(٤).

ويتضح مما سبق: أن التأمل يدور حول التثبُّت والتدقيق في النظر إلى الأمر الحاضر.

أمَّا التدبر: فيراد منه النظر في عواقب الأمور، فهو ينظر في الحاضر من أجل المستقبل(٥).

---

(١) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري: (١/ ٥٤٣).

(٢) الخليل الإمام صاحب العربية، ومنشئ علم العروض، أبو عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، أحد الأعلام، وكان رأسًا في لسان العرب، ديِّنًا ورعًا، قانعًا متواضعًا، كبير الشأن، نسب إليه كتاب العين في اللغة، وثقه ابن حبان، وقيل: كان متقشفًا متعبدًا، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ مفرط الذكاء، توفي سنة (١٧٠هـ). **ينظر**: المنتظم: (٧/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠)، وسير أعلام النبلاء: (٧/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠).

(٣) كتاب العين، مادة: (أمل).

(٤) القاموس المحيط، مادة: (أمل).

(٥) **ينظر كتاب**: المعين على تدبر الكتاب المبين، لمجد مكي: (ص٦).

ومن المصطلحات المقاربة للتدبر أيضًا «الفهم»، فهو متداخل مع التدبر، وقيل في حدِّه: تصور المعنى من اللفظ، وقيل: هيئة للنفس يتحقَّق بها ما يحسُن[(١)].

وعندئذ يكون التدبر نتيجةً للفهم، كما أنه يكون وسيلة لما وراء ذلك من المعاني الداخلة تحت التدبر، فإن من التدبر ما لا يتم إلا بعد الفهم.

وبهذا نعلم أن بين التدبر والفهم ملازمة، ولا يخفى أن الناس يتفاوتون في الفهم تفاوتًا كبيرًا، لكنْ كلٌّ يحصل له من التدبر بحسبه، وقد يؤتى فهمًا لكنه يحرم التدبر، والله المستعان[(٢)].

* الفرق العام بين التدبر وبين غيره من المصطلحات المقاربة:

وعلى كلٍّ فإن هذه المعاني ـ وإن كانت متقاربة ـ إلا أنها ليست مترادفة، وإذا ذكر بعض أهل العلم أنها مترادفة، فإنما يقصد الترادف الجزئي الذي يوجد في بعض الأحيان دون بعضها الآخر[(٣)].

ولو لاحظنا جميع تعريفات العلماء للتدبر، وجدنا أنهم يصرحون بلزوم اقتران التدبر بالعمل والانتفاع، بمعنى أنه لا بد أن يكون العمل من قصد القارئ أصلًا؛ لأنه لازم حصول التدبر، وهذا هو الذي يميز التدبر عن غيره من المصطلحات القرآنية الأخرى المشابهة، وهو لازم معناه اللغوي أيضًا، فإن من لازم كون الشيء دبر الشيء أن يتبعه وإلا انفكَّ عن دبره.

---

(١) القاموس المحيط: (باب الميم: فصل الفاء)، والمعجم الوسيط، مادة: (فهم)، (٢/ ٧٠٤).

(٢) **ينظر ورقة الدكتور**: خالد السبت، مفهوم التدبر: (تحرير وتأصيل) في كتاب مفهوم التدبر السابق.

(٣) **ينظر كتاب**: المعين على تدبر الكتاب المبين، لمجد مكي: (ص٦).

فالجامع بين هذه المصطلحات وبين التدبر؛ أن جميع هذه المعاني قد يدخل بعضها في التدبر؛ إما بمعناه اللُّغوي كالنظر في عواقب الأمور مثلًا، أو يدخل بعضها الآخر باللزوم أو الاقتضاء كمطلق التفكير، أو إمعان النظر والتركيز، ونحو ذلك.

وعلى هذا فقد يأتي التدبر إما بالتفهم أو التأمل أو الاستنباط أو التفكر، وكل هذه الأمور تتنوع بتنوع الأشخاص وقدراتهم الذهنية(١).



(١) **ينظر كتاب**: مفهوم التدبر في ضوء الدراسة التحليلية لآياته في القرآن، للدكتور: محمد زيلعي هندي، وكتاب فتح من الرحيم الرحمن، في بيان كيفية تدبر كلام المنان: (١/ ٧٢)، وكتاب: مفهوم التدبر.. تحرير وتأصيل: (ص٢٠٩).

المَبْحَثُ الْخَامِسُ

حُكْمُ التدبر

نَزَلَ القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وبلغة عربية فصيحة، ولقد يسر الله ﷻ لنا ذكره تلاوة وفهمًا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. **وفي هذا المبحث سنتطرق إلى حكم التدبر بالنسبة لقارئ القرآن؛ بمعنى:** هل هو واجب يأثم بتركه؟ أم أنه غير واجب ولو تركه لا إثم عليه؟

والجوابُ عن هذا السؤال يحتاج تأملًا دقيقًا؛ لأن النصوص الواردة عن أهل العلم جاءت مطلقة مصرِّحة بالوجوب دون تفصيل[١]، حيث وردت في سياقات متنوعة؛ **وفيما يلي بيان لهذه النصوص:**

- **نصَّ ابنُ حزم الظاهريُّ[٢] كما جاء في «رسائله» على:** «أن تدبر القرآن فرض»[٣].

---

(١) لم أجد ـ حسب بحثي ـ أن أحدًا من العلماء المتقدمين بحث هذه المسألة استقلالًا.

(٢) **ابن حزم:** علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، عالم الأندلس ذو الفنون والمعارف، انصرف عن الوزارة إلى التأليف والعلم. وكان شديدًا على مخالفيه متعصبًا لنصرة مذهبه؛ حتى شُبِّه لسانه بسيف الحجاج، طارده الملوك حتى توفي مبعدًا عن بلده، من مصنفاته: المحلى في الفقه، والإحكام في أصول الأحكام في أصول الفقه، وطوق الحمامة في الأدب، توفي سنة (٤٥٦هـ). **ينظر:** سير أعلام النبلاء: (١٨/ ١٨٤ ـ ٢١٢)، والمغرب في حلى المغرب: (ص٣٦٤).

(٣) رسائل الإمام ابن حزم: (٣/ ١٩٨)، قال الزركشي الشافعي: «من أسماء الواجب: المحتوم والمكتوب والفرض». البحر المحيط: (١/ ١٨١)، والذي عليه الجمهور أن الفرض هو الواجب خلافًا للأحناف، ورجح ابن قدامة المقدسي أن الخلاف في ذلك لفظي. **ينظر:** روضة الناظر: (١/ ١٥٥).

▪ **وصرَّح أيضًا القرطبي المالكي بالوجوب بقوله:** «دل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، على وجوب التدبر في القرآن...»[١].

▪ **وتبعه الشوكاني في «فتح القدير»**؛ حيث ذكر أن هذه الآية تدل على وجوب تدبر القرآن[٢].

▪ **وكذلك محمد رشيد رضا[٣] نصَّ على وجوب تدبر القرآن والاهتداء به، حيث قال:** «من الآيات الدالة على وجوب تدبر القرآن والاهتداء به...» ثم ذكر الآيات[٤].

▪ **وذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أن أدلة الكتاب والسُّنَّة، دالَّة على وجوب تدبر الوحي، وتفهمه وتعلمه والعمل بكل ما علم منه... وبيَّن أيضًا:** «أن آيات التدبر تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمرٌ لا بدَّ منه للمسلمين»[٥].

▪ **والشيخ محمد بن صالح العثيمين ذكر الوجوب**، واستدل بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩][٦].

إلى غير ذلك من النصوص الدَّالة على وجوب تدبر كتاب الله ﷻ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (٥/ ٢٩٠).
(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني: (١/ ٧٤١).
(٣) محمد رشيد بن علي رضا، من الكتاب والعلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، كتب في بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر سنة (١٣١٥هـ)، فلازم محمد عبده وتلمذ له، وأصبح مرجع الفتيا، في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. من مصنفاته: مجلة (المنار)، وتفسير القرآن الكريم، ونداء للجنس اللطيف، والخلافة، توفي سنة (١٣٥٤هـ). **ينظر**: الأعلام للزركلي: (٦/ ١٢٦).
(٤) كما جاء ذلك في مجلة المنار، الجزء: (١٥)، (ص٥٦١).
(٥) **ينظر**: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي: (٧/ ٤٥٨ ـ ٥١٧).
(٦) تفسير القرآن الكريم، لابن عثيمين: (١/ ٢٠).

ولا غَرْوَ[١]؛ **إذ إن المقصود بالتدبر**: الاتعاظ والخشوع، والعمل بما في كتاب الله ﷻ من الشرائع والأحكام؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: «**فإن قيل**: فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب؟ **قيل**: نعم»[٢]، **وقال النووي**: «ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع»[٣]؛ «لأنها ثمرة إنزال القرآن، فإذا لم يكن ذلك، فاتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها»[٤]. ويشهد لذلك سياق آية سورة ص في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] وغيرها من الآيات.

ولكن ينبغي التنبه في هذه المسألة بالذات، إلى أن القول بالوجوب يحتاج إلى توضيح؛ لأن تدبر القرآن يحتاج إلى فهم وعلم، ومعلوم أن الفهم يختلف باختلاف الأشخاص وعلمهم وقدراتهم الذهنية، **ومن ثَمَّ يكون القول المفصل في هذه المسألة:**

۞ **إن تدبر القرآن الكريم واجب شرعي على كل قارئ**؛ لكن كلٌّ على حسَب فهمه وقدراته وطاقاته الإدراكية؛ لأنه لا يعذر أحد بترك التدبر مطلقًا؛ خاصة وأن القرآن قد يسره الله للذكر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥، ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]. ولا يمكن الاتعاظ والعمل بما في القرآن دون فهم معانيه، ولا يتأتى هذا الاتعاظ والعمل إلا عن طريق التدبر والفهم، وبذل الجهد في تعلُّم وتفهُّم كتاب الله، كلٌّ حسَب قدراته وطاقاته[٥].

---

(١) **الغَرْو**: العَجَب، يقال: لا غرو؛ **أي**: لا عجب. **ينظر**: الصحاح، للجوهري: (٧/ ٢٩٦).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٧/ ٢٩).

(٣) الأذكار للنووي: (١/ ١٥٠).

(٤) تفسير القرآن الكريم، لابن عثيمين: (١/ ٢٨).

(٥) **ينظر**: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق، لرقية العلواني: (ص١٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ إيمانًا عامًّا مجملًا، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ على التفصيل فرض على الكفاية، فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله ﷺ، وداخل في تدبر القرآن وعقله وفهمه. وعلم الكتاب والحكمة، وحفظ الذكر والدعاء إلى سبيل الربِّ بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك ـ مما أوجبه الله على المؤمنين ـ فهو واجب على الكفاية منهم.

وأمَّا ما يجب على أعيانهم، فهذا يتنوَّع بتنوُّع قدرهم ومعرفتهم وحاجتهم، وما أُمر به أعيانهم؛ فلا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك، ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها، ويجب على المفتي والمحدِّث والمجادل ما لا يجب على من ليس كذلك»[1].

ولقد أحسن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في توضيحه لهذه المسألة الدقيقة بقوله: «الحقُّ الذي لا شك فيه أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسُّنَّة ـ يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما.

أمَّا العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعًا.

وأمَّا ما علمه منهما علمًا صحيحًا ناشئًا عن تعلم صحيح، فله أن يعمل به، ولو آيةً واحدةً أو حديثًا واحدًا.

ومعلوم أن هذا الذمَّ والإنكار على من لم يتدبر كتاب الله عامٌّ لجميع الناس»[2].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٣/ ٣١٢).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي: (٧/ ٤٥٩).

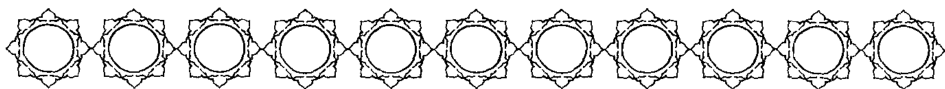
وبناءً على هذا الكلام القيِّم، فإنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم القرآن وتدبره على حسَب قدرته، والعمل بما علمه وتدبَّره؛ شريطة أن يكون هذا العلم ناشئًا عن علم صحيح؛ لأن من المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه فهمًا صحيحًا دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك(١).

وأمَّا ترك التدبر بالكلية فإنه لا يجوز ويأثم صاحبه، إضافة إلى أن ترك التدبر كليًّا يُعدُّ من هجر القرآن المحرَّم؛ كما قرَّره ابن القيِّم وابن كثير وغيرهما(٢).

وترك تدبر القرآن أيضًا يدخل في باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني؛ **أي**: إلا تلاوة فقط، فقد ذمهم الله ﷻ بذلك بقوله في سورة البقرة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨](٣).



(١) **ينظر**: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٠/ ٣٣٢).
(٢) **ينظر**: الفوائد، لابن القيِّم: (ص٨٢)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: (٦/ ١٠٨).
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ٣٠٥).

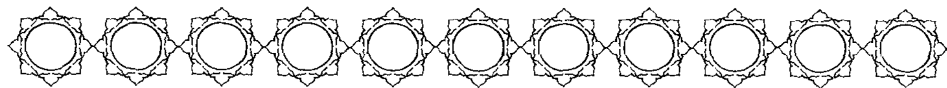


ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

ضوابط التدبر وشروط المتدبِّر

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: ضوابط التدبر.
- المبحث الثاني: المتدبر: شروطه، وآدابه.



المَبۡحَثُ ٱلۡأَوَّلُ

ضوابط التدبر

تَمۡهِيدٌ

إنَّ معرفة ضوابط الفنون، له أهمية كبرى تكمن في نظم منثور المسائل، وتساعد على معرفة النوازل، وتسهِّل الاطلاع والحفظ(١).

والحديث عن ضوابط أيِّ فنٍّ بعينه تتجاذبه عدة مسائل مُلِحَّةٍ؛ خاصة إذا كان هذا الفنُّ لم يتطرق إلى ضوابطه أحد من العلماء السابقين، بمؤلف أو فصل مستقلٍّ، مثل مصطلح التدبر ونحوه، صحيح أنه ربما كان ذلك لعدم الحاجة الماسة إليه في وقتهم، أو لقلة استعمال المفردة عندهم؛ مما جعلهم يتكلمون عن ذلك تحت عدة أسماء مثل: أصول أو آداب أو قواعد... إلخ.

بينما نجد أن انتشار هذه المفردة (ضوابط) جاء في العصور المتأخرة، ولا نكارة في استعمال مثل هذه المفردات إذا كان مدلولها صحيحًا، وحصول هذا الأمر وارد، فتجد أن في عصر التابعين شاعت ألفاظ ومفردات قلما تجدها متداولة في عصر الصحابة، وكذلك في عصر تابعي التابعين، أو عصور السلف مقارنة بما جاء بعدهم، وهذا ـ والله أعلم ـ من سعة اللغة العربية وخصائصها(٢).

---

(١) **ينظر**: المنثور في القواعد، للزركشي: (١/ ٦٥ ـ ٦٦).

(٢) **من المفيد مراجعة رسالة**: ضوابط استعمال المصطلحات العقدية والفكرية عند أهل =

ولو تأملنا في عصرنا لوجدنا أن كلمة (الضوابط) شائعة جدًّا؛ حتى إنك تجد مئات المؤلفات والكتب والرسائل الجامعية تحوي عناوينها هذه المفردة.

وأحسب أن سبب ذلك عدة أمور، من أبرزها: شيوع الخلط والاضطراب عند كثير من المتأخرين في عدة قضايا ومسائل سواء في العقائد أم المعاملات؛ مما استوجب كثرةَ استعمال الباحثين هذه المفردة في بحوثهم وكتاباتهم؛ وذلك من أجل ضبط هذه المسائل وتحريرها.

لكن هذا التقرير لا يجعلنا نقول: إن كلمة ضوابط غير فصيحة، بل إننا نجد أن هذه المفردة ظاهرة عند أهل اللغة المتقدمين، **فمثلًا جاء في كتاب العين للخليل بن أحمد ما نصُّه:** «**الضَّبْطُ**: لزوم شيءٍ لا يفارقه في كلِّ شيءٍ»[(١)].

ويقول ابن فارس: «الضَّادُ والباءُ والطَّاءُ أصلٌ صحِيحٌ. ضَبَطَ الشيءَ ضَبطًا»[(٢)].

وقد يطلق أيضًا على الأشخاص وعما يفعلونه، **كقول بعضهم:** «هو ضابط للأمور، وفلان لا يضبط عمله: لا يقوم بما فوِّض إليه، ولا يضبط قراءته: لا يحسنها»[(٣)].

فهذه المفردة حسبما ظهر تدل على أن الضبط: يدور حول الملازمة والإتقان، وقد يصعب تطبيق ذلك على مسألة التدبر؛ لسعة موضوعه، وكثرة لوازمه، وتداخل أسمائه.

= السُّنَّة والجماعة، للدكتور: سعود العتيبي، والناشر لها: مركز التأصيل للدراسات والبحوث.

(١) كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة: (ضبط)، (٧/ ٢٣).
وانظر: تاج العروس من جواهر القاموس، للزَّبيدي، مادة: (ضبط)، (١٩/ ٤٤٠).

(٢) مقاييس اللغة، لابن فارس: (٣/ ٣٨٦).

(٣) أساس البلاغة، للزمخشري: (١/ ٥٧٣).

فبعض الباحثين يجعل بعض شروط التدبر أو آدابه أو آثاره داخلةً تحت اسم (الضوابط)، وبعضهم يجعلها داخلة تحت (قواعد التدبر)، وآخرون يجعلونها داخلة تحتهما جميعًا؛ فلا فرق عندهم بين ضوابط التدبر وقواعده؛ بناء على الخلاف المشهور عند علماء الأصول واللغة[١].

وهذا عائد كما سبق لعدم التطرق له نصًّا من قِبَل العلماء الأوائل؛ مما جعل كثيرًا من المتأخرين يجتهدون في تحرير ذلك حسَب مفهومهم للتدبر، وحسَب اجتهادهم وتتبعهم.

وعند التأمل يظهر أن من يذكر من ضوابط التدبر: الاستعاذة، أو البسملة، أو معرفة مقاصد السور، أو التلاوة في الليل... إلخ، قد لا يسعفهُ دخول معناها في حد الضابط أو القاعدة بالمعنى اللُّغوي الدقيق.

والأَوْلَى أن يقال: إنها من أسباب التدبر أو من آداب التدبر؛ ولذلك ذكرها من صنَّف في الآداب كالنووي في آخرين[٢].

إضافة إلى أن كل آيات التدبر الواردة في القرآن جاءت مخاطبة

---

(١) حيث يرى بعض العلماء عدم التفريق بين الضوابط والقواعد، وأطلقوا عليها كلها لفظ القاعدة، وممن نصر هذا القول صاحب «المصباح المنير» الفيومي، والفقيه الحنفي الرَّهاوي كما في حاشيته في علم الأصول، ومؤلفو «المعجم الوسيط»، وغيرهم.
وذهب آخرون إلى التفريق بينهما، فبينوا أن القاعدة أشمل من الضابط حيث إنها تتسع لتشمل فروعًا من أبواب متفرقة، بينما الضابط يجمعها من باب واحد، ولهذا فرّق المصنفون في القواعد الفقهية بين القاعدة والضابط بهذه الأمور وغيرها. **يقول ابن نُجيم في «الأشباه والنظائر» (ص١٦٦)**: «والفرق بين الضابط والقاعدة: أن القاعدة تجمع فروعًا من أبواب شتى، والضابط يجمعها من باب واحد، هذا هو الأصل». لكن هذا الخلاف في المعنى الاصطلاحي بين أهل الأصول والفقه لا يعنينا كثيرًا هنا، وإنما الذي يعنينا تخريج «ضوابط التدبر» على المعنى اللغوي المتفق عليه عند الجميع، والله أعلم.

(٢) **ينظر**: التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: (ص٨٢).

للكفار أو المنافقين[١] مع حالهم في الإعراض، فكيف يؤمرون بها لزامًا، وتكون ضابطًا عريضًا لا ينبغي تركه أو الإخلال به؟!

أمَّا هذه الضوابط التي سأذكرها فقد اجتهدتُّ في استخراجها وتتبعها من النصوص ومن كلام أهل العلم؛ مراعيًا ما استطعت المعنى اللُّغوي للضابط الذي يدور حول الملازمة والإتقان، محاولًا جعلها تستوعب خاصية هذا المصطلح من الناحية العامة؛ بجعلها «المعالم الرئيسة» التي تلازم التدبر ليكون تامًّا متقنًا، وأرى أن من الواجب على طالب التدبر أن يراعي هذه الضوابط، ويلتزم بها؛ فعليها مدار التدبر السليم الذي يوصل بإذن الله إلى الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

وبعد هذه المقدمة التمهيدية نشرع في المقصود؛ حيث انتظمت لديَّ هذه الضوابط على النحو الآتي:

(١) إلا في قراءة لآية سورة ﴿صٓ﴾ وستأتي بإذن الله تعالى.

الضابط الأول: أن التدبر واقعٌ في جميع معاني القرآن فلا يُخاض في كيفية الصفات الإلهية وسائر الغيبيات:

هذا الضابط يتعلق بأسئلة كثيرة تدور حول حدود التدبر ومجاله الذي ينبغي للمتدبر أن يُعمل نظره فيه؛ وقضية الإيمان بالغيب قضية أساس في عقيدة المسلم، فهي أكبر حقيقة يمتثلها، وأهل السُّنَّة والجماعة الذين يؤمنون بكل ما جاء عن الله، وعن رسول الله ﷺ، هم الذين يفهمونه الفهم السليم.

ولهذا كان الإيمان بالغيب عندهم: يشمل إيمان القلب، وإيمان اللسان، وإيمان الجوارح، وهذا مفرق الطريق بينهم وبين المنحرفين عن الطريق السوي، والمنهج المستقيم[(١)].

ومن ثَمَّ كانت هذه القضية هي الحقيقة العظمى التي بيَّنها الله تبارك وتعالى، فوصف بها عباده في أول سورة من القرآن الكريم بعد الفاتحة بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

فهذا أول وصف، وما بعد ذلك فهو تبع له؛ فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والإيمان بالآخرة، والإيمان بكل ما أخبر الله تعالى به في كتابه، أو أخبر به رسوله ﷺ مما لا يُعلم إلا من طريق الوحي؛ كل ذلك إنما هو تفصيل لما أجمله في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ **فأول علامة من علامات المؤمنين، وأول صفة من صفاتهم**: أنهم يؤمنون بالغيب؛ الذي يشمل كل ما جاء في كتاب الله، وصحَّ به الخبر عن رسول الله ﷺ؛ فالإيمان بالله، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر،

(١) **ينظر في ذلك، ما يلي**: عقيدة السلف وأصحاب الحديث، للصابوني: (ص٨٥)، وأعلام السُّنَّة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، للحكمي: (ص٥٠ ـ ٥١).

والإيمان بالقدر، والإيمان بالجنة والنار، وتفصيل ذلك كله ـ من الإيمان بالغيب؛ كما فسَّر ذلك غير واحد من السلف منهم: ابن مسعود وابن عباس، وأبو العالية[(١)]، وقتادة[(٢)]، رضي الله عنهم أجمعين[(٣)].

وطريقة أهل السُّنَّة في التعامل مع الغيبيات قائمة على: اعتقاد وإثبات المعنى الظاهر والقول به، وعدم الخوض في الكيفية، مع نفي التمثيل.

إذا تقرر ذلك؛ فإنه يجب علينا تدبر جميع ما جاء في القرآن من الأمور الغيبية وغيرها؛ ويكون ذلك بتعقُّل معانيها، واستحضار آثار ما وعد الله به أو أوعد أو أخبر به عن نفسه، واستلزام ذلك العمل ونحو ذلك. **لكن على المتدبر**: الوقوف في التدبر عند المعقول والمنقول له من هذه الأمور الغيبية، وعدم الخوض في كيفياتها التي لم يُكشف عنها، أو نفي لمعانيها ومدلولاتها المعلومة في لسان العرب اللائقة بموضوعها، ومن هنا كان التَّدبُّرُ لا يدخلُ في كيفية هذه الغيبيَّاتِ التي استأثرَ اللهُ بعلمها، فهذه الكيفيات ليست مما أخبر الله به في القرآن لتُتدبَّر، فالتعمق في كيفيات صفات الباري جلَّ وعلا، أو تفصيلات اليوم الآخر ونحو ذلك من أمور الغيب التي لم يتصل لنا بها علم ـ: من التكلف المذموم في الأمور الغيبية؛ وقد أجمع السلف على أن لها كيفية، لكنها مجهولة لنا، فتدبرها يكون بالإيمان بها وتفويض علم كيفيتها إلى الله ﷻ مع

---

(١) **أبو العالية**: رفيع بن مهران الرياحي، أبو العالية البصري، الإمام، المقرئ، الحافظ، المُفَسِّر، الفقيه، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه، وثَّقه الحافظان أبو زرعة وأبو حاتم، توفي سنة (٩٣هـ). **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (٤/ ٢٠٧)، طبقات المُفَسِّرين، للداوودي: (١/ ١٧٨).

(٢) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين، أبو الخطاب السدوسي، البصري، الضرير، الأكمه. وكان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ. **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (٥/ ٢٦٩).

(٣) **ينظر**: جامع البيان، للطبري: (١/ ٢٤٠)، ومعالم التنزيل، للبغوي: (١/ ١٥)، وتفسير ابن كثير: (١/ ٦٨).

تعقل المعنى والتأثر ـ عند سماعها ـ بمقتضياتها؛ لأنها غيبيات معلومة المعنى مجهولة الكيفية، ومتى تكلف المرء معرفةَ كيفياتها إما بالتأويل أو النفي لمعانيها الذي لم يسنده دليل، وقع الانحراف والضلال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقًا على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]: «لم يستثن شيئًا منه نهى عن تدبره. والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمَّه الله؛ بل أمر بذلك ومدح عليه...»[(١)].

فالمتشابه إذا فُسر بكيفيات الغيبيات فتدبُّره المطلوب: معرفة معناه وما يقتضيه والتأثر بذلك، دون خوض في نفي كيف أو إثباته.

ويمكن أن تكون آية سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣]؛ أبانت عن هذا المعنى المقصود، ولذلك استشهد بها شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته القيمة الموسومة بـ: «الإكليل في المتشابه والتأويل»[(٢)] وتطرق إلى مسائل كثيرة مرتبطة بهذا الضابط؛ فقد بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله أخبر بهذه الآية أنه فصَّل الكتاب وبيَّنه وميَّزه بحيث لا يشتبه، وأن المراد بمجيء تأويله ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة، وأشراطها؛ كالدابة، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ومجيء ربِّك والملك صفًّا صفًّا، وما في الآخرة من الصُّحف، والموازين، والجنة والنار، وأنواع النعيم

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ٢٧٥).

(٢) وهي مطبوعة ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ٢٧٠).

والعذاب، وغير ذلك، فإذا رأوها قالوا: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلا الله... فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله»[1].

«فالله تبارك وتعالى جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصَّل بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ فجعل التأويل الجائي للكتاب المفصَّل... وقد بيَّنا أن ذلك التأويل لا يعلمه ـ وقتًا وقدرًا ونوعًا وحقيقةً ـ إلا الله، وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا...»[2].

ثم بيَّن ابن تيمية نكتة هذا الأمر بقوله: «ونكتة ذلك أن الخبر لمعناه صورة علمية وجودها في نفس العالم كذهن الإنسان مثلًا، ولذلك المعنى حقيقة ثابتة في الخارج عن العلم، واللفظ إنما يدلُّ ابتداءً على المعنى الذهني، ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة الخارجة، فالتأويل هو الحقيقة الخارجة، وأما معرفة تفسيره ومعناه فهو معرفة الصورة العلمية.

وهذا هو الذي بيَّناه فيما تقدم أن الله إنما أنزل القرآن ليُعلم ويُفهم ويُفقه ويُتدبر، ويُتفكر فيه محكمه ومتشابهه وإن لم يعلم تأويله»[3].

وأما السبب في التحذير من إعمال التدبر ـ أعني: في كيفية الغيبيات ـ: فهو آثار هذا الأمر ونتائجه على المرء؛ فهو يؤدي إلى تأويلات وتحريفات ما أنزل الله بها من سلطان؛ ولذلك لما فتح أهل

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ٢٨٠).
(٢) المرجع نفسه: (١٣/ ٢٨٠).
(٣) المرجع نفسه: (١٣/ ٢٨٣).

البدع هذا الباب وقعوا في مزالق وأخطار عقدية كثيرة، كما فعل بعض الباطنية والقرامطة والمعتزلة والجهمية؛ حيث خالفوا هذا الضابط، وفتحوا مجال التدبر في كيفية هذه الأمور الغيبية، وزعموا أنهم يعلمون تأويلها؛ فحرفوها عن مواضعها؛ فالباطنية والقرامطة أوَّلوا الأخبار والأوامر، والفلاسفة أوَّلوا عامة الأخبار عن الله واليوم الآخر، والمعتزلة والجهمية أوَّلوا بعض ما جاء في اليوم الآخر، وآيات القدر، وآيات الصفات؛ وجميع هؤلاء إنما فعلوا ذلك بحجة التدبر؛ فتوهَّموا لمعاني الأخبار كيفيات باطلة نفوها، وأثبتوا ما لاءم مذاهبهم فحرفوا المعنى، فكان ما كان من المخالفات، والله المستعان.

ولهذا فإن الإمام ابن القيِّم حين تكلَّم في كتابه «الفوائد» على أنواع أنفع الفكر وأجلها؛ لم يفته التنبيه إلى أخطار هذا الأمر ومغبته، فقال بعدها: «وبإزاء هذه الأفكار: الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق: كالفكر فيما لم يكلَّف الفكر فيه ولا أُعطي الإحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع؛ كالفكر في كيفية ذات الرب وصفاته مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه... [ثم ذكر عدة أمثلة إلى أن قال]: فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها، ويكفي في مضرتها شغلها عن الفكر فيما هو أولى به، وأعود عليه بالنفع عاجلًا وآجلًا»(١).

ونصَّ أيضًا الإمام الطحاوي(٢) في عقيدته الشهيرة على أن التعمق

---

(١) الفوائد، لابن القيِّم: (ص١٩٨).

(٢) **الطحاوي**: أحمد بن سلامة الأزدي، أبو جعفر، نسبته إلى طحا قرية بصعيد مصر، كان إمامًا فقيهًا حنفيًّا، وكان ابن أخت المزني صاحب الشافعي، وتفقه عليه أولًا، قال له المزني يومًا: والله لا أفلحت. فغضب وانتقل من عنده وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وكان عالمًا بجميع مذاهب الفقهاء، من مصنفاته: أحكام القرآن، ومعاني الآثار، وشرح مشكل الآثار، وهو آخر تصانيفه، والعقيدة المشهورة بالعقيدة الطحاوية، توفي سنة (٣٢١هـ). **ينظر**: الجواهر المضية: (١/ ١٠٢)، والبداية والنهاية: (١١/ ١٧٤).

والنظر في مثل هذه الأمور الغيبية يورث ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان[(١)].

والخلاصة في هذا الضابط: أنَّ التدبر واقع في جميع آيات القرآن محكمه ومتشابهه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]؛ وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات كما يقول ابن تيمية[(٢)]، الآيات المتشابهة ينبغي تدبرها بالإيمان بها والتأثر بمعانيها وما تقتضيه، دون الاجتهاد العقلي في الدخول في بيان كيفياتها، وهي مما لا يحصل بيانه من جهة العقل، ومتى وقع طلبها من جهته حصل الانحراف والزيغ في شرع الله، والله المستعان.



(١) **ينظر**: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧)، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي: (١/ ٣٢٠).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ٢٧٥).

۞ الضابط الثاني: التعويل على كتب التفسير السالمة من التأويلات المذمومة والشبهات:

مما يعين على حُسْن التدبر، وعلى استخراج درره وجواهره، والاهتداء بأنواره وبصائره؛ علم التفسير، الذي هو مفتاح باب فهمه، ومصباح أسباب علمه، والكفيل بفتح مقفله، والقبيل بشرح مشكله، والمهيمن على تفصيل مجمله، فإن تدبر كتاب الله ﷿ واتباعه والعمل بما فيه، لا يكون إلا بعد فهمه ومعرفة معانيه(١). والمطلع على كثير من كتب التفسير يجد أنها مشحونة بالغثِّ والسمين، والباطل الواضح، والحق المبين(٢).

والأولى لطالب التدبر السليم أن يعتمد في التفسير على الكتب السالمة من التأويلات والشبهات، وأن يتجنب تفاسير أهل البدع والتأويل، أو التفاسير المختلطة؛ خاصة إذا كان ذلك في بداية الطلب، أو كان المطَّلع قليل المعرفة والعلم.

فمن هنا جاء هذا الضابط، وهو: اعتماد الكتب المعروفة بالمنهج السليم الموافق لاعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة؛ خاصة في آيات الصفات، والوعد والوعيد، وسائر الأمور الغيبية.

فإن المرء إذا لم يكن له ضابط في هذا الأمر وانفتح على قراءة جميع التفاسير بلا قيد ولا شرط، ولم تتوافر فيه الأهلية العلمية لتمييز الأمور من بعضها، فإنه سيقع في المخالفات والمحذور ولا بد؛ فاطلاع

---

(١) **ينظر**: قاعدة في فضائل القرآن، لابن تيمية، ت: د. سليمان القرعاوي: (ص٦٩ - ٧٠).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ٣٢٩).

القلب على الشبهات يضره؛ لأنه إذا أُشرب بمثل هذه الشبهات نُكِتَ فيه نكتة سوداء، حتى يتقبلها ويدافع عنها، ويعتقد أنها الحقيقة، خاصة إذا كان يتحمس لها بعض أصحابها ويتفنن في إيراد الأدلة والبراهين عليها[١].

وذلك لأن الأخطاء التي وقع فيها من ألَّف في التفسير متنوعة كما بيَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير، **حيث إن منها ما يرجع إلى جهة المنقول**: كالإكثار في نقل الإسرائيليات التي لا دليل على صحتها، أو الاستشهاد بالمراسيل الضعيفة، أو الوضع للآثار والأحاديث كما يفعل بعض المبتدعة في تفاسيرهم.

أو من جهة الاستدلال: كتقرير معانٍ باطلة، ثم حمل ألفاظ القرآن عليها، أو تجريد ألفاظ القرآن عن ملابساتها، وجعلها ألفاظًا عربية مجردة، ثم تأويلها بناء على هذا التصور[٢].

فهذه الكتب وأشباهها تجعل المطلع عليها يتأثر بما فيها إذا لم يكن عنده مانع أو ضابط لكيفية التعامل معها، **ومن جميل ما نُقل عن أبي طالب الطبري ما قاله في هذا الشأن**: «من شرط المفسِّر صحة

---

(١) مثل ما صنع الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في كتابه المسمى: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"؛ حيث نصر مذهبه الاعتزالي بقوة في هذا الكتاب، ولقد تأثر بعضهم بآرائه ومعتقداته، مثل كلامه في حقيقة السحر والمس، والتحسين والتقبيح العقليين، **ولقد نبَّه على هذا الأمر الإمام ابن تيمية في مقدمته**: (ص٨٧) **بقوله**: «ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحًا، ويدس البدع في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون؛ **كصاحب "الكشاف" ونحوه**، حتى إنه يروج على خلق كثير، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك». وقال الذهبي في ميزان الاعتدال: (٤/٧٨) عن الزمخشري: «صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال ـ أجارنا الله ـ **فكن حذرًا من كشافه**».

(٢) **ينظر**: شرح مقدمة في أصول التفسير، للطيار: (ص١٨١ ـ ١٩٧).

الاعتقاد أولًا، ولزوم سُنَّة الدين، فإن من كان مغموصًا عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا، فكيف على الدين، ثم لا يؤتمن من الدين على الإخبار عن عالم فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى؛ ولأنه لا يؤمن أن يكون متهمًا بالإلحاد أن يبغي الفتنة، ويغري الناس بلَيِّه وخداعه، كدأب الباطنية وغلاة الرافضة.

وإن كان متهمًا بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه، على ما يوافق بدعته، كدأب القدرية؛ فإن أحدهم يصنف الكتاب في التفسير ومقصوده منه الإيضاع خلال المساكين؛ ليصدهم عن اتباع السلف ولزوم طريق الهدى»[١].

۞ وهنا نستعرض فتوى لابن تيمية توضح المنهجية العلمية التي يسير عليها هؤلاء العلماء؛ فعندما سئل رَحِمَهُ اللَّهُ **عن: «أيُّ التفاسير أقرب إلى الكتاب والسُّنَّة؟ الزمخشري؟ أم القرطبي؟ أم البغوي؟ أو غير هؤلاء؟**

أجاب: إن التفاسير التي في أيدي الناس أصحها تفسير محمد بن جرير الطبري؛ فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين مقاتل بن بكير والكلبي.

والتفاسير المأثورة بالأسانيد كثيرة: كتفسير عبد الرزاق، وعبد بن حميد، ووكيع، وابن أبي قتيبة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه.

وأما التفاسير الثلاثة المسؤول عنها، فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة: البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك.

وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي، وهو أخبر منه بالعربية، لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليدًا لغيره، وتفسيره وتفسير

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: (٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).

الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائد جليلة، وفيها غثٌّ كثير من المنقولات الباطلة وغيرها.

وأما الزمخشري فتفسيره محشوٌّ بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة؛ من إنكار الصفات والرؤية، والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة.

وهذه الأصول حشا بها كتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها ولا لمقاصده فيها، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين.

وتفسير القرطبي خير منه بكثير وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسُّنَّة وأبعد عن البدع، وإن كان كل من كتب هذه الكتب لا بد أن تشتمل على ما يُنقد، لكن يجب العدل بينها وإعطاء كل ذي حق حقه.

وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأصحُّ نقلًا وبحثًا، وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير لكن تفسير ابن جرير أصحُّ من هذه كلها.

ثم تفاسير أخر كثيرة جدًّا كتفسير ابن الجوزي والماوردي...»[1].

❁ **فالواجب على المتدبر** أن يعتمد في فهمه للآيات والمعاني على التفاسير السالمة من هذه التأويلات والانحرافات، وهي تفاسير السلف الموثوقة، ومن سار على نهجهم من التفسير بالمأثور؛ فقلما تجد فيها الخطأ سواء من جهة الدليل، أو جهة الاستدلال، **وقد مثل لها ابن تيمية بعدة كتب بعضها وصل إلينا وبعضها لم يصل، فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «مثل تفسير

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية: (٥/ ٨٤ ـ ٨٥).

عبد الرزاق[(١)(٢)]، ووَكِيع، وعبد بن حُمَيد، وعبد الرحمٰن بن إبراهيم دحيم. ومثل تفسير الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وبَقِيّ بن مَخْلَد، وأبي بكر بن المنذر، وسفيان بن عيينة، وسُنَيْد، وابن جرير[(٣)]، وابن أبي حاتم[(٤)]، وأبي سعيد الأشج، وأبي عبد الله بن ماجه، وابن مردويه»[(٥)].

---

(١) عبد الرزاق بن همام بن نافع، أبو بكر الصنعاني اليمني، محدث حافظ فقيه، قال أحمد بن صالح المصري: قلت لأحمد بن حنبل: رأيت أحدًا أحسن حديثًا من عبد الرزاق؟ قال: لا. وقال أبو زرعة الدمشقي: عبد الرزاق أحد من ثبت حديثه. وكان يحفظ نحوًا من سبعة عشر ألف حديث، من مصنفاته: الجامع الكبير والسنن في الفقه، وتفسير القرآن، والمصنَّف، توفي سنة (٢١١هـ). **ينظر**: تهذيب التهذيب: (٦/ ٣١٠)، وشذرات الذهب: (٢/ ٢٧).

(٢) تفسير عبد الرزاق المتوفى سنة (٢١١هـ)، طبع في مكتبة الرشد بالرياض، بتحقيق الدكتور: مصطفى مسلم.

(٣) **ابن جرير**: محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ)، شيخ المفسرين، وكتابه من أجل التفاسير وأعظمها قدرًا، وقد طبع الكتاب عدة طبعات ومن أفضلها طبعة دار المعارف بمصر بتحقيق الشيخين: أحمد شاكر ومحمود شاكر، في (١٦) مجلدًا، ولكنها لم تكتمل. والطبعة الأخرى طبعة دار هجر بمصر بتحقيق الدكتور: عبد الله التركي في (٢٤) مجلدًا.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم المتوفى سنة (٣٢٧هـ)، وتفسيره من أهم كتب التفسير بالمأثور، وذلك لجلالة مؤلفه وإمامته، وقد وصل إلينا غير مكتمل، وطبع عدة طبعات منها طبعة مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ثم طبعته مكتبة نزار مصطفى الباز في مكة المكرمة.

(٥) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية: (ص٨٣)، ت: محمود نصار.
قال الدكتور مساعد الطيار في شرحه لهذه المقدمة: (ص١٨٢)، «**وهذه الكتب من حيث وصولها إلينا ثلاثة أقسام**:
الأول: ما وصل إلينا؛ وهي: تفسير عبد الرزاق، وتفسير الطبري، وجزء من تفسير ابن المنذر وأغلب تفسير ابن أبي حاتم.
الثاني: ما وصل إلينا أجزاء من مروياته عبر كتب أخرى؛ وهي تفسير عبد بن حميد، وسفيان بن عيينة، وسنيد، وابن مردويه، وأبو سعيد الأشج.
الثالث: ما فُقد، وليس له أثر؛ وهي: تفسير وكيع، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبقي بن مخلد، وابن ماجه».

ومثلهما أيضًا في التفاسير التي جاءت بعد ابن تيمية وسارت على هذا النهج: تفسير ابن كثير الدمشقي المسمى بـ: «تفسير القرآن العظيم»، وتفسير الشيخ السعدي المسمى بـ: «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان»، وتفسير الشيخ محمد الأمين الشنقيطي المسمى بـ: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، وغيرها كثير، وليس المقصود حصر هذه التفاسير؛ لأن ذكر ذلك يطول، وهو مبسوط في فنونه(١).



(١) من المفيد أن يطلع طالب العلم على الكتب التي أُلفت في مناهج المفسرين؛ لكي يستفيد منها ويعرف كيف يتعامل معها، ويتنبه لأخطائها، **وقد كتب في ذلك جماعة منهم**:
١ ـ د. صلاح الخالدي في كتابه: تعريف الدارسين بمنهاج المفسرين، طبعة دار القلم في دمشق.
٢ ـ د. محمد الحمود النجدي في كتابه: القول المختصر المبين في منهاج المفسرين، طبعة دار الإمام الذهبي في الكويت.
٣ ـ د. محمد حسين الذهبي في كتابه: التفسير والمفسرون، طبعة مكتبة وهبة في القاهرة.
٤ ـ د. فهد الرومي **في كتابين**: **الأول**: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، **والآخر**: أصول التفسير ومناهجه.
٥ ـ د. إبراهيم خليفة في كتابه: دراسات في منهاج المفسرين.
٦ ـ الشيخ صالح آل الشيخ في مذكرة بعنوان: منهاج المفسرين؛ متوفرة في مكتب دار الصواب الجامعي.
والأنسب أن يراعي المتدبر قبل الاطلاع في هذه التفاسير واعتمادها؛ طاقاته وقدراته، وترتيب أولويات الطلب. ويحسن أن يطلع على ما يعينه على مراعاة ذلك، مثل مذكرة: كيف يبني طالب العلم مكتبته؟ لفضيلة الشيخ عبد الكريم الخضير، فهي مفيدة جدًا في هذا الباب، وأيضًا محاضرة للشيخ نفسه بعنوان: المنهجية في قراءة الكتب. ومذكرة: مكتبة طالب العلم، لأحمد القرني، ومذكرة طالب العلم والكتب، للشيخ صالح آل الشيخ. وكل ما سبق موجود في موسوعة المكتبة الشاملة.

الضابط الثالث: تقييد جميع أمور التدبر بما ورد في الشرع وترك الابتداع:

عظَّمت الشريعة النكير على من أحدث البدع وحذرت منها؛ لأن البدع لو خرج المرء منها كفافًا لا عليه ولا له لكان الأمر خفيفًا، بل لا بد أن توجب له فسادًا في قلبه ودينه ينشأ من نقص منفعة الشريعة في حقه؛ إذ القلب لا يتسع للعِوَض والمعوَّض عنه[١].

واتباع ما ورد في الشرع وعدم الابتداع هو أصل أصيل من أصول أهل السُّنَّة والجماعة، وهذا عام في جميع العبادات؛ **وهو في التدبر هنا آكد لعدة أمور؛ منها:**

١ ـ أن ذلك جاء بنصيحة صريحة لأهل القرآن من عالم خبير، **وهو حذيفة بن اليمان**[٢] رضي الله عنه **فقد ثبت عنه أنه قال لهم**: «يا معشر القرَّاء، استقيموا فقد سُبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتُم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»[٣]. **وجاء أيضًا عنه برواية أخرى أنه كان يقول**: «كل عبادة لم يتعبَّد بها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تتعبَّدوا بها؛ فإن الأول لم يدَعْ للآخر مقالًا؛ فاتقوا الله يا معشر القرَّاء، خذوا طريق من كان قبلكم»[٤].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية: (ص٢١٧ ـ ٢١٨).

(٢) حذيفة بن اليمان، أبو عبد الله العبسي، من كبار الصحابة، وصاحب سر رسول الله ﷺ، أسلم هو وأبوه، شهد الخندق وما بعدها، كما شهد فتوح العراق، وله بها آثار شهيرة، خيَّره النبي ﷺ بين الهجرة والنصرة فاختار النصرة، استعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى توفي بعد بيعة عليٍّ بأربعين يومًا، سنة (٣٦هـ). **ينظر**: تهذيب التهذيب: (٢/٢١٩)، والإصابة: (١/٣١٧).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ، رقم: (٦٨٥٣).

(٤) الحوادث والبدع، للطرطوشي: (ص٢٩٨)، والاعتصام للشاطبي: (٣/٣٨).

ونصيحته صريحة في سلوك طريق الاستقامة، وهي كناية عن الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ فعلًا وتركًا في تلقِّي القرآن والعمل به، فقوله: «سُبقتم»؛ **أي**: سبقكم السلف سبقًا متمكنًا، فلا تبتدعوا طرقًا غير طريقهم، فإنكم ستضلون[١].

٢ ـ أن الذي جاءنا وورد إلينا في كيفية التدبر سواء الآيات التي بيَّنت ذلك أو الأحاديث القولية أو الفعلية، وكذلك أحوال السلف الصالح ـ في طريقة تدبرهم ـ كافٍ وشافٍ، فلا مجال لأحد جاء بعدهم أن يتكلف بتدبر جديد لم يأت به هؤلاء الأخيار، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

٣ ـ شؤم البدع عمومًا وخطورتها على الفرد والمجتمع؛ ولذلك حذَّر منها المصطفى ﷺ في أحاديث كثيرة، منها ما رواه العِرْباض بن سارية رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: (**مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**)[٢].

قال ابن رجب تعليقًا على هذا الحديث: «هذا تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وأكد ذلك بقوله: (**كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**). والمراد بالبدعة ما أُحدث ممَّا لا أصل له في الشريعة يدل عليه»[٣].

---

(١) **ينظر**: فتح الباري، لابن حجر: (١٣/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم: (١٧١٨٤)، وأبو داود في سننه، حديث رقم: (٤٦٠٧)، وصححه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ١١٦٤)، وابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم: (٣/١٦)، والشوكاني في السيل الجرار: (٢/ ١٠٤).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢٦٦).

٤ ـ أن فتح هذا الباب هو الذي جعل كثيرًا من الطوائف والفرق والأشخاص يتكلمون في دين الله بما ليس منه، فالمعتزلة جاؤوا على شبهتهم بأدلة قرآنية ظهرت لهم من خلال تدبرهم لها كما يزعمون، وكذلك الجهمية والفلاسفة والمعطلة والأشاعرة وغيرها من الفرق؛ حتى لا تكاد توجد فرقة قديمة ولا حديثة إلا مارست هذه المنهجية الاستدلالية في نصوص الوحيين، وللأسف فإن المطلع على المكتبة الإسلامية المعاصرة يجد أن كثيرًا من الآراء المنحرفة قد استدل لها أصحابها بأدلة من القرآن الكريم بحجة التدبر والفهم، وكل هؤلاء أخطؤوا الطريق بسبب عدم مراعاة هذا الضابط المهم؛ فلو تقيدوا به لما وقعوا في هذه المزالق العظيمة من تعطيل وتحريف وتأويل.

وهاهنا كلام متين لشيخ الإسلام ابن تيمية يقول فيه: «فإن الصحابة والتابعين والأئمة، إذا كان لهم في تفسير الآية قول، وجاء قوم فسَّروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان، صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا.

وفي الجملة من عَدَل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب.

ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا، ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها: إما عقلية وإما سمعية، كما هو مبسوط في موضعه»[(١)].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ضمن مجموع الفتاوى: (١٣/ ٣٦١).

إنّ هذا الضابط يحدُّ التدبر من جهة الاستدلال، فإذا تقيد به المتدبر وراعاه فسيسلم من الوقوع في المخاطرات، ونحن الآن نشاهد في الواقع وسائل جديدة متنوعة أُحدثت بحجة تدبر كتاب الله، ولكنها عند التحقيق محدثة مخالفة للشرع[(١)].

فكل وسيلة لا بد أن تعرض على الكتاب والسُّنَّة وأصولهما المعتبرة؛ وكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه؛ فهو ضلالة، والدين منه بريء[(٢)].



(١) سيأتي الحديث عنها ـ بإذن الله ـ في مبحث: ابتداع طرائق جديدة للتدبر، من هذه الرسالة.

(٢) **ينظر**: جامع العلوم والحكم: (١/ ٢٦٦).

الضابط الرابع: الاقتصار على الأحاديث والآثار الصحيحة والوقائع الثابتة:

ذكرنا في الضابط الأول حدود التدبر ومجاله الذي ينبغي أن يُعمل المتدبِّر نظره فيه(١)، وهذا المجال على مراتب؛ منها:

• ما يعرفه المسلم العربي مباشرة، فصاحب اللسان العربي إذا قرأه وسمعه عرف معناه مباشرة؛ لأنه بيِّنٌ بنفسه، وهذه أوسع مراتب التدبر، وهي التي جاءت بها أكثر الآيات التي دعت للتفكر أو التأمل في الجبال والشجر والدوابِّ والفُلك والسماء والأرض وغيرها، ولنأخذ مثالًا على ذلك وهو قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠]؛ فهذه الآية إذا قرأها العربي أو سمعها أدرك معناها ومغزاها، دون رجوع لمصادر أو معارف أخرى رافدة.

• والمرتبة الأخرى هي التي تحتاج إلى رجوع إلى مصادر موضحة ومعينة، فلا يمكن للمسلم أن يتدبرها حق التدبر أو يستوضح من معانيها ومآلاتها إلا بالرجوع إلى المصادر الخاصة، التي عُنيت بذلك بكشف المنغلق من الآيات التي يقرؤها أو يسمعها وتوضيحها.

هذا التقسيم الشمولي لآيات القرآن الكريم أشار إليه العالم المحقق شيخ الإسلام ابن تيمية، وذلك حين سأله تلميذه ابن عبد الهادي(٢)

---

(١) **ينظر**: الضابط الأول من هذه الرسالة: (ص٧١).

(٢) محمد بن أحمد، المقدسي الحنبلي الصالحي، فقيه، محدث، حافظ، نحوي، عني بالحديث وفنونه، ومعرفة الرجال والعلل، وبرع في ذلك، وتفقه في المذهب وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين ابن تيمية مدة، وله تعاليق كبيرة في الفقه وأصوله والحديث، من مصنفاته: تنقيح التحقيق، والمحرر في الأحكام، توفي سنة (٧٤٤هـ). **ينظر**: تذكرة الحفاظ: (٤/١٥٠٨)، وشذرات الذهب: (٦/١٤١).

أن يكتب تفسيرًا على جميع القرآن، **فأجابه ابن تيمية قائلًا**: «إن القرآن فيه ما هو بيِّنٌ بنفسه، وفيه ما قد بيَّنه المفسرون في غير كتاب»[١].

فحين نتأمل هاتين المرتبتين: مرتبة الآيات البينة بنفسها، ومرتبة الآيات التي تحتاج إلى مصادر، ونقارنهما بهذا الضابط: يتبين لنا أن المرتبة الأولى غير مقصودة في هذا الضابط، وإنما المقصود المرتبة الثانية التي تعتمد على مصادر ومعارف؛ لأن المرتبة الأولى بيِّنة وواضحة بنفسها، لا تحتاج إلى أحاديث أو آثار لمعرفة مرادها إلا على سبيل الاستشهاد أو الاستنباط، أما المرتبة الثانية فهي التي تحتاج إلى مصادر موثوقة من جهة النقل، **وهي التي تكلم عنها شيخ الإسلام في رسالته الشهيرة: «مقدمة في أصول التفسير» والتي جاء في مقدمتها ما يومئ إلى ذلك حيث يقول**: «فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمَّن قواعد كلية؛ تُعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه، والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل؛ فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغَثِّ والسمين، والباطل الواضح والحق المبين.

والعلم إما نقل مصدَّق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا فإما مزيف مردود، وإما موقوف لا يُعلم أنه بهرج ولا منقود. وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن»[٢].

فهذه القواعد التي أشار إليها ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي المقصودة في هذا الضابط في الآيات التي تحتاج إلى مصادر؛ حيث إن المتدبر لا بد له أن يقتصر على النقولات الصحيحة في فهمه وتدبره[٣]. ولا يمكن أن يصنع

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، لابن عبد الهادي: (ص٤٣).
(٢) مقدمة في أصول التفسير: (ص٣٣).
(٣) **المقصود**: إثبات عموم معنى الآية وصحته، لا دقائق معنى كل آية بالمنقول، فإن ذلك =

ذلك إلا بمعرفة مظانِّ هذه النقولات ومصادرها؛ وهي كتب التفسير السليمة أو في كتب السُّنَّة المعروفة، وهو إن لم يراعِ هذا الضابط وانفتح على جميع كتب التفسير سيقع في الخطأ والزلل، وذلك بسبب ـ كما يقول ابن تيمية ـ أن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغَثِّ والسمين، والباطل الواضح والحق المبين، فيجب التمييز في منقولاتها[1].

فكما أن الضابط الأول يحدُّ التدبر من جهة الاستدلال، فهذا الضابط يحدُّه من جهة صحة الاستدلال؛ فقد يفهم المتدبر فهمًا مغلوطًا أو يعمل عملًا خاطئًا، مستندًا إلى أثر منكر أو حادثة موضوعة؛ فيبني عليها حكمًا أو يجري عليها عملًا، وهنا يقع الانحراف.

ولقد أحسن الشيخ عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني رَحِمَهُ اللهُ حين وضع في كتابه: «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله» **قاعدة خاصة سماها:** (حول تتبع التفسير المأثور لمعنى النص) **قال فيها:** «على متدبر كلام الله أن ينظر في التفسير المأثور لمعنى النص القرآني، فهو حريٌّ أن يكون

= قليل جدًّا، والأئمة في التفسير يتوسعون في قبول الآثار التي فيها ضعف يسير فيعتبرون بها وبها يستشهدون ما لم يكن فيها ما يُستنكر، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مقدمة في أصول التفسير»:** (ص٥٨ ـ ٥٦): «**فالمقصود:** أن المنقولات التي يُحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره، ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم؛ ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير، والملاحم، والمغازي. ويروى: ليس لها أصل؛ **أي:** إسناد؛ لأن الغالب عليها المراسيل، مثل ما يذكره عروة بن الزبير، والشَّعبي، والزهري، وموسى بن عقبة، وابن إسحاق، ومن بعدهم».

وقال البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٥): «قال يحيى بن سعيد القطان: تساهلوا في التفسير عن قوم لا يوثِّقونهم في الحديث، ثم ذكر ليث بن أبي سليم، وجويبر بن سعيد، والضحاك، محمد بن السائب؛ **يعني:** الكلبي، وقال: هؤلاء يُحمد حديثهم ويُكتب التفسير عنهم. قال (البيهقي): وإنما تساهلوا في أخذ التفسير عنهم لأن ما فسروا به ألفاظه تشهد لهم به لغاتُ العرب، وإنما عملهم في ذلك الجمع والتقريب فقط».

(١) **ينظر:** مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ٣٢٩).

في كثير من الأحيان فهمًا صحيحًا، وإن لم يكن كاملًا شاملًا لكل ما يهدف إليه النص القرآني. ويشمل التفسير المأثور ما فهمه الصحابة والتابعون.

أما البيان النبوي لمعنى النص فإذا صح فهو الذي يجب المصير إليه»[(١)].

حتى إن الزركشي حين ذكر أن للناظر في القرآن أربعة مآخذ قال: «الأول: النقل عن رسول الله ﷺ، وهذا هو الطراز الأول، لكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنه كثير، وإنَّ سواد الأوراق سواد في القلب»[(٢)].

وقال السيوطي: «قال الزركشي بعد حكاية ذلك: الحق أن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل: كسبب النزول، والنسخ، وتعيين المبهم، وتبيين المجمل... قال: واعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد، والأول إما أن يرد عن النبي ﷺ أو الصحابة أو رؤوس التابعين... فالأول يُبحث فيه عن صحَّة السند»[(٣)].

وهاهنا سنذكر بعضًا من الأمثلة لهذا الضابط أشار إليها شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره:

• **في الوقائع وأسباب النزول: قال ابن تيمية:** «وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة، مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم»[(٤)].

---

(١) قواعد التدبر الأمثل، للميداني: (ص١٣٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي: (٢/ ١٥٦).

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: (٢/ ٤٨٣)، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي: (٢/ ١٧٢).

(٤) مقدمة في أصول التفسير: (ص٧٦).

• **في الأحاديث: قال ابن تيمية:** «مثل الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة، وحديث علي الطويل في تصدُّقه بخاتمه في الصلاة، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم، ومثل ما روي في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أنه علي، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]: أذنك يا علي»[١].

• **في الترجيح:** قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]؛ جاء في تأويل ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ **قولان عند أهل التأويل**[٢]:

الأول: أن معناه: ما من مزيد؛ **أي:** ما من مزيد؛ لشدّة امتلائها، وتضايق بعضها إلى بعض.

الآخر: أن معناه: زدني، إنما هو هل من مزيد، بمعنى الاستزادة. «وذلك أنه يُقال لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فيضع الربُّ تبارك وتعالى قَدَمَه عليها؛ فتقول: قط قط».

فأيُّ هذين القولين يعتبره المتدبِّر؟

الجواب: أن ينظر فيما صح في ذلك من المرويات مرفوعًا إلى النبي ﷺ، فيجد أحاديث صحيحة تجعله يعتمد القول الثاني، **منها ما يلي**[٣]:

▪ حديث أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **(يُلْقَى فِي النَّارِ ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ؛ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ)**[٤].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: (ص٧٧).
(٢) **ينظر:** تفسير ابن جرير الطبري: (٢٢/ ٣٥٩).
(٣) قواعد التدبر الأمثل، للميداني: (ص١٣٣).
(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، حديث رقم: (٤٨٤٨).

▪ وعن أبي هريرة رضي الله عنه رَفَعَهُ: **(يُقَالُ ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وتَعَالَى قَدَمَهُ عَلَيْهَا؛ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ)**[1].

▪ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ عز وجل مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا. وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ عز وجل يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا)**[2].

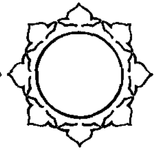
قال ابن جرير الطبري: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو بمعنى الاستزادة؛ هل من شيء أزداده؟ وإنما قلنا ذلك أولى القولين بالصواب لصحَّة الخبر عن رسول الله ﷺ»[3].



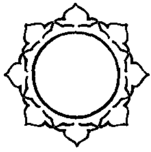
(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، حديث رقم: (٤٨٤٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ حديث رقم: (٤٨٥٠).

(٣) تفسير ابن جرير الطبري: (٢٢/ ٣٦١). وهذه المنهجية تكثر في الترجيح عند ابن جرير رحمه الله.



المَبحَثُ ٱلثَّانِي



المتدبِّر.. شروطه وآدابه

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: من له حق التدبُّر.
- المطلب الثاني: الشروط الواجب توافرها في المتدبِّر.
- المطلب الثالث: آداب المتدبِّر.

 المَطْلَبُ ٱلْأَوَّلُ 

من له حق التدبر؟

بعدما تبيَّن لنا سابقًا أن التدبر واجب شرعي؛ كلٌّ على حسب فهمه وقدراته، جاء الحديث عن هذه المسألة المهمة، وهي: من له حق التدبر؟ هل التدبر حق للعلماء أو المجتهدين فقط؟ أم أنه حق لجميع الناس ممَّن بلغه هذا القرآن؟

والحق: أن كل من له قدرة على التعلم والتفهم له حق التدبر على حسب هذه القدرة، **وأحسن من تطرق لهذه المسألة وأبانها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره؛ حيث يقول:** «اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به، لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم؛ التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سُنَّة، ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة ـ قول لا مستند له من دليل شرعي أصلًا.

بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين، على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسُّنَّة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما.

أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعًا.

وأما ما علمه منهما علمًا صحيحًا ناشئًا عن تعلم صحيح، فله أن يعمل به؛ ولو آية واحدة أو حديثًا واحدًا. ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من لم يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس. ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد

منهم مستكملًا لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلًا. فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي، لما وبَّخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى!»[(١)].

وللأسف فإن بعض المسلمين في عصرنا الحاضر انتشرت عندهم شبهة أن التدبر خاص بأهل العلم، أو أنه خاص بطائفة معينة، أو أنه يحتاج إلى شروط يصعب تحققها؛ حتى أَحْجَمَ كثير منهم عن التدبر واستصعبوه؛ بسبب هذا المفهوم الخاطئ، وأصبحوا يقرؤون القرآن ولا يفهمون معانيه وأحكامه وكأنه «طلاسِم»[(٢)] ورموز غير مفهومة.

كل ذلك بسبب هذه الحجة الواهية التي هي من مداخل الشيطان وتلبيساته على ابن آدم، **يقول ابن هبيرة**[(٣)]: «**ومن مكايد الشيطان**: تنفيره عباد الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعًا»[(٤)].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي: (٧/ ٤٥٨ ـ ٥١٧).

(٢) **الطلاسِم**: تعبير عن كل ألفاظ غامضة ومبهمة، واختلف في أصل الكلمة؛ فقيل: يوناني وقيل: عربي. **ينظر**: المعجم الوسيط، مادة: (طلسم)، (٢/ ٥٦٢)، وتاج العروس من جواهر القاموس، للزَّبيدي، مادة: (طلسم)، (٣٣/ ٢٥).

(٣) يحيى بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيباني، أبو المظفر. من بعض قرى الدجيل بالعراق، فقيه حنبلي، أديب، من تلاميذه ابن الجوزي، جمع ابن الجوزي بعض فوائده وما سمع منه في كتاب المقتبس من الفوائد العونية. كان ابن هبيرة عالمًا فاضلًا عابدًا عاملًا من كتبه: الإفصاح عن معاني الصحاح؛ ولي الوزارة للخليفتين المقتفي والمستنجد، توفي سنة (٥٦٠هـ). **ينظر**: الذيل على طبقات الحنابلة: (١/ ٢٥١)، ووفيات الأعيان: (٢/ ٢٤٦).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب: (٣/ ٢٧٣).

وهذا المفهوم الذي فهموه قد يعدُّ درجة عليا من درجات التدبر، وهي: درجة استخراج العبر، واستنباط الأحكام، وهي التي اختص بها العلماء عن باقي الناس، وهي ملكة مكتسبة لها شروطها وضوابطها التي قرَّرها أهل العلم في مؤلفاتهم(١).

فحمل جميع المسلمين على هذا المعنى عسير، فلا يقال للعامي: لا يجوز لك أن تقرأ القرآن إلا بهذا المفهوم! يشهد لصحة نفي هذا الفهم وقوعُ الخلاف عند بعض الفقهاء: أيُّهما أفضل: كثرة القراءة مع السرعة؟ أو قلة القراءة مع التدبر والترتيل؟ على قولين عند أهل العلم كما حكاه غير واحد(٢).

ومن دقة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ما جاء في كلامه السابق: «وأما ما علمه منهما علمًا صحيحًا ناشئًا عن تعلم صحيح، فله أن يعمل به، ولو آية واحدة أو حديثًا واحدًا». فهو يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى تجزُّؤ التدبر، فأي مسلم تعلم آية علمًا صحيحًا فله أن يعمل بها، ويطبق ما جاء فيها من الأوامر والنواهي حسب ما تعلمه، ولا يشترط لكونه مؤمنًا بكل ما جاء في القرآن أن يتدبر كل ما جاء في القرآن؛ إضافة إلى أن فهم ما جاء في كتاب الله من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ومعرفة

---

(١) سيأتي الحديث ـ بمشيئة الله تعالى ـ عن هذه المسألة في الفصل الثالث من الباب الثاني.
وبالمناسبة فإنِّي كنت أتأمل عنوان كتاب الشيخ عبد الرحمٰن بن حبنكة الميداني «قواعد التدبر الأمثل»، فظهر لي أن هذا العنوان جاء من فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث جعله التدبر الأمثل، ولم يقل: قواعد التدبر! أو نحوها، بل قيدها بالأمثل، وهذا يدل على أنه أراد درجة معينة من درجات التدبر، والله أعلم.

(٢) **ينظر:** زاد المعاد، لابن القيِّم: (١/ ٣٢٦)، وسيأتي ـ بإذن الله ـ بحث هذه المسألة مفصلًا مع الترجيح في مبحث قادم، ومن المفيد الإشارة إلى أن وقوع الخلاف في المسائل الخبرية والعملية؛ لا يكون دليلًا مستقلًّا تثبت به الأحكام، ولكن ذلك مما يؤخذ بالحسبان والنظر.

أسماء الله وصفاته، وأحوال يوم القيامة... إلخ؛ لا يُشترط له فهم المصطلحات العلمية الدقيقة من نَحْوية وبلاغية وأصولية وفقهية؛ فمعظم القرآن بيِّن واضح يدرك معناه الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والعالم والأمي[1]، «فإذا كان القرآن معجزًا أفحم الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله؛ فذلك لا يخرجه عن كونه عربيًّا جاريًا على أساليب كلام العرب، ميسرًا للفهم فيه عن الله ما أمر به ونهى، إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول معانيه؛ لكان خطابهم به من تكليف ما لا يُطاق، وذلك مرفوع عن الأمة.

وهذا من جملة الوجوه الإعجازية فيه؛ إذ من العجب إيراد كلام من جنس كلام البشر في اللسان والمعاني والأساليب، مفهوم معقول، ثم لا يقدر البشر على الإتيان بسورة مثله، ولو اجتمعوا وكان بعضهم لبعض ظهيرًا؛ فهم أقدر ما كانوا على معارضة الأمثال، أعجز ما كانوا عن معارضته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢]. وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]. وقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]. وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وعلى أي وجه فرض إعجازه؛ فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه وتعقُّل معانيه، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]؛ فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم، وكذلك ما كان مثله، وهو ظاهر»[2].

وفي كلام بديع للصنعاني يقول فيه: «إن الله ـ سبحانه ـ كمَّل عقول العباد، ورزقهم فهم كلامه. ثم إن فهم كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عند قرعها الأسماع لا يحتاج في معناها إلى علم

---

(١) مفاتيح تدبر القرآن، اللاحم: (ص٢١).

(٢) **ينظر**: الموافقات، للشاطبي: (٤/ ١٩٥).

النحو، ولا إلى علم الأصول، بل في الأفهام والطباع والعقول ما يجعلها تسارع إلى معرفة المراد؛ فإن من قرع سمعه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ يفهم معناه من دون أن يعرف أن ﴿مَا﴾ كلمة شرط، و﴿تُقَدِّمُوا﴾ مجزوم بها لأنه شرطها، و﴿تَجِدُوهُ﴾ مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها كثير. ثم إنك ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه وهو كلام معرب في الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه ولا يعرفون إعرابًا ولا غيره، بل ربما كان موقع ما يسمعونه في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ الذكاء والانتقاد. ثم إن هؤلاء العامة يحضرون الخطب في الجمع والأعياد، ويذوقون الوعظ ويفهمونه ويفتِّت منهم الأكباد، وتدمع منهم العيون فيكثر منهم البكاء والنحيب. ثم إنك تراهم يقرؤون كتبًا مؤلفة من الفروع الفقهية ويفهمون ما فيها، ويعرفون معناها، ويعتمدون عليها، ويرجعون في الفتوى والخصومات إليها.

فيا ليت شعري! ما الذي خصَّ الكتاب والسُّنَّة بالمنع عن معرفة معانيها، وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها، حتى جعلت معانيها كالمقصورات في الخيام قد ضربت دونها السجوف[1]، ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف، وأن استنباط معانيها قد صار حِجْرًا محجورا، وحرمًا محرمًا محصورا؟!»[2].

وبناءً على ما سبق؛ يتضح أن فهم القرآن وتدبره ليس مقصورًا على طائفة دون طائفة، بل كل واحد لا بد أن يأخذ حظه من القرآن، بحسب

---

(١) **السجوف**: السَّجْفُ والسِّجْفُ ـ بفتح السين وكسرها ـ: السِّتْر، والجمع: سُجُوفٌ وأسْجَافٌ. **ينظر**: العباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني، مادة: (سجف).

(٢) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد: (ص١٥٩ ـ ١٦٠).

ما ييسره الله له، وبحسب ما معه من الفهم والعلم والإدراك؛ فالله تبارك وتعالى دعا عباده كلَّهم إلى تدبر القرآن وفهمه، لم يخصَّ طائفة بذلك دون طائفة، ولو كان فهم القرآن وتدبره مقتصرًا على فئة من الناس لكان نفع القرآن محصورًا عليهم، ولكان الخطاب في الآيات موجهًا إليهم، وهذا معلوم البطلان.



المَطلَبُ الثَّانِي

الشروط الواجب توافرها في المتدبِّر

هناك شروطٌ عامة يتوقف عليها التدبر الإجمالي الصحيح، ينبغي لمن أراد أن يتدبر كتاب الله ﷻ أن يحقق هذه الشروط؛ حيث إنها شرعت من أجل تدبر سليم لكتاب الله، وهي شروط مستقاة من النصوص الشرعية، ومن كلام أهل العلم[١].

من خلال التأمل في كتاب الله يمكننا أن نقول: إن آية سورة (ق)، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]: قد أشارت إلى هذه الشروط[٢] إجمالًا، وعلى ذلك سينبني الحديث عن هذه الشروط في ضوء هذه الآية الكريمة، **ويمكن أن نجعل هذه الشروط تحت هذه العناوين الرئيسة، وهي**:

أولًا: أن يكون المتدبِّر حيَّ القلب.

ثانيًا: أن يفعل المتدبِّر الأسباب المعينة على التدبر.

ثالثًا: أن يجتنب المتدبِّر الأمور التي تصرف عن التدبر.

---

(١) ليس شرطًا أنها جاءت في النصوص الشرعية وكلام أهل العلم تحت اسم (شروط التدبر)، بل أكثرها جاءت تحت عدة أسماء أخرى، اجتهدتُّ في جمعها تحت هذا الاسم: «الشروط الواجب توافرها في المتدبر»، علمًا أن بعضها سيأتي الحديث عنه مفصلًا في الباب الثاني؛ لأنه من دوافع التدبر القلبية والعملية.

(٢) **ينظر بحث الدكتور**: خالد السبت «شروط تدبر القرآن» نشر في مجلة معهد الإمام الشاطبي، العدد (الحادي عشر).

وهذه الشروط يندرج تحتها أسباب ولوازم كثيرة، وينبغي أن يعلم أنها شروط نسبية تتفاوت من شخص لآخر، وهي تزيد وتنقص؛ وذلك بسبب تفاوت العقول والأفهام، وفعل الأسباب[1]؛ فبحسب تحقيق هذه الشروط وأسبابها، تكون نتيجة التدبر، من زيادة أو نقصان، **وبيان هذه الشروط كالآتي**:

فالأول: كون المتدبر حيَّ القلب؛ فهذا ظاهر من الآية، وقد نصَّ غير واحد من المفسرين كقتادة ومقاتل بن سليمان وغيرهما[2]، **على أن المراد بالقلب هنا**: القلب الحي؛ فالرجلُ الحيُّ القلب مستعد؛ فإذا تُليت عليه الآيات، أصغى بسمعه، وألقى السمع، وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب ملقي السمع، فهذا هو الذي ينتفع بالآيات المتلوَّة والمشهودة، فإن كان القلب غائبًا أو مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات؛ فإنه لا يحصل به الانتفاع، ولذلك نجد أن القرآن الكريم أشار إلى أن أقفال القلوب مانع رئيس من التدبر، فقال موبخًا المنافقين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

قال ابن القيِّم: «قوله ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿...إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]؛ **أي**: حيَّ القلب»[3].

ومن لوازم هذا الشرط المهم ـ وهو حياة القلب وشهوده ـ أعمال القلب الأخرى[4]: كالإيمان بالله، وإخلاص القصد، واليقين، والإنابة

---

(١) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في الفتاوى الكبرى: (٩/ ٣٠٩)**: «هذا مع أن الناس متباينون في نفس أن يعقلوا الأشياء من بين كامل وناقص، وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير وجليل ودقيق، وغير ذلك...».

(٢) **ينظر**: تفسير مقاتل بن سليمان: (٤/ ١١٥)، وتفسير ابن جرير الطبري: (٢١/ ٤٦٢).

(٣) الفوائد، لابن القيِّم: (ص٣).

(٤) بعض الباحثين ذكر شروطًا كثيرة للتدبر، ولو تأملناها لوجدنا أن أكثرها أعمال قلبية، =

إلى الله، واستشعار عظمة القرآن... إلخ. وبالمقابل أيضًا يلزم من ذلك تطهيره من أقفال التدبر: من الشواغل، ومن الغِلِّ، والحسد، والرياء، والنفاق... إلخ.

فإذا حقق المتدبر هذا الشرط وما يلزم منه من اللوازم، بحيث يصبح قلبه حيًّا شاهدًا طاهرًا؛ فإنه ـ بإذن الله ـ سينتفع بآيات الله المتلوَّة والمشهودة، ومما يروى عن عثمان ﷺ قوله: «لو طَهُرَت قُلُوبُنا ما شَبِعَت من كلام الله ﷻ»[1].

أمَّا الشرط الثاني: أن يفعل المتدبر الأسباب المعينة على التدبر؛ فدلالته أُخذت من قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾؛ فإلقاء السمع من أهم الشروط؛ حيث إن إلقاء السمع ثمرته العمل بما سمعه المرء، وإلا فما فائدة السمع إذن؟!

ولقد أرشد الله ﷻ إلى الاستماع والإنصات لآيات القرآن؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، **يقول ابن جرير الطبري**: «أصغوا له سمعكم؛ لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه؛ لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه»[2]. **ولهذا قال الإمام وهب بن منبِّه**[3] رحمه الله: «**من أدب الاستماع**: سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل»[4].

= وأن بينها تداخلًا؛ فرأيت أن أدرجها تحت اسم واحد.

(١) **ينظر**: مدارج السالكين، للإمام ابن القيِّم: (١/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣)، وكتاب زوائد الزهد لعبد الله ابن الإمام أحمد: (ص١٨٨).

(٢) تفسير الطبري: (١٠/ ٦٥٨).

(٣) وهب بن منبه بن كامل الصنعاني الذماري، كان على قضاء صنعاء، تابعي ثقة، روى عن ابن عباس وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك، توفي وهو ابن ثمانين سنة عام (١١٤هـ)، **ينظر**: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: (٩/ ٢٤)، وفيات الأعيان: (٦/ ٣٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (١١/ ١٧٦).

قال القرطبي معلقًا: «وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكفَّ العبد جوارحه ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم»[١].

فإلقاء السمع إذن يستوجب العمل، ولكن هذا السمع لن يكون مؤثرًا؛ حتى يعقل المتدبر ما يسمع، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: «فالذي يسمع ما جاءت به الرسل ـ سمعًا يعقل به ما قالوه ـ ينجو. وإلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه... وكذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع»[٢]. **وقال تلميذه ابن القيِّم**: «فجمع سبحانه بين السمع والعقل، وأقام بهما حجَّته على عباده، فلا ينفكُّ أحدهما عن صاحبه أصلًا، فالكتاب المنزل والعقل المُدْرِك حجَّة الله على خلقه»[٣].

قال سفيان بن عيينة[٤] رَحِمَهُ اللهُ: «أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام، بنِيَّة صادقة على ما يحبُّ الله ـ أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نورًا»[٥].

ولن يعقل هذا المتدبر إلا بعمل الأسباب المعينة على عقل هذا المسموع، الذي هو القرآن، **وأسباب ذلك كثيرة، من أهمها**: معرفة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١١/ ١٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٨٠ ـ ١٨١). (٣) الصواعق المرسلة: (٢/ ٤٥٨).

(٤) سفيان بن عيينة بن أبي عمران، أبو محمد الهلالي الكوفي، سكن مكة، أحد الثقات الأعلام، أجمعت الأمة على الاحتجاج به، وكان قوي الحفظ، قال الشافعي: ما رأيت أحدًا من الناس فيه جزالة العلم ما في ابن عيينة، وما رأيت أحدًا فيه من الفتيا ما فيه ولا أكفَّ عن الفتيا منه، توفي سنة (١٩٨هـ). **ينظر**: تهذيب التهذيب: (٤/ ١١٧)، وميزان الاعتدال: (٢/ ١٧٠)، وشذرات الذهب: (١/ ٣٥٤).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (١١/ ١٧٦)، **وينظر**: شعب الإيمان (١٦٥٨).

اللسان العربي، فإنه لا يأتي تدبر القرآن وفهم معانيه إلا بمعرفة اللغة[١]، ومراعاة الأحوال المناسبة للقراءة والسماع، والاستعاذة من الشيطان، والبسملة، والترتيل؛ لأن ذلك أدعى للعقل والفهم، والترديد للآيات، فهو يزيد الفهم لكلام الله، كلٌّ على حسَب قدرته وتفهمه، بشرط العلم الصحيح والفهم الصحيح كما بيَّناه سابقًا[٢].

فالاستماع السليم هو الذي يورث التلاوة الصحيحة، إذ إن القرآن أُخذ بالتلقي؛ وعندئذٍ يشترك اللسان والعقل والقلب، **فحظ اللسان**: تصحيح الحروف بالترتيل، **وحظ العقل**: تفسير المعاني، **وحظ القلب**: الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار؛ فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ[٣].

ومن جميل ما يستشهد به في هذه المسألة ما قاله ابن بطال[٤] معلقًا على حديث قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، وقوله ﷺ له: (**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**)[٥].

قال: «يحتمل أن يكون الرسول ﷺ أحبَّ أن يسمعه من غيره، ليكون

---

(١) قاله العز بن عبد السلام؛ كما في طبقات الشافعية الكبرى: (٨/ ٢٥٢).

(٢) **ينظر**: (ص٨٢)، علمًا أن جميع هذه الأسباب سيأتي الحديث عنها في المباحث القادمة، بمشيئة الله تعالى.

(٣) **ينظر**: إحياء علوم الدين، للغزالي: (١/ ٢٨٧).

(٤) علي بن خلف بن عبد الملك، ويعرف باللجام، عالم بالحديث، من أهل قرطبة، فقيه مالكي، وبنو بطال في الأندلس يمانيون، له شرح لصحيح الإمام البخاري، ينقل عنه ابن حجر كثيرًا في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وله أيضًا: الاعتصام في الحديث، توفي سنة (٤٤٩هـ). **ينظر**: شذرات الذهب: (٣/ ٢٨٣)، وشجرة النور الزكية: (ص١١٥).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: فضائل القرآن، باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره، حديث رقم: (٥٠٤٩)، وفي باب: البكاء عند قراءة القرآن، حديث رقم: (٥٠٥٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه أيضًا في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، حديث رقم: (٨٠٠).

عرض القرآن سُنَّة يُحتذى بها، كما يحتمل أن يكون لكي يتدبره ويتفهمه»[١].

أمَّا الشرط الثالث: أن يجتنب المتدبر الأمور التي تصرف عن التدبر.

الأسباب والموانع في التكييف الشرعي تدخل تحت: فعل الواجبات وترك المحرمات، ومن المعلوم أنهما أصل الدين؛ **أعني**: فعل الواجبات وترك المحرمات؛ كما نص عليه ابن تيمية في آخرين[٢].

وآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] هي دالة على ذلك لزومًا؛ فالقلب الحي، والاستماع السليم، والقلب الشاهد؛ لا توجد إلا فيمن راعى ذلك، فكل شي لا يتم الانتفاع به إلا بتحقيق شروطه وانتفاء موانعه، ومن ذلك تدبر القرآن. وإلا فكيف يكون القلب حيًّا، وهو منكبٌّ على الشهوات أو الشبهات؟!

والموانع التي يجب على المتدبر اجتنابها صنوف وأضرب، وهي غالبًا ما تندرج تحت سببين رئيسين:

- **إما وقوع المرء بالشبهات:** كالجلوس مع أهل البدع، واتباع المتشابه، وقصر القرآن على المجتهدين أو على أحوال خاصة... إلخ.

- **أو وقوع المرء في الشهوات:** كالإصرار على المعاصي والذنوب، واستماع الغناء، والانشغال بالدنيا، واتباع الهوى... إلخ[٣].

---

(١) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: (٩/ ٩٤).

(٢) **ينظر**: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٢/١٣٦).

(٣) سيأتي الحديث عن هذه الموانع بشقيها مفصلًا ـ بإذن الله تعالى ـ في الباب الثالث من هذه الرسالة.

ومن جوامع كلام ابن القيِّم ما ذكره في كتابه «الفوائد»، وهو يتكلم عن هذه الشروط بكلام مختصر مفيد، حيث يقول: «والمقصود: أنك متى ما أردتَّ الانتفاع بالقرآن، فاجْمَع قلبك عند تلاوته وسماعه، وأَلْقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلَّم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتض، ومحلٍّ قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه ـ تضَمَّنَتِ الآية بيان ذلك كلِّه بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٣٧] إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثِّر.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ فهذا هو المحلُّ القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿...إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]؛ **أي**: حيَّ القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ [ق: ٣٧]؛ **أي**: وجَّه سمعه وأصغى حاسَّة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ **أي**: شاهد القلب حاضرًا غير غائب.

قال ابن قتيبة(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: استمعَ كتابَ الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقُّل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله.

---

(١) عبد الله بن مسلم، أبو محمد الدِّينَوَري، من أئمة الأدب، عالم مشارك في أنواع من العلوم: كاللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه وغريب الحديث والشعر والفقه والأخبار وأيام الناس، ولي قضاء الدِّينَوَر، من مصنفاته: تأويل مختلف الحديث، ومشكل القرآن، والمشتبه من الحديث والقرآن، توفي سنة (٢٧٦هـ). **ينظر**: تذكرة الحفاظ: (٢/ ١٨٥)، والنجوم الزاهرة: (٣/ ٧٥)، وشذرات الذهب: (٢/ ١٦٩).

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر ـ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر»[1].



(١) الفوائد، لابن القيِّم: (ص٣).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

آداب المتدبِّر

ينبغي لمن أراد أن يتدبر كتاب الله حق التدبر أن يراعيَ الآداب التي تُعينه على ذلك، وللعلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ كلامٌ كثير في المراد بالآداب، والمراد بالآداب هنا: الأمور التي ينبغي للمتدبر أن يتخلق بها(١).

وقد جاءت مرتبة على النحو الآتي:

١ ـ **الإخلاص**: فأول ما ينبغي لمن أراد أن يتدبر كتاب الله ﷻ؛ أن يستعمل تقوى الله في السر والعلانية، قاصدًا بذلك رضا الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]؛ **أي**: ذلك دين الملَّة المستقيمة.

٢ ـ **أن يحرص المتدبر على فهم كلام الله، والامتثال له**: حيث يدرُس القرآن بحضور فهم وعقل، همَّته إيقاع الفهم لما ألزمه الله ﷻ من اتباع ما أمر، والانتهاء عما نهى، ولا يرضى من نفسه أن يؤدي

---

(١) **ينظر**: القاموس الفقهي: (١/ ١٧). ونظرًا لأن الموضوع واسع وتتجاذبه الكثير من المسائل والأحكام ـ وربما سيأتي الحديث عنها في مباحث أخرى في الرسالة ـ **رأيت أن يكون مستند الحديث في هذه المسألة على كتابين مهمين:**
الأول: أخلاق حملة القرآن، لأبي بكر الآجُرِّيِّ المتوفى سنة (٣٦٠هـ).
والآخر: التبيان في آداب حملة القرآن، لأبي زكريا النووي، المتوفى سنة (٦٧٦هـ).
حيث حوى هذان الكتابان أغلب ما يناسب هذه المسألة بعبارة متينة، وأسلوب مميز، وسيكون الحديث عن ذلك من خلال التركيز على ما يمس قضية التدبر من مسائل وأحكام مع شيء من الاختصار والتصرف اليسير الذي يتطلبه السياق؛ إضافة إلى الإفادة مما في غيرهما من المصادر المعاصرة وغير المعاصرة.

ما فرض الله ﷻ عليه بجهل، فيجعل العلم والفقه وسؤال أهل الذكر دليله إلى كل خير.

٣ ـ أن يتخلق المتدبر بالأخلاق الحسنة الواردة في القرآن: فإنه يتصفح القرآن ليؤدِّب به نفسه أولًا؛ بحيث يجعل القرآن دليله إلى كل خلق حسن جميل، وليعمل بما جاء فيه من المحاسن الرفيعة، والخصال الحميدة، والشِّيَم المرضيَّة؛ التي أرشده الله إليها في كتابه؛ مقتديًا بالذي كان خلقه القرآن ﷺ الذي زكاه ربُّه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

٤ ـ الصبر والتدرج: وهذا يوجب على المتدبر إطالة النظر، والتأني حتى يحصل له المأمول، فالمؤمن لا يريد شيئًا أعظم من رضوان الله؛ ورضوان الله لا ينال بشيء أعظم من حبِّ كلام رب العالمين ﷻ، والصبر حتى ينال منه ما يؤدي به إلى رضوانه. ومن هنا فالتدرج في التدبر شيئًا فشيئًا ومعايشة الآيات لا يمكن الحصول عليها بين عشية وضحاها، فالتغيير القرآني لا يؤتي ثماره؛ إلا من خلال الصبر والتؤدة، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. **قال ابن جرير الطبري في تفسيره:** «يقول: لتقرأه على الناس على تؤدة، فترتِّله وتبيِّنه، ولا تعجَل في تلاوته فلا يُفهم عنك...»(١).

٥ ـ مراعاة آداب القراءة: حيث ينبغي للمتدبر أن يراعي آداب القراءة المعينة على التدبر، **ومن أهمها:**

● اعتناؤه بقراءة القرآن في الليل أكثر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]؛ **قال ابن عباس** رضي الله عنهما: «هو أجدر أن يفقه القرآن»(٢).

---

(١) تفسير الطبري: (١٧/ ٥٧٥).

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي: (٨/ ٣١٧).

• يستحب أن يقرأ وهو على طهارة، فإن قرأ مُحْدِثًا جاز بإجماع المسلمين والأحاديث فيه كثيرة معروفة، قال إمام الحرمين[(١)]: ولا يقال ارتكب مكروهًا بل هو تارك للأفضل[(٢)].

• الاستعاذة من الشيطان الرجيم؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]؛ فالاستعاذة تمنع الشيطان من أن يفسد ما في القلب من الهدى والنور والعلم والخير؛ كما قرره ابن القيِّم في كتابه «إغاثة اللهفان»[(٣)].

• يستحب أن ينظف فاه بالسواك وغيره، والاختيار في السواك أن يكون بعود من أراك[(٤)].

• يستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد لكونه جامعًا للنظافة وشرف البقعة[(٥)].

• ترديد الآية؛ فإنه أنفع للتدبر؛ فعن أبي ذر ﵁ قال: قام النبي ﷺ حتى إذا أصبح بآية، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨][(٦)].

---

(١) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ضياء الدين، من أعلم أصحاب الشافعي، تفقه على والده، وأتى على جميع مصنفاته، وتصرف فيها حتى زاد عليه في التحقيق والتدقيق. جاور بمكة أربع سنين وبالمدينة يدرس ويفتي ويجمع طرق المذهب، فلهذا قيل له إمام الحرمين، من مصنفاته: نهاية المطلب في دراية المذهب في فقه الشافعية، والشامل في أصول الدين، والبرهان في أصول الفقه، توفي سنة (٤٧٨هـ). **ينظر**: وفيات الأعيان: (٣/ ٣٤١)، وطبقات الشافعية: (٣/ ٢٤٩).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: (ص٣٧).

(٣) عقد الإمام ابن القيِّم في كتابه إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (١/ ٩٢) فصلًا نافعًا عن معنى الاستعاذة وفوائدها، وسيأتي الحديث عنها في المباحث القادمة.

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: (ص٣٧).

(٥) المرجع نفسه: (ص٣٧).

(٦) أخرجه النسائي في سننه في كتاب الافتتاح، ترديد الآية، حديث رقم: (١٠١٠)، =

• ترتيل القراءة؛ وقد اتفق العلماء رضي الله عنهم على استحباب الترتيل، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وجاء في صحيح الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ؛ [يَجْهَرُ بِهِ])**[(١)]. **قال ابن كثير**: «المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد والطاعة»[(٢)].

• قال العلماء: الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب، وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها[(٣)].



= وابن ماجه في سننه: كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها، باب: ما جاء في القراءة في صلاة الليل، حديث رقم: (١٣٥٠)، والإمام أحمد في مسنده، في مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه حديث رقم: (٢١٣٨٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه: حديث رقم: (٨٣٦٨)، والحديث حسَّن إسناده ابن القطان في بيان الوهم والإيهام: (٥/ ٣٥٣)، والنووي في الخلاصة: (١/ ٥٩٥)، والألباني في صحيح النسائي: (ص١٠٠٩).

(١) صحيح الإمام البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣] حديث رقم: (٧٥٢٧). **وحول معنى التغني في الحديث يقول الخطابي في معالم السنن**: (١/ ٢٩١): «**هذا يتأول على وجوه: أحدها**: تحسين الصوت، **والوجه الثاني**: الاستغناء بالقرآن عن غيره؛ وإليه ذهب سفيان بن عيينة...». وقد أطال ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري: (١٠/ ٢٦١) في نقل الرد على من فسره بالاستغناء، وأن ذلك مخالفة للغة، وقَدَحَ في الآثار المؤيدة لمذهب سفيان بن عيينة.
قال الشافعي: «من لم يتغنَّ بالقرآن ليس منا. فقال رجل: يستغني به؟ فقال: ليس هذا معناه. **معناه**: يقرؤونه حدرًا وتحزينًا». **ينظر**: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، للبوصيري: (٦/ ٣٤٣).

(٢) فضائل القرآن: (ص٧٩).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: (ص٣٧).

البَابُ الثَّانِي

دوافع تدبر القرآن الكريم

وفيه أربعة فصول:

- الفصل الأول: استشعار أهمية التدبر.
- الفصل الثاني: تحصيل الأسباب الباعثة على التدبر.
- الفصل الثالث: الوقوف على مقاصد التدبر وغاياته.
- الفصل الرابع: معرفة آثار التدبر.



ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

استشعار أهمية التدبر

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: الآيات والآثار الواردة في الحثِّ على التدبر.
- المبحث الثاني: بيان أهمية التدبر عند السلف.
- المبحث الثالث: حاجة الأمة إلى تدبر القرآن الكريم.



المَبۡحَثُ ٱلۡأَوَّلُ

الآيات والآثار الواردة في الحثِّ على التدبر(١)

الآيات الواردة في القرآن الكريم جاءَت في أربعةِ مواضعَ مختلفة:

- حيث أنزل الله على رسوله ﷺ في مكة في سورة ﴿صٓ﴾ قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]؛ **مبيِّنًا أن الغاية من إنزال هذا الكتاب أن يتدبر الناس آياته**، وأن هذا التذكر المقصود لا يحظى به إلا أهل العقول الحصيفة، والأذهان النظيفة.

- ثم أنزل الله على رسوله ﷺ في مكة أيضًا في سورة (المؤمنون) قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]؛ **مؤنبًا الكفار الذين أعرضوا عن القرآن وهجروه**؛ فلم يدبروا القول الذي أنزله الله؛ لكي يهتدوا بهديه ويعملوا بما فيه.

- ثم بعد ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ في المدينة في سورة (النساء) قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]؛ **حيث وردت هذه الآية في سياق الحديث عن المنافقين الذين كانوا يحضرون مجالس الرسول ﷺ فكانوا يتظاهرون بالإسلام**، ولكنَّ قلوبهم غير مؤمنة، وأفعالهم معرضة، مع أن الله قد أنزل ما يدلهم على الحق، ويهديهم السبيل القويم، وهو القرآن. فقال لهم معرضًا عن خطابهم المباشر مقابل إعراضهم وتكبرهم عن القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾؟! في استفهام إنكاري يلومهم على ترك التدبر،

---

(١) **ينظر كتاب**: قواعد التدبر الأمثل، للميداني: (ص٩ ـ ١١).

مقرونًا بلفت انتباههم بإعجاز هذا القرآن باتِّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض، ولكنَّ هذا التلويم ليس من الدرجة القصوى، فلعلهم يثوبون ويعودون إلى رشدهم(١).

• ثم نزلت الآية الرابعة والأخيرة عن المنافقين أيضًا كما في سورة محمد، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] بأسلوب أشد؛ **حيث ارتقى البيان إلى توبيخهم على ترك التدبر مع بيان سبب ذلك:** بأن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن؛ فهي تحول بينها وبين فهم القرآن وبينها وبين النور(٢).

وعلى هذا تكون آيتان نزلتا في سياقِ المنافقين، وهما قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وآيتان نزلتا في سياقِ الكفَّار، وهما قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وعلى كل حال فجميع هذه الآيات تخاطب المؤمنين من باب أولى؛ لأنهم هم أهل الانتفاع بتدبر القرآن، فهي تحذر جميع المسلمين أن يسلكوا هذا الطريق، ففيها تحذيرٌ لنا وتوبيخٌ لهم(٣).

---

(١) **ينظر**: تفسير الطبري: (٨/ ٥٦٧).

(٢) **ينظر**: أضواء البيان، للشنقيطي: (٧/ ٢٥٩).

(٣) **ينظر**: مفهوم التفسير، للطيار: (ص١٨٦).

وفي هذه الآية الأخيرة يكون المؤمنون داخلين في الأمرِ بالتَّدبُّرِ صراحةً؛ إذا استشهدنا بقراءة: ﴿لِتَدَبَّرُوا﴾؛ **أي**: أنت وأتباعك يا محمد ﷺ.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره: «واختلفت القُرَّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة القراء: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ بالياء؛ **يعني**: ليتدبر هذا القرآن من أرسلناك إليه من قومك يا محمد. وقراءة أبي جعفر وعاصم: ﴿لِتَدَبَّرُوا آياته﴾ بالتاء؛ **بمعنى**: لتتدبَّره أنت يا محمد وأتباعك»(١).

وأمَّا الآثار(٢) الواردة في الحث على التدبر فهي أكثر من أن تُحصى(٣)، وقد جاءت بمعان مختلفة سواء على سبيل الحث على الفعل، أو التوبيخ على الترك، أو بيان الحال، وأسُّ هذه الآثار؛ أثر عظيم بيَّن خيرية أهل القرآن مطلقًا، هو الحديث المشهور المرويُّ عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه مرفوعًا: **(خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)**(٤).

---

(١) تفسير الطبري: (٢١/ ١٩٠)، **وينظر**: كتاب السبعة في القراءات، لابن مجاهد: (ص٥٥٣) وفيه: «قرأ عاصم في رواية الكسائي وحسين عن أبي بكر: ﴿لَتَدَبَّرُوا﴾ بالتاء خفيفة الدال». **وينظر أيضًا**: تحبير التيسير في القراءات العشر، لابن الجزري: (ص٥٣١).

(٢) اعتمدتُّ في مفهوم الآثار على مفهوم الجمهور الذين يطلقونه ويدخلون فيه ما روي عن رسول الله ﷺ، وذلك أنه سيأتي في الرسالة مباحث نقلت فيها أقوالًا وأفعالًا عن الصحابة والتابعين مثل: أهمية التدبر عند السلف فرأيت عدم تكرارها هنا. **قال النووي**: «المذهب المختار الذي قاله المحدثون وغيرهم واصطلح عليه السلف وجماهير الخلف، هو أن (الأثر) يطلق على المروي مطلقًا؛ سواء كان عن رسول الله ﷺ، أو عن صحابي». شرح مسلم للنووي: (١/ ٦٣).

(٣) **قال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٧/ ٢٥٩)**: «الآيات والأحاديث الدالة على حث جميع الناس على العمل بكتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، أكثر من أن تحصى».

(٤) سبق تخريجه (ص٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا دخل في معنى قوله: **(خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)** تعليمُ حروفه ومعانيه جميعًا، بل تعلُّم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان، كما قال جُنْدُبُ بن عبد الله وعبد الله بن عمر وغيرهما: تعلَّمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا، وأنتم تتعلمون القرآن ثم تتعلمون الإيمان»[1].

ومن الآثار المروية في الحثِّ على تدبر كتاب الله وتعلُّمه ما رواه الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، هل بعد هذا الخير شر؟ قال: **(فِتْنَةٌ وَشَرٌّ)**، قال: قلت: يا رسول الله هل بعد هذا الشر خير؟ قال: **(يَا حُذَيْفَةُ، تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ)**، ثلاث مِرارٍ»[2].

ومنها أيضًا ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ؛ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ؛ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا. وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ؛ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا)**[3].

فالمقصود من قوله ﷺ: **(مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ)؛ أي:** ويتدبَّره ويعمل به، والتمثيل وقع للذي يقرأ القرآن ولا يُخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهي، لا مطلق التلاوة. وعبر بالمضارع لإفادة تكريره لها

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٦/ ٢٢٩)، والأثر رواه ابن ماجه حديث رقم: (٦١)، وابن منده في الإيمان (٢/ ٣٧٠) وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ١٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في الفتن، باب: ذكر الفتن ودلائلها، حديث رقم: (٤٢٤٦)، وابن حبان في صحيحه، باب: ما جاء في الفتن، حديث رقم: (٥٩٦٣)، والحديث حسنه الألباني في صحيح أبي داود: (٤٢٤٦)، وصححه شعيب الأرناؤوط كما في تحقيقه لصحيح ابن حبان: (١٣/ ٢٩٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم، حديث رقم: (٧١٢١).

ومداومته عليها حتى صارت دأبه وعادته[١].

ومنها الوصية النبوية الجليلة التي قالها ﷺ في خطبته عام حجة الوداع؛ يحث فيها أمته على التمسك بالقرآن والعمل بما فيه بقوله: **(وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللهِ)**[٢].

ومنها أيضًا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه **أن عائشة** رضي الله عنها **سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ؟ فقالت:** «فإن خُلُق نبيِّ الله ﷺ كان القرآن»[٣].

قال النووي: «قولها: «فإن خلق نبيِّ الله ﷺ كان القرآن»؛ **معناه:** العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدُّب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره وحسن تلاوته»[٤].

ومنها حديث تميم الداري رضي الله عنه المشهور، الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قَالَ: «**(الدِّينُ النَّصِيحَةُ)**. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: **(لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)**»[٥].

قال أبو عمرو بن الصلاح[٦]: «**النصيحة لكتابه:** الإيمان به وتعظيمه وتنزيهه، وتلاوته حقَّ تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهُّم علومه وأمثاله، وتدبُّر آياته، والدعاء إليه، وذبُّ تحريف الغالين وطعن الملحدين عنه»[٧].

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للمباركفوري: (٧/ ١٧٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه، كتاب: الحج، باب حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، حديث رقم: (١٢١٨).

(٣) سيأتي تخريجه (ص١٢٣).

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: (٦/ ٢٦).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان: حديث رقم: (٩٥).

(٦) أبو عمرو عثمان ابن الشيخ صلاح الدين بن عبد الرحمٰن بن عثمان الكردي الشافعي، كان أحد أعلام عصره في التفسير والفقه والحديث وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث، صنف: كتاب علوم الحديث، وشرح مسلم وغيرها، توفي سنة (٦٤٣هـ).
ينظر: طبقات الحفاظ: (١/ ٥٠٣)، وفيات الأعيان: (٣/ ٢٤٣).

(٧) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: (ص٨٠).

المَبْحَثُ الثَّانِي

بيان أهمية التدبر عند السلف

حين تلقَّى السلف الصالح القرآن العظيم بعقيدة راسخة مملوءة بالإيمان الجازم أن هذا الكتاب العظيم خطاب الله ﷻ لهم في هذه الأرض؛ كانت لهم عناية فائقة به حفظًا وفهمًا وعملًا؛ يقتدون بالأسوة الحسنة نبينا محمد ﷺ، الذي كان خلقه القرآن[١].

وإن المتأمل لتدبر هؤلاء السلف يلحظ معنى جميلًا؛ يبرز المنهجية العملية لتدبرهم، يدور حول لازم هذا التدبر وأثره، **وهو**: الاتعاظ والعمل بما في القرآن.

ولذلك برز هذا المعنى في مقولات كثير من العلماء في أثناء حديثهم عن تدبر القرآن الكريم؛ حيث بيَّنوا هذا المعنى وأكدوا عليه، **يقول سيد التابعين الحسن البصري**: «وما تدبُّر آياته إلا اتِّباعُهُ بعمله»[٢].

ويقول أبو سعيد الخراز[٣]: «أول الفهم لكتاب الله ﷻ العمل به»[٤].

---

(١) ثبت ذلك من كلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ كما أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم: (١٧٧٣) **عن سعد بن هشام بن عامر قال**: «سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبيِّ الله ﷺ كان القرآن».

(٢) مصنف عبد الرزاق: (٥٩٨٤).

(٣) شيخ الصوفية أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخراز. قال القشيري: صحب ذا النون والسَّرِيَّ والنباجي وبشرًا الحافي، توفي سنة (٢٨٦هـ)، وقيل سنة (٢٧٧هـ). **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (١٣/ ٤١٩ ـ ٤٢١).

(٤) **ينظر**: اللمع في التصوف، للسراج الطوسي: (ص١١٣).

وهذا شيخ المفسرين الإمام الطبري يُبيِّن التدبر بأنه تدبر حجج الله التي في القرآن، وما شرعه فيه من الشرائع؛ للاتعاظ والعمل به(١).

والإمام ابن القيِّم ينقل عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «نزل القرآن ليُعمل به فاتَّخَذوا تلاوته عملًا، ولهذا كان أهل القرآن هم العاملون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه، ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم»(٢).

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي يبين هذا المعنى أيضًا بقوله: «تدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها، وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها»(٣).

۞ **فهذا التدبر ـ كما تُشير عبارات هؤلاء العلماء ـ له لوازم، من أهمها:** عمل القلب والجوارح لما يتدبره الإنسان، وإلا لم يُعدَّ تدبرًا سليمًا؛ ولذا نجد أن الله عز وجل وبَّخ الكافرين والمنافقين في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]؛ وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؛ لأنهم لم يتعظوا ولم يعملوا، وهذا من دقة البلاغة اللفظية للقرآن حيث جاءت بهذا اللفظ **(التدبر)** في سياق خطاب توبيخي للكفار والمنافقين، ولم تأت بمصطلحات أخرى مشابهة مثل: النظر أو الفهم أو التفسير ونحوها؛ لأن هذه الأمور قد يفعلها غير الملتزم بأحكام الإسلام؛ فبعضهم قد ينظر في القرآن وقد يفهم وقد يفسر، ولكنه لم يفعل ثمرة إنزال القرآن وأسَّه، **وهو:** الاتعاظ والعمل(٤).

---

(١) **ينظر:** تفسير الطبري: (٢٣/ ١٥٣).
(٢) زاد المعاد، لابن القيِّم: (١/ ٣٢٨).
(٣) أضواء البيان: (٧/ ٤٢٩).
(٤) والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فالكفار والمنافقون يسمعون الآيات ويفهمونها ويدركون =

فالعمل إذن شرط أساس للتدبر؛ لأنه لازمُ حصولِ التدبر، وهذا هو الذي يميز التدبر عن غيره من المصطلحات القرآنية الأخرى المشابهة له، مثل: النظر أو التفكير أو الفهم...؛ صحيح أنها قد تتداخل مع التدبر إما بمعناه اللُّغوي كالنظر في عواقب الأمور مثلًا، أو يدخل بعضها الآخر باللزوم أو الاقتضاء كمطلق التفكير، أو إمعان النظر والتركيز، ونحوه؛ لكن التدبر لا بد له من الاتعاظ والعمل كما سبق(١).

وبصورة أوضح؛ فإن هذا المعنى العظيم يظهر في الطريقة العملية لتلقي هؤلاء السلف للقرآن، والمنهجية العلمية التي يسيرون عليها؛ حيث جاءت الروايات والأخبار عن عدد من الصحابة؛ منهم عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى، حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا العلم والعمل(٢).

= إعجازها، ومع ذلك لم تزدهم إلا إصرارًا وعنادًا؛ بل أعظم من ذلك بعض المستشرقين فسر واستنبط وترجم المعاني وعمل الفهارس؛ كالمستشرق الفرنسي: ريجي بلاشير الذي قام بترجمة معاني القرآن إلى اللغة الفرنسية، وله كتب عن القرآن والإسلام، والمستشرق الألماني: تيودور نولدكه الذي كتب رسالة دكتوراه عن تاريخ القرآن! والمستشرق المجري الشهير: جولد تسيهر الذي كتب عدة دراسات عن الإسلام، وعن تفسير القرآن! ولكن كل ذلك لم يغن عنهم شيئًا؛ بل هم داخلون في التوبيخ القرآني لعدم امتثالهم له بعدما عرفوه؛ وصدق الله العظيم: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. **ينظر**: موسوعة المستشرقين، للدكتور: عبد الرحمٰن بدوي.

(١) **ينظر كتاب**: مفهوم التدبر في ضوء الدراسة التحليلية لآياته في القرآن، للدكتور: محمد زيلعي هندي، وكتاب: مفهوم التدبر... تحرير وتأصيل، إشراف: مركز تدبر: (ص٢٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٦/ ١١٧)، والإمام أحمد في مسنده: (٣٨/ ٤٦٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار: (٤/ ٨٢)، والبيهقي في سننه الكبرى: (٣/ ١١٩)، وابن جرير الطبري في تفسيره: (١/ ٧٤) وغيرهم. =

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقًا على هذا الأثر: «تدبر الكلام إنما يُنتفع به إذا فُهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. فالرسل تبيِّن للناس ما أنزل إليهم من ربهم، وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين، والمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلغه الرسل، والعقل يتضمن العلم والعمل، فمن عرف الخير والشر، فلم يتبع الخير ويحذر الشر لم يكن عاقلًا...»[1].

من هذا المنطلق يظهر أن هذا الأثر الشهير الذي كثيرًا ما نقرؤه في الكتب، ونسمعه في المحافل العلمية والتربوية ـ هو الأسُّ الذي تبنى عليه قضية التدبر؛ حيث إنه وضح لنا بصورة جليَّة الطريقة العملية المثلى لتدبر كتاب الله، ممن عاصر التنزيل وعرف التأويل، حيث بينوا لنا أنهم يتدرجون في أخذ الآيات ويفرقونها على أوقات؛ من أجل أن يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، وبهذا يكونون قد تدبَّروا القرآن حق التدبر، فهم يقرؤون لكي يفهموا، ويفهمون لكي يعملوا.

إنَّ تعلم القرآن وأخذه بهذه الطريقة أدعى للفهم والاستيعاب من غيرها؛ فالله ﷻ يقول لنبيِّه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

= ومدار هذا الأثر على عطاء بن السائب، وكان قد اختلط، وقد روى ابن وضاح في البدع: (٢/ ١٧٠)، والفريابي في فضائل القرآن: (ص٢٤١)، والرازي في فضائل القرآن وتلاوته: (ص١٢٧)، وابن سعد في الطبقات الكبرى: (٦/ ١٧٢) هذا الأثر من طريق حماد بن زيد عن عطاء بن السائب، ورواية حماد عن عطاء صحيحة؛ لأنها قبل اختلاط عطاء؛ كما ذكر ذلك ابن حجر في تهذيب التهذيب: (٢٢/ ٢٠٧)، ونصَّ عليه أيضًا بعض الحفاظ، منهم: يحيى القطان والبخاري والعقيلي والنسائي، وغيرهم. **ينظر**: ميزان الاعتدال، للذهبي: (٣/ ٧١). **قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى**: (١٧/ ٤٠٨): «وهذا أمر مشهور رواه الناس عن عامة أهل الحديث والتفسير، وله إسناد معروف».

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٥/ ١٠٨).

وحِرْصُ سلفِنا الصالح على أخذ القرآن بهذه الطريقة المفرقة؛ **إنما هو بسبب إيمانهم بأهمية ركني التدبر: (الفهم السليم، ثم العمل)**؛ لأنها الطريقة المثلى لتدبر كتاب الله؛ حيث يتلازم العلم والعمل، **وتلاوته بحقٍّ لا تكون إلا بهذا؛ كما بيَّنه الصحابي الجليل: عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه **بقوله:** «والذي نفسي بيده! إن حق تلاوته أن يُحلَّ حلاله، ويحرِّمَ حرامه، ويقرأه كما أنزله الله»[١]. حيث بيَّن رضي الله عنه لازم حق هذه التلاوة وهو العمل بما فيه، والعمل لا يكون إلا بعد الفهم.

وإبرازًا لهذه الصورة العملية فإنه يحسن ذكر بعض الأمثلة والشواهد التي جسَّدت هذا المعنى وأبانته من لدن السلف الصالح الأخيار، فلنتأملها ونتأمل كيف اقتضى عندهم العلمُ العملَ؛ فمن ذلك ما رواه مالك عن نافع[٢] **عن ابن عمر** رضي الله عنه **قال:** «تعلَّم عمر رضي الله عنه البقرة في اثنتي عشرة سنة، لما ختمها نحر جزورًا»[٣]، فهذا الأثر يبين أن طول بقاء عمر رضي الله عنه في تعلم سورة البقرة ليس عجزًا ولا انشغالًا عن القرآن؛ بل إنه انشغل بعلمها والعمل بما فيها، كما كان عهدُ الصحابة عليه من أخذ عشر آيات وتعلمها، وإلا لَمَا جلس كل هذه المدة؛ يشهد لذلك أقواله وأفعاله رضي الله عنه؛ فمن أقواله العظيمة ما روي عنه: «لا يَغُرَّنَّكُم من قَرأَ القرآنَ، إنَّما هو كَلامٌ نتكلَّمُ به، ولكن انظُروا من يعملُ به»[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: (٢/ ٥٦٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة: (١/ ٣٩٧).

(٢) نافع المدني أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب، من أئمة التابعين بالمدينة، ديلمي الأصل، مجهول النسب، أصابه ابن عمر صغيرًا في بعض مغازيه، كان علامة في فقه الدين، متفقًا على رياسته، أرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلِّم أهلها السُّنن، كان كثير الرواية للحديث، ولا يعرف له خطأ في جميع ما رواه، توفي سنة (١١٧هـ). **ينظر**: تهذيب التهذيب: (١٠/ ٤١٢)، ووفيات الأعيان: (٢/ ١٥٠).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (٣/ ٣٤٦)، **وينظر**: تفسير القرطبي: (١/ ٤٠).

(٤) رواه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (ص٧١) وفي سنده ضعف.

أمَّا انفعاله رضي الله عنه للقرآن فله شواهد كثيرة، نذكر منها شاهدًا مؤثرًا، **ذكره البخاري في صحيحه**: «أن رجلًا دخل عليه في مجلسه فقال له: هِي يا ابن الخطاب! فوالله ما تُعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل! فغضب حتى همَّ به، فقال له الحرُّ بن قيس[١] رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: والله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله»[٢]. وهذا شاهد عملي على وقوفه عند كتاب الله والامتثال له، وهو ثمرة التدبر.

وهذا الأمر ليس خاصًّا بعمر رضي الله عنه؛ بل إنه عام في أفاضل الصحابة، **كما يحكيه ابنه عبد الله** رضي الله عنه **حين يقول**: «كان الرجلُ من خيار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما معه إلا السورةُ من القرآن أو شبه ذلك، ورُزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يُخَفَّفُ عليهم حتى يقرأه الصَّبِيُّ والأعمى والأعجمي، فلا يعملون به»[٣].

وكما يقوله أيضًا من أُمرنا بأخذ القراءة منه[٤]، وهو الصحابي الجليل: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **حيث يقول في وصفهم**: «إنَّا صعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدَنا يسهُل عليهم حفظ القرآن، ويصعُب عليهم العمل به»[٥].

---

(١) الحرُّ بن قيس بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، ابن أخي عيينة بن حصن، كان أحد الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من فزارة مرجعَه من تبوك، وكان أصغرهم، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه في مجالسه ويشاورهم. **ينظر**: الإصابة في تمييز الصحابة: (٢/ ٣٣٣)، وتاريخ مدينة دمشق: (٤٤/ ٣١٠ ـ ٣١١).

(٢) **ينظر**: صحيح الإمام البخاري، حديث رقم: (٤٦٤٢).

(٣) أخلاق أهل القرآن للآجري: (ص١٠).

(٤) كما جاء ذلك في صحيح مسلم (٦٤٨٨)، وسيأتي.

(٥) مقدمة أحكام القرآن، للقرطبي: (١/ ٤٠)، ومن المفيد مراجعتها؛ حيث ذكر القرطبي =

ويبيِّن أثر هذه السهولة في هؤلاء الجيل الذي عناهم ﵃؛ **الأثر الذي أخرجه الإمام عبد الرزاق في «مصنفه» بسنده إلى ابن عباس ﵄ قال**: «قدم على عمر ﵁ رجل، فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأ منهم القرآن كذا وكذا. فقال ابن عباس: فقلت: والله ما أحبُّ أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة! قال: فَزَبَرَنِي (زَجَرَنِي) عمر...

فقال: ما الذي كرهتَ مما قال الرجل آنفًا؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، إن كنتُ أسأت فإنِّي أستغفر الله وأتوب إليه، وأَنْزِلُ حيثُ أحببتَ. قال: لتُحدِّثَنِّي بالذي كرهتَ مما قال الرجل. فقلت: يا أمير المؤمنين، متى ما تسارعوا هذه المسارعة يَحِيفُوا، ومتى ما يَحِيفُوا يَخْتصِمُوا، ومتى ما يختصموا يَخْتلِفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا! فقال عمر: لله أبوك! لقد كنتُ أُكاتمها الناس حتى جئتَ بها»[1].

وقد وقع ما خشي منه هذان الصحابيان الجليلان ﵄، فخرج الخوارج الذين ذكرهم ﷺ في عدة أحاديث متواترة[2]، وخرج أناس شابهوهم أيضًا يقرؤون القرآن ويقيمون حروفه وألفاظه ويأكلون به؛ لكنه لا يجاوز تراقيهم، ولا يعملون بما فيه.

ويضيف على ذلك سيد التابعين الحسن البصري بقوله: «إن هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من قِبَل أوّله، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبُّر آياته إلا اتباعه، ما هو بحفظ حروفه

= أكثر من أثر يدل على أهمية العمل بالقرآن، وعقد بابًا في ذلك.

(١) الجامع لمعمر بن راشد: (٢٠٣٦٨)، باب: الخصومة في القرآن. المطبوع في ملحق المصنف.

(٢) **قال الإمام أحمد**: «صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه». مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٣/ ٢٧٩).

وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله، فما أُسقط منه حرفًا. وقد ـ والله ـ أسقطه كلَّه، ما ترى القرآن له في خلق ولا عمل، وحتى إنَّ أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَس. والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعَة، ومتى كانت القراء تقول مثل هذا! لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء!»(١).

إنَّ منهج السلف الصالح في التدبر بُني على ركنين: (الفهم، والعمل) لكنه يبرز في الجانب العملي أكثر؛ **لأنهم كما قال ابن مسعود وابن عمر** رضي الله عنهما **في كلامهما السابق:** «وسهُل علينا العمل به»، «رزقوا العمل بالقرآن»، وهذا الأمر المهمُّ الذي تفقده الأمة اليوم **كما جاء في آخر كلامهما:** «وإن من بعدنا يسهُل عليهم حفظ القرآن، ويصعُب عليهم العمل به»، «وإن آخر هذه الأمة يُرزقون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يُرزقون العمل به»(٢).

ويحسن الإشارة هنا أن حرص السلف رضي الله عنهم على أن يتعلموا العلم والعمل يحمل دلائل غاية في الأهمية، تكمن في عدة أمور ومقاصد لا حصر لها، حيث إنهم بذلك امتثلوا لأمر الله عز وجل وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم في تدبر هذا الكتاب العظيم، الذي يهدي لأقوم سبيل، وأهدى طريق، ثم إنهم استشعروا بركته عليهم وعلى معاشهم ومعادهم، كما وعوها في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

---

(١) مختصر قيام الليل، للمروزي: (ص١٧٦)، والزهد لابن المبارك: (ص٢٧٤).

(٢) أخلاق أهل القرآن للآجري: (ص١٠).

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. وعرفوا أيضًا أن في قلوبهم حاجةً لا يسدُّها إلا هذا الأمر من تدبر كتابه، وأن فيه وحشةً لا يزيلها إلا الأنس بكلامه، والعيش في رحابه.

وأيقنوا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وتعلموا من تدبرهم ثناء ربهم على من تدبر كتابه، وذمه لمن تركه ولم يتأثر به، موقنين أن المدح مدح الله والذمَّ ذمُّ الله. ففي الثناء والمدح: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]، وفي الذمِّ والتوبيخ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

أيقنوا أيضًا أن الإيمان به وتعظيمه، وتدبر آياته هو عين النصيحة لهذا الكتاب العظيم، وأنهم إذا قرؤوه وعملوا به أصبحوا كالأُترجَّة ذات الريح الطيب والطعم الطيب بتشبيه بليغ من حبيبهم وقدوتهم ﷺ.

إنَّ هذه الطريقة العظيمة المثلى في تلقي القرآن من أولئك الصفوة الأبرار أظهرت آثار هذا الأمر عليهم في معاملاتهم وسلوكياتهم، في بيعهم وشرائهم، وحديثهم ومعاشرتهم، وحِلِّهم وترحالهم، وحربهم وسلمهم، وفي جميع أحوالهم؛ حتى أصبح واحدهم كأنه قرآنٌ يمشي على الأرض.

۞ **ورضي الله عن أسماء بنت أبي بكر حين قالت في وصف الرعيل الأول منهم**: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قُرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله: تدمعُ أعينُهم، وتَقْشعِرُّ جلودُهم»[١]، وهذا الأمر عزيز لا يقوى عليه إلا ذوو النفوس العالية، والهمم الرفيعة، والله المستعان.

فإنهم لما طبقوا هذا الأمر، وحملوا راية العمل في تدبرهم، تَعَدَّتْ بركتهم إلى غيرهم؛ فأقاموا العدل ونشروه في أرض الله، فأرهبوا أعداء الله، وأخرجوا الناس من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ فحققوا الخير والسعادة والمجد لأمتهم[٢].

وفي بيان هذه المنهجية حديث ملحٌّ للقائمين على المؤسسات والمحاضن التربوية؛ من أجل إبراز دور هؤلاء القدوات والتذكير بمواقفهم في التدبر وطريقتهم في ذلك، فهم خير القرون وبهم يقتدى بعد رسول الله ﷺ، فسرد سير المتدبرين والتذكير بها في المناشط التربوية؛ سبب مؤثر في غرس قيمة التدبر لدى الناشئة، فأسلوب التربية بالقدوات من أهم أساليب التربية، وأكثرها مضاء، وهو أسلوب قرآني فريد؛ يتبيَّن في سرد قصص الأنبياء والصالحين وتلك القدوات للرسول ﷺ ولأمته من بعده: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[٣] [الأنعام: ٩٠].

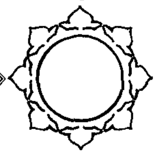


---

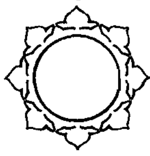
(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: (١٨٣٨٣).

(٢) **ينظر قصة الصحابي الجليل**: ربعي بن عامر ﷺ ودخوله على رستم أمير الفرس قبل غزوة القادسية في كتاب: البداية والنهاية، لابن كثير: (٩/ ٦٢٢).

(٣) **ينظر كتاب**: تعليم تدبر القرآن الكريم، للأهدل: (ص١٢٨).



المَبْحَثُ الثَّالِثُ



حاجة الأمة إلى تدبر القرآن الكريم

إنَّ المُشَاهِد في واقع الأمة الإسلامية اليوم يرى أنها تعيش في زمانٍ أعرض فيه كثيرٌ من الناس عن تدبر القرآن؛ إذ إنّ صلتَهم بكتاب ربّهم يكتنِفها الهَجر والعقوق، وذلك بسبب الغياب القلبيّ والعجز عن تدبّر القرآن، فهي لم تحمل همَّ تدبره لأنها صيَّرته كتاب قراءة، ولم تصيِّره كتاب عمل وتدبر، وإنه من التقصير البيِّن أن تكون صلة الأمة بالقرآن مجرد التلاوة فحسب، ولا يتعدى ذلك إلى فهمه وتدبره والاتعاظ بما فيه. فهل تريد أن تسلك مسلك من ذمهم الله من الأمم السابقة الذين لا يتدبرون ما أنزل إليهم، حيث جاء مثلهم بأبشع الأمثال؛ كما في سورة الجمعة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]؛ فشبَّه تالي القرآن من غير أن يفهمه بالحمار يحمل أسفارًا، فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملَّتنا، ثم لا يفهمه ولا يعمل بما فيه(١).

وإن الأمة اليوم وهي في زمنٍ كثرت فيه البدع، وتلاطمت فيه الفتن، وتحكمت فيه الشهوات والشبهات، وتغيرت فيه المبادئ والمعتقدات ـ لهي أحوج ما تكون إلى تدبر كتاب الله، وإنه لا خلاص من هذا المستنقع الآسن التي تعيش فيه الأمة على جميع الأصعدة،

---

(١) **ينظر**: الحوادث والبدع، للطرطوشي المالكي: (ص١٠١).

إلا بأن يتجه أفرادها جميعًا، شعوبًا ودولًا، رجالًا ونساءً، علماء وعامة، اتجاهًا صحيحًا بكامل أحاسيسهم ومشاعرهم، بقلوبهم وقوالبهم، إلى كتاب الله تلاوة وتدبرًا؛ وذلك لأن الرفعة والكرامة والعزة والسيادة في الدارين إنما هي لحملة القرآن العاملين به؛ كما صح عنه ﷺ أنه قال: (**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**)[1].

۞ **والقرآن الكريم إنما نزل ليكون هداية للأمة ورفعة في جميع شؤونها**، فهو يهدي للتي هي أقوم في كل شيء، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]؛ **قال العلامة الشنقيطي**: «وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة»[2].

فالقرآن معتصم هذه الأمة في جميع أحوالها، وهي بحاجة ماسة إلى فهمه والعمل به، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: «وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن»[3]، **يبيِّن ذلك الأمور الآتية**:

أولًا: أن كتاب الله فيه هداية لمن أراد السير على الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها، حديث رقم: (١٩٣٤).

(٢) أضواء البيان: (٢/٢١٨)، ولقد أسهب الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ في تعليقه على هذه الآية إسهابًا طويلًا ومفيدًا؛ وذكر جملًا وافرة في جهات مختلفة كثيرة مِن هدي القرآن للطريق التي هي أقوم، وبيَّن بعض ما أشارت إليه الآية الكريمة.

(٣) مقدمة في أصول التفسير: (ص٢).

سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦]؛ فالقرآن روحٌ ونور، روحٌ للحياة ونورٌ للطريق، فهو حياة للأمة، ونور لطريقها؛ لأنه يخرج من ظلمات الشرك والكفر والجهالةِ والعصيان إلى نور الإيمان والعلم والطاعة[١].

ثانيًا: أنَّ هذا القرآن كتابُ حكم وتشريع، يشملُ جميع شؤون الحياة، يشملُ الأمور العبادية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية... إلخ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعًا كليًّا في الغالب وجزئيًّا في المهم، فقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] ،وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس.

قال الشاطبي[٢]: «فالقرآن على اختصاره جامع، ولا يكون جامعًا إلا والمجموع فيه أمور كليات؛ لأن الشريعة تمَّت بتمام نزوله».

ثالثًا: أنَّ هذا القرآن كتاب عقيدةٍ خالصة صافية، فيه البيان الحق لكلِّ ما وراء الغيب؛ مما يتعلق بالله تعالى وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته، وما يتعلق بخلقه للسمٰوات والأرض والإنسان ونشأته، وما يتعلقُ بالإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وما يتعلق بما يضاد ذلك من الكفر والشرك والنفاق، ودلائل الربوبية والألوهية

---

(١) **ينظر**: أضواء البيان: (٢/ ٢٣٤).

(٢) إبراهيم بن موسى بن محمد، أبو إسحاق اللخمي الغرناطي، من علماء المالكية، كان محققًا أصوليًّا مفسرًا فقيهًا محدثًا نظارًا ثبتًا بارعًا في العلوم، له استنباطات جليلة وفوائد لطيفة وأبحاث شريفة مع الصلاح والعفة والورع، من مصنفاته: الموافقات في أصول الفقه، والاعتصام، توفي سنة (٧٩٠هـ). **ينظر**: نيل الابتهاج بهامش الديباج: (ص٤٦)، وشجرة النور الزكية: (ص٢٣١).

والنبوات، وإعجاز هذا القرآن؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٤].

رابعًا: أنه كتاب عبادة، يتعبد الإنسان بقراءتِهِ وتلاوتِهِ وحفظه، ويتقرب إلى الله تعالى بذلك، فهو نورُ قلوب العارفين والعابدين، يتلونهُ آناءَ الليل وأطراف النهار، ويعلمونه ويتعلمونه، وهو قد يُسِّر لهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

خامسًا: أن القرآن حبل الله المتين في مواجهة أعداء الإسلام المتربصين بأمة الإسلام، حيث لا يرقبون فيها إلًّا ولا ذمة، ولا يدَعون وسيلةً في حربها إلَّا سلكوها، فهذا القرآن يعلِّمُ الأمة حقيقة المعركة مع عدوها، ويبيِّنُ لها أهدافها من جانب أعدائها، ثم هو يمدها بوسائل النصر وأسلحة الجهاد باللسان والبيان وبالسنان؛ قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال قتادة: «حبل الله المتين الذي أمر أن يُعتصم به: هذا القرآن»[1].

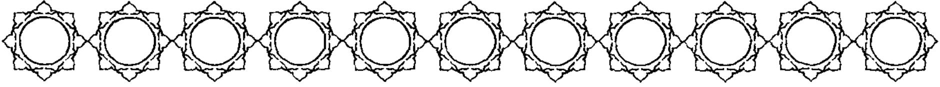
سادسًا: أَنَّ القرآن حق وصدق نزل من عند الله الحكيم الخبير، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]؛ لذا ففيه لفتات عظمى في نواحٍ متعددة: علمية أو طبية أو اجتماعية أو نفسية أو غيرها لحياة البشر جميعًا؛ قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

سابعًا: أن في التمسك بهذا الكتاب ضمانًا للأمة من الضلال؛ قال ﷺ في خطبته عام حجة الوداع: (**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللهِ**)[2].

---

(١) تفسير الطبري: (٧/ ٧٣).

(٢) سبق تخريجه (ص١٢١).



الفَصْلُ الثَّانِي

تحصيل الأسباب الباعثة على التدبر

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: الأسباب القلبيَّة.
- المبحث الثاني: الأسباب العلميَّة والعمليَّة.



المَبحَثُ الأوَّلُ

الأسباب القلبيَّة

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: الإيمان بالله ﷻ والاستعانة به.
- المطلب الثاني: استشعار عظمة القرآن الكريم.
- المطلب الثالث: الإخلاص في طلب التدبر.
- المطلب الرابع: طهارة القلب.

المطلب الأول

الإيمان بالله ﷻ والاستعانة به

من صفات عباد الله المؤمنين: وَجَلُ القلبِ تأثرًا بآيات القرآن كما جاء في بيانهم من عند ربهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]؛ وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه[١].

يقول الشيخ السعدي معلقًا على هذه الآية: «وذلك أنهم يلقون السمع ويُحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبيِّن لهم معنًى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يُحدث في قلوبهم رغبةً في الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان»[٢].

إن الإيمان بالله ﷻ ومحبته وتعظيمه تدفع المسلم لتحقيق تدبر كتاب ربه، فمتى آمن العبد بربه وعظمه أحبَّ كلامه وتدبره وتأثر به، **وقد روي عن ابن مسعود ﷺ قوله:** «من أحبَّ القرآن فهو يحبُّ الله؛ فإنما القرآن كلام الله»[٣].

والعبد إذا عظَّم ربه ﷻ وآمن به إيمانًا صادقًا، واستعان به وتوكل عليه ـ أعانه الله على فهم كتابه وتدبر آياته، فاستماع العبد كما يحبُّ الله

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: (٧/ ٣٢١).
(٢) تفسير ابن سعدي: (٣٥٧).
(٣) رواه الطبراني في الكبير، برقم (٨٦٥٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٦٥): رجاله ثقات.

بنية صادقة للقرآن تجعل الله يعين العبد على فهم كتابه ويجعل له نورًا؛ كما يقول سفيان بن عيينة[١].

فمهما بذل المرء من الأسباب والوسائل لتدبر كتاب الله؛ فإنه مفتقر إلى التقوى والإيمان، والاستعانة والتوكل، **ولذلك يقول الزركشي في «البرهان» وهو يتكلم عن العبد وماذا يكون عليه في حال التدبر**: «تاركًا للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئًا من حوله وقوته، معظمًا للمتكلم، مفتقرًا إلى التفهم، بحال مستقيم، وقلب سليم، وقوة علم، وتمكن سمع؛ لفهم الخطاب، وشهادة غيب الجواب، بدعاء وتضرُّع، وابتئاس وتمسكن، وانتظار للفتح عليه من عند الفتَّاح العليم»[٢].

أمَّا الاستِعانَةُ باللهِ ﷻ من أجل فهم آياته وتدبر كتابه، فشأنها عظيم؛ ومن أهمها: دعاء الله ﷻ أن ييسر للعبد تدبر كتابه والعمل بما فيه، وأن يجعله ربيع صدره ونور قلبه، والمتأمل لحديث ابن مسعود رضي الله عنه يجد دلالة هذا الأمر ظاهرة؛ حيث ثبت في «مسند الإمام أحمد» مرفوعًا أنه ﷺ قال: «**(مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ؛ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي - إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا)**، قال: فقِيلَ: يا رسولَ اللهِ، أَلَا نتعلَّمُها؟! فقال: **(بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا)**»[٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (١١/ ١٧٦).

(٢) البرهان في علوم القرآن: (٢/ ١٨١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (٣٧١٢)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٢٥٣)، والحاكم في مستدركه: (١/ ٦٩٠)، والطبراني في المعجم الكبير: (١٠/ ١٧٠) =

ومن أعظم صور الاستعانة: الاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان الرجيم حين إرادة قراءة القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]؛ حيث إن فيها الالتجاء والاستعانة والاستجارة بجنابه الكريم من الشيطان الرجيم[١]، فلما كان من أجل الأمور التي يلقي الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن؛ احتاج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد، فلهذه الحكمة اختصت قراءة القرآن بالاستعاذة[٢].

قال الإمام ابن كثير في «تفسيره»: «ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييب له وتهيُّؤ لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله، واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه»[٣].

ومن الاستعانة أيضًا: المحافظة على قراءة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول كل سورة سوى سورة (براءة). فالبسملة تعني الاستعانة بالله؛ فكأن القارئ يقول: أدخل في هذا الأمر من قراءة أو دعاء أو غير ذلك ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، لا بحولي ولا بقوَّتي، بل أفعل هذا الأمر مستعينًا بالله متبركًا باسمه تبارك وتعالى. فإذا أحضرت في نفسك أن دخولك في القراءة بالله مستعينًا به متبرئًا من الحَول والقوَّة، كان هذا أكبر الأسباب في حضور القلب وطرد الموانع من كل خير[٤].

= وغيرهم، وصححه الهيثمي في المجمع: (١٠/ ١٣٩)، وأحمد شاكر في تعليقه على المسند: (٥/ ٢٦٦)، والألباني في السلسلة رقم: (١٩٩)، والأرناؤوط في تخريج زاد المعاد: (٤/ ١٩٨). **قال الشيخ الألباني في شفاء العليل**: (ص٢٧٤): «وجملة القول: إن الحديث صحيح، من رواية ابن مسعود وحده، فكيف إذا انضم إليه حديث أبي موسى ﵁، وقد صححه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه، وتلميذه ابن القيِّم».

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ١١٤). (٢) التفسير الكبير، للرازي: (١/ ٩١).

(٣) تفسير ابن كثير: (١/ ١١٤).

(٤) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تفسير سورة الفاتحة: (ص٢).

ولهذا كانت الاستعانة بالله ﷻ مفتاحًا للفهم والعلم، وهي من طريق الراسخين والمقتدين؛ لقول ربِّ العالمين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، **قال ابن عبد الهادي عن شيخه ابن تيمية:** «كان رَحِمَهُ اللهُ يقول: ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير ثم أسأل الله الفهم! وأقول: يا معلِّم آدم وإبراهيم علِّمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرِّغ وجهي في التراب، وأسأل الله وأقول: يا معلم إبراهيم فهِّمني»(١).

ومن جميل ما يذكر في السياق نفسه ما قاله ابن القيِّم: «قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه ـ يومًا: إذا هاش عليك كلبُ الغنم فلا تشتغل بمحاربته، ومدافعته، وعليك بالراعي فاستغث به؛ فهو يصرف عنك الكلب، ويكفِيكَه. فإذا استعاذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم أبعده عنه فأفضى القلب إلى معاني القرآن، ووقع في رِياضِه المُونِقَة، وشاهد عجائبه التي تبهر العقول»(٢).

فاستعانة العبد بالله ﷻ التي منها الدعاء بأن يفتح الله عليه من فضله لفهم كتاب ربه وتدبره؛ هي منَّة من الله ونعمة حرمها الكثيرون؛ خاصة في هذا الزمن الذي كثرت فيه الشواغل والملهيات، والله المستعان.

فالواجب على طالب التدبر أن يراعي هذا الأمر المهم ويربِّي نفسه وأهله عليه، فالاستعانة بالله مفتاح كل الأمور، وركيزة عظمى من ركائز التقوى والإيمان.



(١) العقود الدّرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية: (ص٤٣).
(٢) السَّماع: (ص١٩٤).

المَطْلَبُ الثَّانِي

استشعار عظمة القرآن الكريم

أثنى الله ﷻ على كتابه ووصفه بالعظيم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]؛ **وتتجلى العظمة لهذا القرآن عند استشعار كيفية نزوله، فهو نزل من ربٍّ عظيم، بواسطة مَلَكٍ عظيم، على رسول عظيم.** فالعظمة في القرآن متجلية من كل جانب، واستشعار المؤمن لهذه العظمة في قلبه سبب رئيس في تحصيل التدبر الإيماني؛ لأن العناية بالشيء والاهتمام به فرعٌ عن استشعار عظمته، ولقد تتابعت كلمات السلف الصالح في بيان عظمة القرآن في مواطن كثيرة ومناسبات متفرقة، بل وصنف بعضهم المصنفات في ذلك، ومن المفسرين من ضمَّن مقدمة تفسيره كلامًا خاصًّا في هذا الأمر، وفعل ذلك أيضًا عددٌ من المحدثين في مصنفاتهم، وما ذاك إلا لبيان أهميته وعظم منزلته[١].

قال القرطبي في باب فضائل القرآن في مقدمة تفسيره: «اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألَّف فيه العلماء كتبًا كثيرة، نذكر من ذلك نُكتًا تدل على فضله، وما أعدَّه الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه وعملوا به. فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام ربِّ العالمين، غير مخلوق، كلام من ليس كمثله شيء...»[٢].

---

(١) فعل ذلك عدد من العلماء كأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) في كتابه: فضائل القرآن، ويحيى الفريابي (ت٣٠١هـ) في كتابه: فضائل القرآن، وابن كثير (ت٧٧٤هـ) في كتابه: فضائل القرآن، وغيرهم. ومن المحدِّثين: البخاري، والترمذي، والدارمي، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى، وغيرهم.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (١/ ٤).

فيجب على كل مسلم تعظيم هذا الكتاب العظيم وتنزيهه، **قال النووي**: «أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته»[(١)].

❁ **فعلى المؤمن أن يستشعر عظم القرآن وأنه كلام ربِّ العالمين منزَّل غير مخلوق، كلام من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**، وصفة من ليس له شبيه ولا نِدٌّ، وأنه كتاب إله العالمين، ووحي خالق السمٰوات والأرضين، وأنه هادي الضالين، ومنقذ الهالكين، ودليل المتحيِّرين، وأنه حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والسراج المنير، والصراط المستقيم[(٢)]؛ فإن استشعار ذلك دافع مؤثر لمعرفة آياته وفهم أحكامه، وبالمقابل فإن من لم تتشبع نفسه ويرتَوِ قلبه من تعظيم هذا الكتاب وأنه أصل الهدى والنور والخير والفلاح ـ فستغلق عليه مفاتيح الفهم والتدبر والاتِّعاظ، ولن يكون لتدبره معنى ولا لعمله جدوى.

وكلما عظم الله في قلب المسلم عظم القرآن لديه؛ لأنه كلامُ مَن عظَّمه، والمرء لو جاءته رسالة من ملكٍ عظيم أو رئيسٍ كبير لوجدتَّ قلبه منشغلًا بفحوى الرسالة وكلام صاحبها، ولرأيتهُ يُعيد القراءة مرَّة بعد أخرى، ويهتمُّ لها أشد الاهتمام، فكيف وهذه الرسالة القرآنية الخالدة نزلت إلينا من ملك الملوك، ولله المثل الأعلى ﷻ! «وليعلم أن ما يقرؤه ليس كلام بشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه؛ فإن التدبر هو المقصود من القراءة...»[(٣)].



(١) التبيان في آداب حملة القرآن: (ص١٣١).
(٢) **ينظر**: الرعاية، لمكي بن أبي طالب: (ص٥٥).
(٣) مختصر منهاج القاصدين: (ص٨٦).


المطلب الثالث


الإخلاص في طلب التدبر

الإخلاص أساس صحة الأعمال والعبادات، وهو أحد شرطَي قَبول العمل، ولقد حذرنا الشارع الحكيم من الرياء والشهرة في الأعمال والطاعات، كما أن سلفنا الصالح ـ رحمهم الله ـ كانوا يحرصون أشد الحرص على سلامة نياتهم عند قيامهم بالطاعات؛ خاصة إذا تعلق العمل بالقرآن الكريم، **يقول عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: «أريدوا الله بقراءتكم وأعمالكم»[(١)]. فسرُّ النجاح في فهم معاني القرآن وتدبره هو الإخلاص، **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية**: «من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه، تبيَّن له طريقُ الحق»[(٢)].

فعلى متدبر القرآن أن يذكِّر نفسه دائمًا بالإخلاص، وأن يجدِّد نيَّته وهو يقرأ كتاب الله متأملًا أو متدبرًا، فإنه إذا فعل ذلك فسينتفع وسيُفتح عليه كنوزٌ من العمل والعلم والفهم والإدراك لا تُفتح لغيره. وهي ميسَّرة لطالبها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، **قال مَطَرٌ الورَّاق**[(٣)]: «هل من طالبِ علمٍ فيُعان عليه؟»[(٤)].

---

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري: (ص٤٦). (٢) العقيدة الواسطية: (ص٤).

(٣) مَطر الوراق بن طهمان، أبو رجاء الخراساني، كان من العلماء العاملين وكان يكتب المصاحف، ويتقن ذلك، قال الخليل بن عمر بن إبراهيم: سمعت عمي عيسى يقول: ما رأيت مثل مطر الوراق في فقهه وزهده، قال العجلي: بصري صدوق، وقال مرة: لا بأس به، وقال أبو بكر البزار: ليس به بأس رأى أنسًا وحدث عنه، وقال ابن سعد: كان فيه ضعف في الحديث، توفي سنة (١٢٩هـ). **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (٥/ ٤٥٢)، وتهذيب التهذيب: (١٠/ ١٦٧).

(٤) تفسير الطبري: (٢٧/ ٩٧).

وعليه ألا يقصد بتدبره وتعلمه القرآن توصُّلًا إلى غرض من الدنيا من مال أو رياسة أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند الناس، أو صرف وجوه الناس إليه أو نحو ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فيجب على المسلم أن يخلص نيته في تدبره لكتاب الله تعالى وأن يقصد به وجه الله، فإنما تكون نتيجة التدبر والتفهم على قدر النية[١].

وجامع القول: أن القرآن نور كما وصفه رب العزة والجلال بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وفهم هذا النور يحتاج إلى نور وهو الإخلاص، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور!



(١) **روي عن ابن عباس ﷺ قوله**: «إنَّما يَحفظُ الرجلُ على قدر نيَّته». الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي: (٢/ ٢٥٧).

المطلب الرابع

طهارة القلب

الانتفاع بالقرآن مرتبط بحضور القلب؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ فكلما كان العبد لقلبه أجمع، وعن الشواغل أبعد، كان أقرب إلى فهم وتدبر ما يتلو من كتاب الله؛ إذ إن القلب محل تفهم القرآن وتدبره؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]؛ فتأمل كيف خصَّ القلب بإنزال القرآن عليه؟ حيث كان قلبه ﷺ محلًّا للقرآن، وكذلك الحال لمن أراد تفهُّم القرآن وتدبُّره والانتفاع به، يجب أن يكون قلبه محلًّا للقرآن؛ بحضوره عند تلاوته وتدبره.

وبيان ذلك: أن الإقبال على القرآن والانتفاع به وتدبره متحقِّق لأصحاب القلوب الحيَّة؛ **قال ابن القيِّم في قوله تعالى**: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: «فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحيُّ الذي يعقل عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]»[(١)].

وقال القرطبي: «قيل: لمن كان له حياة ونفس مميِّزة، فعبَّر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومَعدِن حياتها... وقال يحيى بن معاذ: القلب قلبان؛ قلبٌ مُحْتَشٍ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمرٌ من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلبٌ قد احْتَشَى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع؛ لذهاب قلبه في الآخرة»[(٢)].

---

(١) الفوائد: (ص٣).

(٢) تفسير القرطبي: (١٧/ ٢٣).

وقد جمع اللهُ تعالى ذلك في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؛ فعلق فهم القرآن وتدبُّره على انفتاح القلب وحضوره؛ كما دل عليه المفهوم، وعلَّق الانصراف عن فهم القرآن وعن تدبره على انغلاق القلب؛ كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؛ **أي**: أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر[١]؟!

ولما كان سلفنا الصالح أصحاب قلوب حية وأفئدة نقية، انتفعوا بالقرآن وتدبروه حق تدبره، فظهرت آثار ذلك عليهم؛ من وجل القلوب، وقشعريرة الجلد، ودمع العين، كما قال الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وكما قال عن تأثُّرهم أيضًا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، كما تحقق لهم أيضًا العمل الصالح مع الرسوخ في علوم الشريعة، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: «ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبَّره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى وشفاء القلوب والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا منظومه ولا منثوره»[٢].

ولا ريب أن هذه الأمور إنما تحصل من خلال طهارة قلب العبد وخاصة فيما يتعلق بتعامله مع كتاب ربِّه، ولقد كان لسلفنا الصالح قصب السبق في هذا الميدان قولًا وعملًا؛ **فقد روي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان** رضي الله عنه **أنه قال**: «لو طَهُرَت قُلُوبُنا ما شَبِعَت من كلام الله»[٣].

---

(١) جامع البيان: (٢٦/ ٥٧).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: (ص٣٨٤).
(٣) الزهد، للإمام أحمد: (ص١٨٨).

وهذه قَوْلَةٌ[١] بليغة جامعة منه رضي الله عنه وقد حقق ذلك عملًا من خلال قراءته وتدبره لكتاب الله حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم النظر فيه، ورثاه شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت **بقوله**:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ   يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا[٢]

ونعتته زوجه فقالت: «فوالله لقد كان يُحيي اللَّيل بالقرآن في ركعة»[٣].

فينبغي لتالي القرآن أن يطهر قلبه من الشهوات والشبهات؛ لأنها مانعة وحاجبة عن تدبر كتاب الله، وبالمقابل فتطهير القلب منهما دافع مؤثر في فهم القرآن وتدبره، **قال ابن مسعود** رضي الله عنه: «إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تَشغلوها بغيره»[٤].

ولقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]؛ فإذا كان وَرَقُه لا يمسه إلا المطهَّرون، فمعانيه لا يهتدي بها إلا أصحاب القلوب الطاهرة[٥].



(١) جاء في مختار الصحاح ما نصُّه: «ق و ل: قالَ يقول قَوْلًا وقَوْلَةً ومَقَالًا».

(٢) ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه: (٢٣٠)، **ومطلع القصيدة**:

مَنْ سَرَّهُ المَوْتُ صِرْفًا لَا مِزَاجَ لَهُ   فَلْيَأْتِ مَأْسَدةً فِي دَارِ عُثْمَانَا

(٣) الزهد لابن المبارك: (١/ ٤٥٣)، والزهد للإمام أحمد: (١/ ١٠٥) وصحح الأثر الحافظ ابن حجر في الفتح: (٢/ ٤٨٢).

(٤) حلية الأولياء، لأبي نعيم: (١/ ١٣١).

(٥) شرح حديث النزول، لابن تيمية: (ص٤٢٨)، والمستدرك على فتاوى ابن تيمية: (١/ ١٦٩).

المَبْحَثُ الثَّانِي

الأسباب العلمية والعملية

وفيه أحد عشر مطلبًا:

- المطلب الأول: ربط الجوارح بالقرآن الكريم.
- المطلب الثاني: مراعاة الأحوال المناسبة للقراءة.
- المطلب الثالث: سلامة التلاوة، ومراعاة التجويد.
- المطلب الرابع: الترتيل.
- المطلب الخامس: الجهر بالقرآن.
- المطلب السادس: معرفة الوقف والابتداء.
- المطلب السابع: المداومة على قراءة القرآن.
- المطلب الثامن: فهم الآيات والمعاني.
- المطلب التاسع: البكاء والتباكي.
- المطلب العاشر: ترديد الآيات وتكريرها.
- المطلب الحادي عشر: القراءة في كتب المفسرين وفضائل القرآن.

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

ربط الجوارح بالقرآن الكريم

الحواس والجوارح نعمة عظيمة من الله ﷻ على الإنسان؛ فهي وسيلة التواصل بينه وبين الأشياء من حوله، وهي أيضًا من وسائل الإدراك المباشر في الإنسان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وهي وسيلة كذلك إلى العلم النافع والفكر المتدبر والقلب الواعي: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وهي منطلق الإنسان نحو المعرفة، وقد دعا القرآن الكريم الناس إلى استعمالها ليصلوا عن طريقها إلى العلم النافع في مجال الدين والدنيا، فقد أمر الله سبحانه الإنسان أن ينظر إلى نفسه ومن حوله؛ قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وبالمقابل فهي أمانة استودعها اللهُ الإنسانَ واختبره بها، وبيَّن سبحانه تعظيمًا لشأنها أنها ستشهد عليه يوم القيامة بما مارسه من خلالها من أعمال لا يرضاها ونهى عنها، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢][١].

فجوارح كل إنسان لا بد أن تشتغل، والجوارح إذا لم تُشغل بطاعة الله ﷻ انشغلت بغيره، فاللسان إذا لم يشتغل بذكر الله وتلاوة آياته وما يحبه الله ﷻ انشغل بذكر غيره، والقلب المشغول بمحبة غير الله

(١) **ينظر**: رسالة أحكام الحواس الخمس، ندى محمد علي صوَّان: (ص١٠ ـ ١٢).

وإرادته وتدبر آياته، لا يمكن شغله بمحبة الله وتدبر كتابه إلا بتفريغه من غيره، والقلب إذا طابت حياته وصلَحت تبعته حياة الجوارح؛ فإنه مَلِكُها؛ ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره كما قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فإذا عُلم ذلك فعلى مُتلَقِّي القرآن أن يسعى جاهدًا لربط جوارحه بهدايات القرآن وتوجيهاته، وحكمه وأحكامه؛ إذ به تظهر ثمرة التدبر عمليًّا؛ فالجوارح إما أن تكون حجة للإنسان أو حجة عليه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦][1].



(١) **ينظر**: الفوائد، لابن القيِّم: (ص٢٩)، ومدارج السالكين، له: (٣/ ٢٥٩).

المَطْلَبُ الثَّانِي

مراعاة الأحوال المناسبة للقراءة

تمهيد

إنَّ مراعاة الأحوال المناسبة لقراءة القرآن مفيدةٌ جدًّا لطالب التدبر، وأثرها عظيم على المؤمن، حيث يتأكد فيها حضور القلب وصفاء الذهن، ولذلك خص الله بعض الأوقات؛ لأنها أدعى لحضور الذهن وصفاء القلب، فالقراءة في الليل جاء الحث عليها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٦].

والقراءة في الفجر جاء فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وفي حال التأني وعدم العجلة جاء قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وفي حال الترتيل والتغني جاء قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

قال النووي في ذكر بعض هذه الأوقات المختارة: «اعلم أن أفضل القراءة ما كان في الصلاة... وأما القراءة في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير من الليل أفضل من النصف الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما القراءة في النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح، ولا كراهية في القراءة في وقت من الأوقات لمعنًى فيه... ويختار من الأيام الجمعة والاثنين والخميس ويوم عرفة، ومن الأعشار العشر الأخير

من رمضان، والعشر الأول من ذي الحجة، ومن الشهور رمضان»[١].

وبالمقابل فإن الذي لا يعطي القرآن إلا فضول الأوقات ولحظات الانتظار وأوقات الفراغ فإنه سيُحرم نعمة التدبر، فمراعاة الأحوال المناسبة لقراءة القرآن لا بد منها في التدبر، فالقلب المشغول والجوارح المشغولة قلما تتلذَّذ بنعمة هذه العبادة **(عبادة التدبر)**؛ فإن الله ﷻ وبَّخ المنافقين الذين انشغلوا عن القرآن وعن تدبره حتى أصبح على قلوبهم أقفال من الشهوات والشبهات منعتهم عن تدبر كتاب ربِّهم؛ فقال ﷻ موبخًا لهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، **وفي هذا المطلب بعض من هذه الأحوال التي يجب لطالب التدبر أن يراعيها، ولقد اجتمعت في المسائل الآتية:**

المسألة الأولى: القراءة في الصلاة المكتوبة.

المسألة الثانية: القراءة في التهجد.

المسألة الثالثة: القراءة عند راحة البال والسكون.

المسألة الرابعة: اختيار المكان المناسب للقراءة.



(١) التبيان في آداب حملة القرآن: (ص١٢٢).

المَسْأَلَةُ الأُولى

القراءة في الصلاة المكتوبة

كان الصحابة ﷺ يُلقون السمع لقراءة رسول الله ﷺ في الصلوات المكتوبة، وكانوا يحرصون على التعلُّم منه ﷺ ويُصغون لسماع قراءاته في هذه الصلوات بتدبر وخشوع، وفي هذا الباب يحكي لنا الإمام مسلم أنموذجًا من هذا التدبر والخشوع لأحد الصحابة ﷺ **وهو البراء بن عازب** ﷺ **حيث يقول**: «سمعتُ النَّبي ﷺ قَرَأَ في العشاءِ بالتِّين والزَّيتُونِ. فما سمِعْتُ أحدًا أحسنَ صوتًا منْهُ»[١].

وروى جُبير بن المُطعِم[٢] ﷺ **قال**: «سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقرَأُ في المغرِبِ بالطُّورِ، فلَمَّا بَلَغَ هذه الآيةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧]، قال: كادَ قَلْبي أَنْ يطيرَ»[٣].

قال النووي في «التبيان»: «اعلم أن أفضل القراءة ما كان في الصلاة»[٤].

إن أثر هذه القراءة في الصلوات المكتوبة عظيم على المسلم، وهذا مشاهد؛ فكثير من الناس يتأثر أو يخشع أو يصلُح حاله بعد سماع آيات

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، حديث رقم: (٤٦٤).

(٢) جُبير بن المُطْعِم بن عدي القرشي النوفلي ﷺ، كان من حُلماء قريش وسادتهم، وكان عالمًا بأنساب قريش والعرب، قال: أخذت النسب عن أبي بكر الصديق ﷺ، أسلم بين صلح الحديبية وفتح مكة، ومات سنة (٥٨هـ). سير أعلام النبلاء: (٣/ ٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة: (والطور)، حديث رقم: (٤٨٥٤).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: (ص١٢٢).

القرآن في الصلوات المكتوبة، كما في حادثة جُبير بن المُطعِم رضي الله عنه السابقة؛ الذي كان سماعه لهذه الآية من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبه؛ كما جاء في بعض الروايات[١].

فكم من شخص ألقى السمع في الصلاة المكتوبة فسمع الإمام يقرأ، فتأثر قلبه وخشعت جوارحه وصلَح حاله؛ فعلى المسلم أن يحرص في صلاته على إلقاء السمع للقراءة أو قراءة إمامه، ففيها الخير الكثير إذا كان ذلك بحضور قلب.



(١) كما في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا، حديث رقم: (٣٧٩٨).

المسألة الثانية
القراءة في التهجد

«**ما شيءٌ أجده في قلبي ألذَّ عندي من قيام الليل**»[١]؛ ما كان للإمام التابعي الجليل ثابت البُناني[٢] ـ رحمه الله تعالى ـ أن يقول هذا إلا بعدما زكت نفسه، وصلَح قلبه، وطابت حياته، بعدما تعرض لنفحات الله في أسحار الليالي، وذاق لذَّة مناجاته في الأوقات الخوالي، فسبحان من تفضل على عباده بهذا النعيم قبل لقائه، وبصَّرهم بطريق السعادة، ورزقهم لذة هذه العبادة، فهم بليلهم ألذُّ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحبوا البقاء في الدنيا[٣].

قَوْمٌ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ عَلَيْهِمُ بَاتُوا هُنَالِكَ سُجَّدًا وَقِيَامَا
خُمْصَ الْبُطُونِ مِنَ التَّعَفُّفِ ضُمَّرًا لَا يَعْرِفُونَ سِوَى الْحَلَالِ طَعَامَا[٤]

فنعمة قيام المسلم بالليل، هي من توفيق الله له، وإعانته على طاعته، والتقرب إليه بعبادته، فهي شعار الصالحين، ومن سمات عباد الله المتقين، ومن الأسباب العظيمة الموجبة لدخول الجنة بعد رحمة أرحم الراحمين، **ويتجلَّى ذلك في الأدلَّةِ التالية:**

---

(١) صفة الصفوة، لابن الجوزي: (٢/ ١٥٥).

(٢) قال الإمام الذهبي في السير: (٥/ ٢٢١) في ترجمة ثابت البناني: «الإمام، القدوة، شيخ الإسلام، أبو محمد البناني مولاهم، البصري، ولد في خلافة معاوية. وحدث عن جمع من الصحابة، وكان من أئمة العلم والعمل، رحمة الله عليه. قال أنس: إن للخير أهلًا، وإن ثابتًا هذا من مفاتيح الخير، وعن ابن أبي رزين، أن ثابتًا قال: كابدتُ الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة. قال شعبة: كان ثابت البناني يقرأ القرآن في كل يوم وليلة. وعن محمد بن ثابت، قال: مات ثابت سنة سبع وعشرين ومئة، وهو ابن ست وثمانين سنة».

(٣) قاله أبو سليمان الداراني؛ كما في حلية الأولياء: (٩/ ٢٧٥).

(٤) تفسير القرطبي: (١٣/ ٧١).

• **من القرآن:**

إن الناظر في النصوص الشرعية عن حقيقة هذه العبادة تتجلى له مقاصدها في عدة إشراقات قرآنية، وفضائل نبوية تظهر أولًا في كتاب الله ﷻ؛ بكون التهجد بالصلاة هو الصلة الدائمة بالله، المؤدية للمقام المحمود الذي وعده الله نبيَّنا محمدًا ﷺ، فما أحوج الآخرين من أمته للاقتداء به؛ لينالوا علوَّ المقام ورفعة الدرجات، ففي سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وفي آيات أخرى تبرز عدة أوامر ربانية لرسولنا الكريم ﷺ للقيام بهذه العبادة الجليلة، ففي سورة (المزمل) نداء للرسول ﷺ بترك التزمُّل، وهو التغطي بالليل، والنهوض إلى القيام بالليل والعبادة[١]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٤]؛ فكان خيرَ أسوة في ذلك بأبي هو وأمي ﷺ.

وآية (المزمل) الأخرى بينت أن القيام بالليل أجمع للخاطر وأجدر لفقه القرآن: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[٢] [المزمل: ٦] كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما[٣].

وفي سورة (الشرح) خطاب له ﷺ بعدم القيام إلا بعد الفراغ من أمور الدنيا وأشغالها؛ لكي يكون نشيطًا فارغ البال مخلصًا الرغبة والنية لله ﷻ[٤]: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح: ٧ ـ ٨].

وفي سورة (آل عمران) ورد الثناء على طائفة من أهل الكتاب

---

(١) **ينظر**: تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٥٧).

(٢) **قال الأزهري**: «ناشئة الليل: قيام الليل». **وقال الحسن البصري**: «كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة الليل». **ينظر**: معالم التنزيل، للبغوي: (٤/ ٤٩٣).

(٣) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب التطوع، باب نسخ قيام الليل والتيسير فيه، حديث رقم: (١٣٠٦)، وحسن إسناده الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود: (٥/ ٤٨).

(٤) **ينظر**: تفسير ابن كثير: (٤/ ٦٨٠).

بسبب هذا الفعل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وفي سورة (الذاريات) يبرز في سمات عباد الله المتقين التي استحقُّوا بها جنة الآخرة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨].

وفي إشراقة أخرى في سورة (الزُّمَر) يأتي تفضيل القانت الخاشع على غيره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩].

• **من السُّنَّة:**

ويتضح الأمر ثانيًا في الأحاديث النبوية، حيث جاء الحث عليها في صورة بهية وجزاء وافر في عدة أحاديث كريمة من كلام رسولنا الكريم ﷺ تارة في الفضل والشفاعة لصاحب هذا القيام: (**فيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ**)(١).

ومرة في حثٍّ وتربية لشباب الأمة على ذلك: (**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ!**)(٢). وأخرى في حثٍّ صريح للأمة بكونه أفضل الصلاة بعد الفريضة الصلاة في جوف الليل(٣).

وفي بيان عذب منه ﷺ بيَّن لأمته أنَّ فاعل ذلك محبوب عند الله، فبين أن اللهَ يُحِبُّ ثلاثةً، وذكر منهم: (**رَجُلٌ سَافَرَ مَعَ قَوْمٍ، فَارْتَحَلُوا،**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما حديث رقم: (٦٦٢٦)، وغيره، وصححه السيوطي في الجامع الصغير: (٥٢٠٣)، وأحمد شاكر في تعليقه على المسند: (١٠/١١٨)، والألباني في صحيح الجامع: (٣٨٨٢).

(٢) **قال ذلك لعبد الله بن عمر** رضي الله عنهما **قال سالم:** «فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا». **ينظر:** صحيح البخاري، باب فضل قيام الليل، حديث رقم: (١١٢٢).

(٣) **ينظر:** صحيح مسلم، كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم، حديث رقم: (١١٦٣).

حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْكَرَى، أَوِ النُّعَاسُ، فَنَزَلُوا، فَضَرَبُوا بِرُؤُوسِهِمْ، ثُمَّ قَامَ، فَتَطَهَّرَ، وَصَلَّى رَغْبَةً لِلَّهِ ﷻ، وَرَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ)[١].

وفي حديث آخر يبيِّن ﷺ أنه اقتداء، وقُربة، وتكفير للسيِّئات، ومنهاة عن الإثم، كما في حديث أبي أُمامة مرفوعًا: **(عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلْإِثْمِ)**[٢].

- **من سيرة السلف الصالح:**

وتتضح هذه الحقيقة ثالثًا في سيرة سلفنا الصالح - رحمهم الله - في إحياء ليلهم بالصلاة وتدبر القرآن والدعاء والاستغفار، **فقد وصفهم صاحبهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** رضي الله عنه **بقوله**: «لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى اليوم شيئًا يُشبِهُهم، لقد كانوا يصبحون شُعثًا غُبرًا صُفرًا... قد باتوا لله سجَّدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله، يُراوحون بين جباههم وأقدامهم...»[٣].

وقال عنهم ابنه الحسن رضي الله عنه: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربِّهم؛ فكانوا يتدبَّرونها بالليل، ويتفقَّدونها في النهار»[٤].

بل كانوا يحرصون على ذلك حتى في السفر، **قال ابن أبي مُلَيْكَة**[٥]:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي ذر رضي الله عنه، باب: ومن غرائب مسند أبي ذر رضي الله عنه، حديث رقم: (١٦٣٧)، والحاكم في المستدرك، في كتاب الجهاد، حديث رقم: (٢٤٤٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه، حديث رقم: (٣٥٤٩)، والبغوي في شرح السُّنَّة وحسنه: (٢/٤٥٨)، وحسنه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: (١/٤٦٦)، والألباني في الإرواء، حديث رقم: (٤٥٢).

(٣) حلية الأولياء: (١/٧٦).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: (ص٢٩).

(٥) عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيْكَة، أبو بكر، ويقال: أبو محمد التميمي =

«سافرت مع ابن عباس ﵄ من مكة إلى المدينة، فكان يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا، ثم يبكي حتى تسمع له نَشِيجًا»(١).

ولقد كانوا مع ذلك يحرصون أيضًا على أمر أهلهم بالصلاة والقيام؛ كما كان يفعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁؛ حيث كان يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، **يقول لهم**: «الصلاةَ! الصلاةَ! ثم يتلو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢]»(٢).

وكانوا يتعاهدون مع نسائهم وخوادمهم حتى مع وجود ما يشغلهم من أضياف ونحوه، ونعم البيت القرآني الذي يتربى على هذا، **فعن أبي عثمان النهدي**(٣) **قال**: «تضيَّفتُ أبا هريرة ﵁ سبعًا، فكان هو وامرأته وخادمه يَعْتَقِبون الليل أثلاثًا، يصلِّي هذا ثم يوقظ هذا، ويصلِّي هذا ثم يوقظ هذا»(٤).

حتى إنه بلغ ببعضهم كسفيان الثوري أنه يفرح إذا جاء الليل لأجل القيام بهذه العبادة الجليلة، وإذا جاء النهار حزن(٥). **وكان قتادة يقول**:

= المكي، تابعي ثقة كثير الحديث، كان إمام الحرم وشيخه ومؤذِّنه الأمين، أدرك ثلاثين من الصحابة، وروى الحديث الشريف، ولاه ابن الزبير قضاء الطائف، توفي سنة (١١٧هـ)، ويقال: (١١٨هـ). **ينظر**: تهذيب التهذيب: (٥/ ٣٠٦)، وشذرات الذهب: (١/ ١٥٣).

(١) مختصر قيام الليل: (ص١٣١).

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، باب: ما جاء في صلاة الليل، حديث رقم: (٢٨٩)، وصحح إسناده عبد القادر الأرناؤوط في التعليق على جامع الأصول.

(٣) الإمام عبد الرحمٰن بن مَلٍّ ـ وقيل: ابن ملي ـ ابن عمرو بن عدي البصري، مخضرم معمَّر، أدرك الجاهلية والإسلام، شهد وقعة اليرموك، وثقه علي بن المديني، وأبو زرعة، وجماعة، وقيل: أصله كوفي، وتحول إلى البصرة. كان من سادة العلماء العاملين، أسلم في عهده ﷺ ولم يره، لكنه أدى إلى عماله الزكاة، مات سنة (١٠٠هـ). سير أعلام النبلاء: (٤/ ١٧٥).

(٤) **ينظر**: صحيح البخاري رقم: (٥٤٤١).

(٥) الجرح والتعديل، للإمام ابن أبي حاتم: (١/ ٨٥).

«ما سَهِرَ الليلَ منافقٌ»[١]؛ إمعانًا في بيان ثِقَل هذا الأمر على المنافقين والمرائين، وحثًّا لعباد الله الصادقين.

ولأن النساء شقائق الرجال؛ فللعابدات المتهجدات ذِكرٌ عالٍ في هذا المقام، يزينه فعل أمهات المؤمنين؛ اللاتي تربين على ذلك في مدرسة محمد ﷺ؛ فقامت معه خديجة رضي الله عنها في أول الأمر حين جاء الأمر بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، وهذه الصديقة عائشة رضي الله عنها الصوَّامة القوَّامة، روي عنها أنها قامت في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، تردِّدها وتتدبَّرها وتبكي[٢].

وهذه حفصة بنت الفاروق رضي الله عنها تظفر بتزكية عالية لمداومتها على هذه العبادة، فقد جاء في المستدرك وغيره أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: **(رَاجِعْ حَفْصَةَ؛ فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ)**[٣].

❁ **وهنا وصية مهمة لمن يريد إحياء هذه العبادة؛ وهي**: أن يلزم منهاج محمد ﷺ في هديه؛ فلا يغالي ولا يجافي، ولقد جاءت أحاديث كثيرة في بيان هذه العبادة، ونقلت لنا كتب السُّنَّة الشيء الكثير عن فضلها وأحكامها وهيئتها[٤]، وقد حكى لنا الصحابي الجليل حذيفة بن

---

(١) الزهد والرقائق، لابن المبارك: (١/ ٣١).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٢/ ٤٥١)، ومصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: (٦٧٥٣)، وسكت عنه الذهبي، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٩/ ٢٤٨): «رجاله رجال الصحيح»، وصححه السيوطي في الجامع الصغير: (٦٠٧٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٥/ ١٧).

(٤) ذكرت هذه الأحاديث والآثار في أكثر دواوين السُّنَّة من الصحاح والسنن والمسانيد والمصنفات، وهناك كتب ألفت مستقلة في هذا الباب، مثل: قيام الليل، للإمام المروزي المتوفى سنة (٢٩٤هـ)، وقد اختصره المقريزي المتوفى سنة (٨٤٥هـ)، وكتاب: التهجد وقيام الليل، لأبي بكر بن أبي الدنيا المتوفى سنة (٢٨١هـ)، وكتاب: فضل قيام الليل والتهجد، للآجري المتوفى سنة (٣٦٠هـ)، وغيرها. أمَّا الكتب المعاصرة فكثيرة، ومن أشهرها وأجمعها كتاب: رهبان الليل، للدكتور: سيد العفَّاني، مطبوع في ثلاثة مجلدات.

اليمان رضي الله عنه حال الرسول ﷺ في هذه العبادة بوصف بليغ، حيث يقول رضي الله عنه: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلةٍ فافْتتحَ (البقرة) فقلتُ: يركع عند المئَةِ. ثم مَضَى فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى فقلت: يركع بها. ثم افتتح (النساء) فقرأها، ثم افتتح (آل عمران) فقرأها؛ يقرأ مُترسِّلًا إذا مرَّ بآية فيها تَسبيحٌ سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذٍ تَعوَّذَ، ثم ركع فجعل يقول: (**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**). فكان ركوعُهُ نحوا من قيامِهِ، ثم قال: (**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**). ثم قام طويلًا قريبًا مِمَّا ركع، ثم سجد فقال: (**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**). فكان سجودُهُ قريبًا من قيامِهِ»[١].

إنَّ هذا الوصف المؤثر الذي وصفه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لصفة قيام الرسول ﷺ بالليل؛ يُظهر للأمة المنهج العملي السليم في كيفية إحياء الليل، وهو يوضح أيضًا لطالب التدبر المحور العملي الذي ينبغي أن يقتديَ به ويراعيَه، **فالمتأمل في هذا الحديث العظيم تظهر له ثلاثة مقاصد غاية في الكمال والإجلال:**

أولها: طول القراءة في التهجد: حيث قرأ ﷺ في ركعة واحدة (البقرة) و(آل عمران) و(النساء)، وطول القيام من أفضل الصلاة؛ كما جاء ذلك في حديث جابر بن عبد الله[٢] رضي الله عنه قال: «سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ الصَّلَاةِ أفْضَلُ؟ قال: (**طُولُ الْقُنُوتِ**)»[٣]. **والمراد بـ«الْقُنُوتِ»:**

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، حديث رقم: (٧٧٢).

(٢) جابر بن عبد الله بن عمر بن حَرَام، الأنصاري صحابي شهد بيعة العقبة، وغزا مع النبي ﷺ تسع عشرة غزوة، أحد المكثرين من الرواية عن النبي ﷺ، وكانت له في أواخر أيامه حلقة بالمسجد النبوي، ويؤخذ عنه فيها العلم، كُفَّ بصره قبل موته بالمدينة، توفي سنة (٧٨هـ). **ينظر:** الإصابة: (١/ ٢١٤).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت، حديث رقم: (٧٥٦).

القِيام. فكان أفضل لكون ذلك محَلَّ قراءة القرآن[١].

ثانيها: التدبر في القراءة: حيث كان ﷺ يقرأ مترسلًا بتمهل وتدبر، معايشًا الآيات التي يقرؤها كما جاء في الحديث: «إذا مَرَّ بِآيةٍ فيهَا تسبيحٌ سبَّحَ، وإِذَا مَرَّ بسُؤَالٍ سأَلَ، وإِذَا مَرَّ بِتعوُّذٍ تعوَّذَ». وهذه الأمور ليست خاصة بقراءة الليل، **كما قال النووي:** «استحباب هذه الأمور لكل قارئ في الصلاة وغيرها»[٢].

ثالثها: الكمال في الأداء: حيث حرص ﷺ على الكمال في أداء هذه العبادة؛ فجمع فيها بين القراءة وبين الذكر وبين الدعاء وبين التفكر؛ لأن الذي يسأل عند السؤال ويتعوَّذ عند التعوُّذ ويسبِّح عند التسبيح، يتأمل قراءته ويتفكر فيها، فيكون هذا القيام روضة من رياض الذكر، قراءةً وتسبيحًا ودعاءً وتفكرًا[٣].

۞ **فيا من يريد التدبر والانتفاع والتأثر والخشوع والشفاء؛** الزم هذا الباب العظيم الذي وصَّى به ربُّ العزة في كتابه، وحثَّ عليه محمد ﷺ، وداوَمَ على فعله، وتبعه أصحابه وتابِعوهم؛ ففيه من الكنوز العظيمة، والخيرات الكثيرة ما لا يحصيه إلا الله، ويكفي فيه شرفًا أنه وقت نزول الربِّ تبارك وتعالى إلى السماء الدُّنيا.

يَا بَاغِيَ ٱلْإِحْسَانِ يَطْلُبُ رَبَّهُ ... لِيَفُوزَ مِنْهُ بِغَايَةِ الْآمَالِ
انْظُرْ إِلَى هَدْيِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِي ... كَانُوا عَلَيْهِ فِي الزَّمَانِ الْخَالِي
دَرَجُوا عَلَى نَهْجِ الرَّسُولِ وَهَدْيِهِ ... وَبِهِ اقْتَدَوْا فِي سَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ
الْقَانِتِينَ الْمُخْبِتِينَ لِرَبِّهِمْ ... النَّاطِقِينَ بِأَصْدَقِ الْأَقْوَالِ
يُحْيُونَ لَيْلَهُمُ بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ ... بِتِلَاوَةٍ، وَتَضَرُّعٍ، وَسُؤَالِ

---

(١) **ينظر:** شرح النووي على مسلم: (٤/ ٢٠٠).
(٢) شرح النووي على مسلم: (٦/ ٦٢).
(٣) **ينظر:** شرح رياض الصالحين، للشيخ: محمد العثيمين: (٢/ ٩٤).

وعُيُونُهُمْ تَجْرِي بِفَيْضِ دُمُوعِهِمْ   مِثْلَ انْهِمَالِ الْوَابِلِ الهَطَّالِ
فِي اللَّيْلِ رُهْبَانٌ، وَعِنْدَ جِهَادِهِمْ   لِعَدُوِّهِمْ مِنْ أَشْجَعِ الأَبْطَالِ[١]

وإن من الأمور المهمة في هذا الموضوع أن يحرص العابد على فعل مقومات هذا الأمر من الإخلاص، والمتابعة، والمجاهدة، كما حرَص السلف الكرام عليها؛ **فقد سأل رجل تميمَ بن أوس الداريَّ**[٢] رضي الله عنه **فقال له: كيف صلاتك بالليل؟ فغضب غضبًا شديدًا، ثم قال:** «والله لركعةٌ أصلِّيها في جَوف الليل في السِّرِّ أحبُّ إليَّ من أن أصلِّيَ الليل كلَّه، ثم أقصَّه على الناس»[٣]. وكان أيوب السَّخْتِيانِيُّ[٤] يقوم الليل كلَّه، فإذا قرب الفجر رجع فاضطجع في فراشه، فإذا طلع الصبح رفع صوته كأنه قد قام تلك الساعة[٥].

أمَّا مجاهدة النفس على القيام فهي من أعظم الوسائل المعينة على قيام الليل؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها أَمَّارَةٌ بالسوء تميل إلى كل شر ومنكر، فمن أطاعها فيما تدعو إليه قادته إلى الهلاك والعَطَب، وقد أمرنا الله تعالى بالمجاهدة، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾

---

(١) **ينظر**: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (٢/ ٢٣٧).

(٢) تميم بن أوس بن حارثة بن سود الداري، أبو رقية، صحابي، كان راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين، أسلم سنة (٩هـ)، وكان تميم أول من قص على الناس بأمر عمر رضي الله عنه، وروى عنه النبي ﷺ حديث الجَسَّاسة الذي أخرجه مسلم، سكن المدينة ثم انتقل إلى الشام، فنزل بيت المقدس، توفي سنة (٤٠هـ). **ينظر**: الاستيعاب: (١/ ١٩٣)، وأسد الغابة: (١/ ٢١٥).

(٣) الجزء المتمم لطبقات ابن سعد، الطبقة الرابعة، بتحقيق: د. عبد العزيز السلومي: (ص١٦٥).

(٤) أيوب بن أبي تميمة كيسان، أبو بكر البصري، تابعي، سيد فقهاء عصره، من حفاظ الحديث، قال ابن سعد: كان ثقة ثبتًا في الحديث، جامعًا كثير العلم، حجة عدلًا. قال مالك: كان من العالمين العاملين الخاشعين، توفي سنة (١٣١هـ). **ينظر**: شذرات الذهب: (١/ ١٨١)، وسير أعلام النبلاء: (٦/ ١٥).

(٥) حلية الأولياء: (٣/ ٧).

[الحج: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦]، **وقال ثابت البناني**: «كابدتُّ نفسي على قيام الليل عشرين سنة، وتلذَّذت به عشرين سنة»[١]. **وقال إبراهيم بن شماس**[٢]: «كنتُ أرى أحمد بن حنبل يُحيي الليل وهو غلام»[٣].

وكان الإمام البخاري يقوم فيتهجَّد من الليل، فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال[٤].

وكان شيخ الإسلام ابن تيميَّة في ليله منفردًا عن الناس، خاليًا بربِّه، ضارعًا مواظبًا على تلاوة القرآن، مكررًا لأنواع التعبدات[٥].

إنَّ هذه التأكيدات من الشارع الحكيم جعلت علماء الشريعة يبحثون عن سر هذا الوقت الذي حثَّ الشارع على إحيائه بالقرآن، **فنجد أن النووي يشرح ذلك بقوله**: «إنَّما رَجَحَتْ صلاة الليل وقراءته؛ لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات... وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات، مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل؛ فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلًا...»[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٥/ ٢٢١).

(٢) إبراهيم بن شماس الغازي أبو إسحاق السمرقندي، قال أبو بكر الأثرم: سمعت أحمد بن حنبل ذكر إبراهيم بن شماس فأحسن الثناء عليه، وذكره مرة أخرى فقال: صاحب سُنَّة، وكانت له نكاية في الترك. وقال أحمد بن سيار المروزي: رأيت ابن راهويه يعظم من أمره ويحرضنا على الكتابة عنه، وقال أبو سعد الإدريسي: كان شجاعًا بطلًا مبارزًا، وعالمًا فاضلًا عاملًا، ثقة ثبتًا في الرواية، متعصبًا لأهل السُّنَّة، كثير الغزو، توفي سنة (٢٢١هـ). **ينظر**: تهذيب الكمال: (٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦)، وتاريخ بغداد: (٦/ ٩٩ ـ ١٠١).

(٣) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٢٨).

(٤) طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى: (١/ ٢٧٦).

(٥) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للبزَّار: (ص٣٦).

(٦) التبيان، للنووي: (ص٦٤).

ويشاركه ابن حجر العسقلاني بقوله: «لأن الليل مَظِنَّة ذلك؛ لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية»[١].

ويوافقهم ابن كثير بقوله: «قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ وأجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهُّمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولَغَطِ الأصوات وأوقات المعاش»[٢].

۞ وهنا تأتي مسألة ـ قد يستفيد منها المتدبر ـ جاء ذكرها في «الفتاوى الكبرى»، وهي مسألة: أيما أفضل إذا قام من الليل: الصلاة أم القراءة؟

وأجاب عنها شيخ الإسلام ابن تيمية بما يلي: «بل الصلاة أفضل من القراءة في غير الصلاة؛ نصَّ على ذلك أئمة العلماء، وقد قال: **(اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)**[٣]. لكن من حصل له نشاط وتدبر وفهم للقراءة دون الصلاة، فالأفضل في حقِّه ما كان أنفعَ له»[٤].

ومن خلال ما سبق يتبين أن المداومة على القراءة في التهجد فيها خيرات عظيمة، وهي معينة جدًّا على التدبر وتأثر القلب وخشوعه، فلا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهِّل حفظه، وييسِّر فهمه ـ إلا القيامُ به في جوف الليل؛ كما يقوله الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[٥]، **ويقول السَّرِيّ السَّقَطي**[٦]: «رأيت الفوائد ترِدُ في ظلام

(١) فتح الباري: (٩/ ٤٥).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٥٩).

(٣) يشير إلى حديث ثوبان رضي الله عنه الذي أخرجه ابن ماجه: (٢٧٧)، والدارمي: (١/ ٦٨)، والحاكم: (١/ ١٣٠)، والبيهقي: (١/ ٤٥٧)، وغيرهم مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وصححه الألباني في إرواء الغليل: (٢/ ١٣٧).

(٤) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية: (٢/ ٤١).

(٥) مقدمة أضواء البيان: (ص٤).

(٦) السَّري بن المغلس السَّقطي، اشتغل بالعبادة، وصحب معروفًا الكرخي، توفي سنة (٢٥٣هـ)، وقيل غير ذلك. **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (١٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧)، وحلية الأولياء: (١٠/ ١١٦ ـ ١١٨).

الليل»[١].

إن الاتصال بالله ﷻ الذي نزّل القرآن هو زاد المتقين، وشعار المخلصين، الاتصال به ذكرًا وعبادةً ودعاءً وتسبيحًا؛ حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاء، وفي تَطَلُّعٍ وفي أُنْسٍ، تفيض منه الراحة على التعب والمشاق الدنيوية، والهمومُ الحياتية، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة.

حيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل، وترى عظمة التكليف، وضخامة الأمانة، فتستصغر ما لاقت وما تلاقي من متاعب الحياة! فالله الرحيم كلَّف عبده الدعوة، ونزل عليه (القرآن) الزاد الصالح لهذه الرحلة المُضنية في هذه الحياة[٢].

نعم هو زاد لأصحاب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل. إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها روَّاد هذا الطريق من الأتقياء والمصلحين والدعاة إلى الله في هذا الزمن؛ خاصة في هذه المرحلة الحرجة التي تعيشها الشعوب الإسلامية اليوم، فالتعبد لله ﷻ في هذه العبادة الليلية؛ نجاح وفلاح للدعوات والمشاريع النهارية.

والتعرض لنفحات الله ﷻ في هذا الوقت وقراءة كتابه والاستعانة بالدعاء والتسبيح؛ هي زادٌ مضمون يعين على جميع مشاق الحياة وأتعابها.



(١) **ينظر**: الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي، جمع: طارق بن عوض الله: (٢/ ١٨٦).
(٢) **ينظر**: في ظلال القرآن: (٦/ ٣٧٨٥).

المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ

القراءة عند راحة البال والسكون

هذه المسألة متحققة جدًّا في المسألة السابقة؛ حيث إن المسلم غالبًا ما يكون باله في راحة وسكون في الليل، وهناك أوقات أخرى لكنها أوقات نسبية تختلف من شخص لآخر، وعلى طالب التدبر معرفة ذلك الأمر بنفسه وعلى حسَب وقته، فلا يقرأ في وقت انشغالاته الذهنية أو الدنيوية التي تجعله لا يفهم ما يقرأ، إضافة إلى أن هذا الأمر قد يصرفه عن التدبر والخشوع، ويجعل المرء يقرأ لينتهي فقط؛ **أي**: مجرد تلاوة فقط، همُّه آخر السورة أو الجزء أو آخر حزبه، فيقرؤه دون تدبر وخشوع، **ولقد قال الحسن البصري في مثل هذا**: «يا ابن آدم، كيف يَرِقُّ قلبُك وإنَّما همَّتك آخر السورة؟!»(١).

وجاء في سُنَّة المصطفى ﷺ ما يشهد لمراعاة هذه المسألة؛ كما في حديث أبي هريرة مرفوعًا: (**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ**)(٢).

فهنا في هذا الحديث أرشد ﷺ إلى تهيئة الأمور التي بكمالها يأتي التدبر والتأثر والخشوع، وفيه إشارة إلى تهيئة النفس وراحة بالها وحضها على الإقبال على الصلاة بخشوع وتدبر، وفراغ قلب ونشاط وتعقُّل لما يقرؤه ويدعو به، حيث بيَّن أن غلبة النعاس تمنع من تدبر القرآن(٣).

---

(١) مختصر قيام الليل، المروزي: (ص١٥٠).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقُد أو يقعُد حتى يذهب عنه ذلك، حديث رقم: (٧٨٧). ومعنى استعجم؛ **أي**: أُرتج عليه فلم يقدر أن يقرأ؛ كأن صار به عُجمة. **ينظر**: شرح مسلم للنووي: (٦/ ٦٥).

(٣) **ينظر**: طرح التثريب، للحافظ العراقي: (٣/ ٩٠)، وتطريز رياض الصالحين، لفيصل آل مبارك: (ص٦٦٩).

المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ

اختيار المكان المناسب

قال النووي في «التبيان» ما نصُّه: «ويستحبُّ أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار...»(١).

إن لاختيار المكان المناسب لتلاوة القرآن أثرًا في عملية التدبر؛ حيث ينبغي للقارئ أن يختار الأماكن المناسبة لقراءته؛ بعيدًا عن قوارع الطرق والملهيات والشاغلات التي تشغل الذهن وتصرف القلب، ومما يشهد لهذا الشأن ما رواه البخاري في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «صلَّى رسول الله ﷺ في خَمِيصةٍ لها أعلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: (**اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ، وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ؛ فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلَاتِي**)»(٢).

قال الطِّيبيُّ(٣): «فيه إيذانٌ بأن للصُّور والأشياء الظاهرة تأثيرًا في

---

(١) التبيان: (ص٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب: إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، حديث رقم: (٣٧٣)، **وأبو جَهْم**: عبيد الله ـ ويقال: عامر ـ بن حذيفة القرشي العدوي، أسلم عام الفتح، وصحب النبي ﷺ، وكان مُعَظَّمًا في قريش مُقَدَّمًا فيهم، قيل: إنه مات في آخر خلافة معاوية، وقيل: في خلافة ابن الزبير، وإنما خصَّه ﷺ بإرسال الخميصة؛ لأنه كان أهداها للنبي ﷺ. **قال ابن دقيق العيد**: «فيه مبادرة الرسول ﷺ إلى مصالح الصلاة، ونفي ما لعله يخدش فيها. وأما بعثه بالخميصة إلى أبي جهم فلا يلزم منه أن يستعملها في الصلاة. ومثله قوله ﷺ في حلة عطارد حيث بعث بها إلى عمر رضي الله عنه: (**إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ بِهَا إِلَيْكَ لِتَلْبَسَهَا**)». **ينظر**: فتح الباري: (٢/ ٩١)، والإصابة في تمييز الصحابة: (٧/ ٦٠).
والخميصة: كساء مربَّع له عَلَمان، **والأنبجانية**: كساء غليظ لا عَلَمَ له. فتح الباري: (٢/ ٩٠).

(٣) الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين، من علماء الحديث والتفسير والبيان، قال ابن حجر: كان آية في استخراج الدقائق من القرآن والسنن، وكان =

القلوب الطاهرة والنفوس الزكية؛ **يعني**: فضلًا عن دونها»[١].

فتأمل كيف حرص الرسول ﷺ على خلوِّ المكان الذي يتعبد فيه من الشواغل والملهيات.

وكذلك ينبغي للمتدبر أن يحرص على المكان المناسب له بعيدًا عن الأمور الصارفة والأشياء الشاغلة. **وليعلم أن من أفضل الأماكن المهيأة والمناسبة لذلك**: هي المساجد التي هي أفضل الأماكن إلى الله ﷻ؛ كما استحبَّ جماعة من العلماء ذلك، **قال النووي**: «استحبَّ جماعة من العلماء القراءة في المسجد؛ لكونه جامعًا للنظافة وشَرَفِ البُقعة»[٢].

يؤخذ ذلك من عدة أحاديث عنه ﷺ؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ - إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**)[٣].

وحديث عقبة بن عامر[٤] قال: «خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: (**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ، فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلا قَطْعِ رَحِمٍ**؟) فقلنا:

= ذا ثروة من الإرث والتجارة، فلم يزل يُنفِقُه في وجوه في الخيرات إلى أن كان في آخر عمره فقيرًا، وكان شديد الرَّد على المبتدعة والفلاسفة، من مصنفاته: التبيان في المعاني والبيان، والخلاصة في أصول الحديث، والكاشف عن حقائق السنن النبوية، توفي سنة (٧٤٣هـ). **ينظر**: شذرات الذهب: (٦/ ١٣٦)، والدرر الكامنة: (٢/ ١٨٥).

(١) فتح الباري، لابن حجر: (٢/ ٩١). (٢) التبيان: (ص٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم: (٧٠٢٨).

(٤) عقبة بن عامر بن عبس الجهني، صحابي جليل، روى عن ابن عباس وأبي أمامة وجبير بن نفير وغيرهم، كان قارئًا عالمًا بالفرائض والفقه، فصيح اللسان شاعرًا كاتبًا، توفي سنة (٦٠هـ). سير أعلام النبلاء: (٢/ ٤٦٧).

يا رسول الله، نحبُّ ذلك! قال: **(أَفلاَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله ﷻ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ؟!)»**[1].

ففي هذين الحديثين إشارة إلى أن بيئة المسجد وجوّه أنسب للتعليم والتدبر والحفظ والعيش مع القرآن؛ **لأن القارئ يحافظ في المسجد على منافذ القلب الثلاثة:**

- **العين**: فلا يرى المحرَّمات والمكروهات.
- **الأذن**: فلا يسمع ما لا يرضي الله ﷻ.
- **اللسان**: فلا يتكلم إلا بالخير والصلاح.

بالإضافة إلى ما في المُكث في المسجد من الأجر والثواب[2].

وجامع القول في هذه المسألة أن يحرص المرء على اختيار المكان المناسب والمهيأ لقراءته وتدبره، سواء في المسجد أو مصلاه في منزله، أو الغرفة المناسبة، أو في غيرها؛ ليكون تدبره أمثل.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، حديث رقم: (٨٠٣).
جاء في «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، للقرطبي: (٣/ ٢٩٧) **ما نصُّه**: «**الصُّفَّة**: سقيفة كانت في المسجد، يأوي إليها الفقراء. **وبُطحان والعقيق**: واديان بينهما وبين المدينة قريب من ثلاثة أميال أو نحوها. **والكَوْمَاوَان**: تثنية كَوْمَاء؛ وهي الناقة العظيمة السَّنام؛ كأنه كوم».

(٢) **ينظر**: إقراء القرآن الكريم، للدخيل: (ص٣٠٣).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

سلامة التلاوة ومراعاة التجويد

التجويد مصدر من: جوَّد، يجوِّد، تجويدًا، **والاسم منه**: الجَوْدَة ضدُّ الرداءة، يقال: جوَّد فلان في كذا؛ إذا فعل ذلك جيدًا. **وهو**: إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، وردُّ الحرف إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره، وتصحيح لفظه وتلطيف النطق به على حال صيغته، وكمال هيئته؛ **من غير إسراف ولا تعسُّف، ولا إفراط ولا تكلُّف**... وهو حلية التلاوة، وزينة القراءة، والأمة كما هم متعبَّدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده متعبَّدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه، على الصفة المتلقَّاة من أئمة القراءة، المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية، التي لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها[١].

وذلك أن الله ﷻ شرع لقراءة القرآن صفة معينة وطريقة محددة نزل بها جبريل عليه السلام وعلَّمها نبيَّنا محمدًا ﷺ، وأقرأها النبي ﷺ لأصحابه، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

أي: لتقرأه على الناس بترسُّل وتمهُّل؛ فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ، وهذه الصفة لا تتحقق إلا بالمحافظة على أحكام التجويد المستمدة من قراءة رسول الله ﷺ والتي ثبتت بالتواتر والأحاديث الصحيحة؛ لأن النبي ﷺ قد علَّم أصحابه القرآن الكريم كما تلقَّاه عن أمين الوحي جبريل عليه السلام، ولقَّنهم إياه بنفس الصِّفة، وحثَّهم على تعلُّمها والقراءة بها، ولقد روي أن النبي ﷺ قال: (**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنِ**

---

(١) **ينظر**: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري: (١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٩).

ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ [ابن مسعود]، **وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبي حُذَيْفَةَ)**(١).

ولعل المقصد أن يقرأه على الصفة التي قرأ بها هؤلاء من حسن الصوت وجودة الترتيل ودقة الأداء(٢).

قال ابن الجزري(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ **متحدثًا عن أحد هؤلاء القُرَّاء، وهو عبد الله بن مسعود** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وكان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قد أُعطي حظًّا عظيمًا في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله كما أنزله الله تعالى، وناهيك برجل أحبَّ النبي ﷺ أن يسمع القرآن منه، ولمَّا قرأ أبكى رسول الله ﷺ؛ كما ثبت في الصحيحين(٤)، وروينا بسند صحيح عن أبي عثمان النهدي قال: صلَّى بنا ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المغرب بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ووالله لوددتُّ أنه قرأ بسورة (البقرة)؛ من حُسن صوته وترتيله.

وهذه سُنَّة الله تبارك وتعالى؛ **فمن يقرأُ القرآن مجوَّدًا مصحَّحًا كما أُنزل**، تلتذُّ الأسماع بتلاوته، وتخشع القلوب عند قراءته، حتى يكاد أن يَسْلِبَ العقول ويأخذ الألباب؛ وهذا سرٌّ من أسرار الله تعالى يودعه من

---

(١) أخرج الإمام مسلم في صحيحه: (٦٤٨٨) عن مسروق قال: كنا نأتي عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فنتحدث إليه، فذكرنا يومًا عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: «لقد ذكرتم رجلًا لا أزال أحبُّه بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ، مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ** ـ فَبَدَأَ بِهِ ـ **وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبي حُذَيْفَةَ**)».

(٢) غاية المريد في علم التجويد: (ص١٦).

(٣) محمد بن محمد بن علي، أبو الخير، العمري الدمشقي ثم الشيرازي الشافعي، الشهير بابن الجزري. مقرئ، مجوّد، محدث، حافظ، مؤرخ، مفسر، فقيه، مشارك في بعض العلوم، من تصانيفه: النشر في القراءات العشر، وغاية النهاية في طبقات القراء، وتقريب النشر في القراءات العشر، والهداية في علم الرواية، وتحبير التيسير، توفي سنة (٨٣٣هـ). **ينظر**: الضوء اللامع: (٩/ ٢٥٥)، وشذرات الذهب: (٧/ ٢٠٤).

(٤) سبق تخريجه: (ص١٠٤).

يشاء من خلقه؛ ولقد أدركنا من شيوخنا من لم يكن له حسن صوت ولا معرفة بالألحان إلا كان جيِّد الأداء؛ قَيِّمًا باللفظ؛ فكان إذا قرأ أطرب المسامع، وأخذ من القلوب بالمجامع، وكان الخلق يزدحمون عليه، ويجتمعون على الاستماع إليه، أُمَمٌ من الخواص والعوام، يشترك في ذلك من يعرف العربيَّ ومن لا يعرفه من سائر الأنام، مع تركهم جماعات من ذوي الأصوات الحسان، عارفين بالمقامات والألحان؛ لخروجهم عن التجويد والإتقان»[١].

ومن المعلوم أن مبنى الكلام قائم على المعنى، وسلامة النطق تزيد الفهم، وتكمل الإدراك، وتعين على التدبر، وإذا اختل النطق بالكلمة أو إعرابها ولحن القارئ فيها، فإن المعنى قد يتغير أو يكون ناقصًا أو غير بيِّن، وكل ذلك مما يبعد القلب عن التدبر وفهم الآيات[٢].

قال ابن كثير تعليقًا على آية سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]: «فيه دليل على استحباب ترتيل القراءة، والترسل فيها من غير هَذْرَمَةٍ ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر»[٣].

لكن تبقى مسألة: وهي أن التنطع بالقراءة والوسوسة في مخارج الحروف والتعسف والإسراف والتجويد المتكلف؛ يعد خروجًا عن القراءة الشرعية المطلوبة من المتدبر[٤].

قال ابن الجزري: «ليس التجويد بتمضيغ اللسان، ولا بتقعير الفم، ولا بتعويج الفك، ولا بترعيد الصوت، ولا بتمطيط الشد، ولا بتقطيع المد، ولا بتطنين الغُنَّات، ولا بحصرمة الراءات، قراءة تنفِرُ عنها الطِّباع، وتمجُّها القلوب والأسماع، بل القراءة السهلة العذبة الحلوة

---

(١) النشر في القراءات العشر: (١/ ٢٣٩).

(٢) **ينظر**: تدبر القرآن للسنيدي: (ص٣٣). (٣) تفسير ابن كثير: (١/ ٧٧).

(٤) بدع القراء القديمة والمعاصرة، بكر أبو زيد: (ص٦).

اللطيفة، التي لا مضغ فيها ولا لَوْك، ولا تعسُّف ولا تكلُّف، ولا تصنُّع ولا تنطُّع، لا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء، بوجه من وجوه القراءات والأداء...»[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولا يجعل همَّته فيما حُجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن: إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك، **فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الربِّ من كلامه**، وكذلك شغل النطق بـ(أأنذرتهم)، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك...»[٢].

وقال تلميذه ابن القيِّم: «ومن تأمل هدي رسول الله ﷺ وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم؛ تبيَّن له أن التنطع والتشدق والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سُنَّته»[٣].

❁ **وهنا فتوى محررة ومتينة في هذه المسألة لسماحة الشيخ الإمام عبد العزيز بن باز يقول فيها**: «التجويد مُتَلَقًّى عن أصحاب النبي ﷺ، والقُراء تلقَّوه عمَّن فوقهم، وتلقَّوه من فوقهم عن أصحاب النبي ﷺ، وأصحاب النبي ﷺ تلقَّوه عن نبيِّهم ﷺ؛ فهي قراءة متوارثة عن أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم، حتى وصلت إلينا. فالمشروع للمؤمن أن يقرأ كما تلقى عن مشايخ القراءة؛ لأن في هذا تحسينًا للقراءة وتجويدًا لألفاظ

---

(١) النشر في القراءات العشر: (١/ ٢٤٠).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٦/ ٥٠).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٦٢). لا يفهم من كلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم في النقلين السابقين أنهما يريان ذم التجويد نفسه وأنه محدث، فكلامهما إنما جاء في ذم التكلف والتنطع في هذا الباب كما يفهم من سياقاتهما لمن تأمل في سباقها ولحاقها؛ ولهذا نصَّ ابن تيمية في موضع آخر من كتبه على أن «الناس مأمورون أن يقرؤوا القرآن على الوجه المشروع، كما كان يقرؤه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ فإن القراءة سُنَّةٌ يأخذها الآخر عن الأول» كما في جامع المسائل: (٣/ ٣٠٣).

القرآن، حتى يؤدِّيها كما نزلت وما فيه من غنة أو إظهار أو إخفاء، كل هذا من التحسينات ليس من الواجبات، بل هو من التحسين للألفاظ والعناية بالتلاوة على خير وجه، وقد شجع النبي ﷺ الناس على الإحسان في القراءة، فقال ﷺ: (**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**)[١]؛ **يعني**: يحسِّن صوته جاهرًا به، وثبت عنه ﷺ أنه قال: (**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**)[٢]؛ **يعني**: حسِّنوا أصواتكم به؛ حتى يستمدَّه المستمع، وحتى يرتاح له المستمع، وحتى يستفيد منه المستمع، **فالتجويد من الأشياء المشروعة لتحسين القراءة، ولتأثيرها في القلوب وللتلذذ بها، ومن ذلك ما يتعلق بالغُنَّة ويتعلق بالمدود ويتعلق بالتفخيم والترقيق إلى غير ذلك**»[٣].



(١) سبق تخريجه: (ص١١١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث البراء بن عازب: حديث رقم: (١٨٧٣١)، وأبو داود في سننه، باب استحباب الترتيل في الصلاة: حديث رقم: (١٤٦٨)، والنسائي في باب تزيين القرآن بالصوت: حديث رقم: (١٠١٥)، وابن ماجه في باب حسن الصوت بالقرآن: حديث رقم: (١٣٤٢)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط.

(٣) فتاوى نور على الدرب، حكم قراءة القرآن بالتجويد، موقع سماحته على الشبكة العنكبوتية.

 المَطْلَبُ الرَّابِعُ 

الترتيل

جاء الأمر بترتيل القرآن الكريم والحثُّ على تحسين الصوت حال تلاوته، والترغيب في ذلك والثناء على المعتنين به، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] **قال ابن كثير في «تفسيره»:** «**أي**: اقرأه على تمهُّل؛ فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره»(١).

وقال مجاهد في تفسيرها: «بعضه على أثر بعض، على تُؤَدَةٍ، وعن قتادة: بيِّنْه بيانًا»(٢).

فترتيل القراءة: التمهُّل فيها، وتبيين حروفها وحركاتها، والتأنِّي في أدائها؛ ليكون أدعى إلى فهم معانيها(٣).

وفي هذه الآية خاطب الله ﷻ رسوله ﷺ خصوصًا، وأُمَّته عمومًا فلم يقتصر سبحانه على الأمر بالفعل، حتى أكده بالمصدر؛ اهتمامًا به، وتعظيمًا له، ليكون عونًا على تدبر القرآن وتفهمه(٤)، وكذلك كان ﷺ حيث كانت قراءته عليه الصلاة والسلام ترتيلًا، **فعن قتادة قال:** «بلغنا أن عامَّة قراءة النبي ﷺ كانت المَدَّ»(٥).

وقال ابن حجر: «ومن المعلوم من عادته ﷺ ترتيل القراءة وتعديل الأركان»(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٥٧).
(٢) تفسير الطبري: (٢٣/ ٣٦٣).
(٣) **ينظر**: الفائق للزمخشري: (٢/ ٣٤)، وفتح الباري لابن حجر: (٩/ ٨٩).
(٤) **ينظر**: لطائف الإشارات للقسطلاني: (١/ ٢١٠).
(٥) الدر المنثور، للسيوطي: (٨/ ٣١٤). (٦) فتح الباري (٢/ ٣٤).

وقال الإمام ابن القيِّم: «وكانت قراءته [ﷺ] ترتيلًا لا هَذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسَّرة حرفًا حرفًا»(١).

وقد ثبت في صحيح الإمام مسلم من حديث حفصة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يقرَأُ السُّورةَ فيُرتِّلُها، حتَّى تكُونَ أَطْولَ مِنْ أَطْولَ منهَا»(٢).

وعن ابن أبي مُلَيْكَة: «أن بعض أزواج النبي ﷺ ولا أعلمها إلا حفصة، سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: إنكم لا تُطيقونها قالت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾... **تعني:** الترتيل»(٣).

وجاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]؛ **قال:** «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذَا نزلَ جبرِيلُ بالوَحْي، وكان مِمَّا يُحرِّكُ بهِ لسَانهُ وشفتَيْهِ؛ فيَشْتَدُّ عليهِ، وكانَ يُعْرَفُ منهُ؛ فأنزَل اللهُ الآية...»(٤)، ففي هذا الحديث دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هَذْرَمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر؛ كما قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩](٥).

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] **قال:** «**الترتيل:** تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف»(٦).

---

(١) زاد المعاد: (١/ ٤٦٣).

(٢) صحيح الإمام مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: جواز النافلة قائمًا وقاعدًا، حديث رقم: (١٢١٨).

(٣) مسند الإمام أحمد، حديث رقم: (٢٦٤٩٤)، وعلق عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط بقوله: «صحيح لغيره».

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم: (٤٩٢٩).

(٥) تفسير ابن كثير: (١/ ٧٧).

(٦) النشر: (١/ ٢٠٩)، وقد رواه الهذلي في الكامل ورقة: (٣٤) (مخطوط). **ينظر:** الوقف والابتداء للغزال: (١/ ٦)، رسالة دكتوراه تحقيق الدكتور العثمان.

قال أبو داود في سننه: «باب استحباب الترتيل في القراءة» ثم ساق حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**)[(١)].

وغيرها الكثير من النصوص الشرعية والآثار المروية، التي أكدت على هذا المعنى؛ لأنه زين القرآن؛ كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه[(٢)].

ولأنه يكون عونًا على التدبر، ويزيد القراءة حلاوة وانجذابًا، ويساعد على الحفظ والفهم[(٣)]، ومن الملاحظ أن النفوس تنجذب للقراءة المرتلة الخاشعة أكثر من انجذابها للقراءة العادية، فإذا انجذبت النفوس استمعت لآيات ربِّها بقلب مفتوح، وصدر مشروح، وفهم وتأمل، **قال العلماء**: «والترتيل مستحبٌّ للتدبر ولغيره... لأن ذلك أقرب للتوقير والاحترام، وأشدُّ تأثيرًا في القلب»[(٤)].

قال القرطبي: «الترتيل أفضل من الهَذِّ؛ إذ لا يصحُّ التدبر مع الهَذِّ»[(٥)].

۞ وهنا وقفة مع المربين والمدرسين الذين يدرسون كتاب الله؛ فالأولى أن يحثُّوا تلاميذهم على الترتيل والقراءة المرتلة، وعدم الاستعجال، وأن يشجعوا طلابهم على تنمية ملكة الترتيل وتحسين أدائها، ومن لم يكن ذا صوت حسن من الطلاب يُعوَّد على التحسين ما استطاع سبيلًا، مع مراعاة اجتناب التلحين والتمطيط الذي يذهب بجمال الترتيل[(٦)]، ولقد جاء في سنن أبي داود مرفوعًا: «(**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ**

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب: استحباب الترتيل في القراءة، حديث رقم: (١٣١٧)، والحديث صححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود: (٥/ ٢٠٥).
(٢) السنن الكبرى، للبيهقي: (٢/ ٥٤). (٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٥٧).
(٤) التبيان للنووي: (ص٣٧).
(٥) تفسير القرطبي: (١٥/ ١٩٢).
(٦) **ينظر**: تعليم تدبر القرآن الكريم، للأهدل: (ص١٠٤ ـ ١٠٥).

بِالْقُرْآنِ). قيل: فقلتُ لابنِ أبِي مُلَيْكَةَ ـ أحد رواة الحديث ـ: يَا أَبا مُحمَّدٍ! أَرَأَيتَ إذا لم يكُن حسن الصَّوتِ؟ قال: **يُحَسِّنُهُ ما اسْتَطَاعَ!**»[١].

وهكذا وجَّه المعلِّمُ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه تلميذه علقمة بن قيس[٢] حين قرأ عليه فكأنه عجل! **فقال له عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: «فداكَ أبي وأمِّي! رتِّل؛ فإنَّه زَين القرآن»[٣].



(١) سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب: استحباب الترتيل في القراءة، حديث رقم: (١٤٧٣). قال الألباني: حسن صحيح كما في صحيح أبي داود: (٥/ ٢١٢).

(٢) علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك النخعي، أبو شبل، تابعي، ورد المدائن في صحبة علي، وشهد معه حرب الخوارج بالنهروان، كما شهد معه صفين، غزا خراسان، وكان علقمة فقيهًا إمامًا بارعًا طيب الصوت بالقرآن، ثبتًا فيما ينقل، صاحب خير وورع، بلغ من علمه أن أناسًا من أصحاب النبي ﷺ كانوا يسألونه ويستفتونه، توفي سنة (٦١هـ). **ينظر**: تهذيب التهذيب: (٧/ ٢٧٦)، وتاريخ بغداد: (١٢/ ٢٩٦).

(٣) السنن الكبرى، للبيهقي: (٢/ ٥٤).

 ضابط الترتيل:

أجمع أهل العلم على استحباب تحسين الصوت بالقرآن للأدلة الشرعية التي جاءت في الحثِّ على ذلك كما مرَّ معنا، قال النووي: «أجمع العلماء رضي الله عنهم جميعًا من السلف والخلف من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار وأئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة»(١).

وتحسن الإشارة إلى أن هناك ضوابط للترتيل لا ينبغي التفريط فيها، ومنها:

• ألا يخرج الترتيل عن حدِّ القراءة المتعارف عليها من تمطيط وتلحين وما شابهها، فإن أفرط القارئ حتى زاد حرفًا أو أخفاه حرُم عليه ذلك(٢).

• ترك العجلة المفرطة، **قال ابن حجر:** «استحباب الترتيل لا يستلزم كراهة الإسراع، وإنما الذي يُكره: الهَذُّ؛ وهو الإسراع المفرط بحيث يخفى كثير من الحروف أو لا تخرج من مخارجها»(٣). **وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى:** ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] **قال:** «يقرأ آيتين ثلاثة ثم يقطع لا يُهَذْرِم»(٤).

• أن يراعي درجات الترتيل، فأقل الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الإبانة، وأكمله أن يرتل القراءة ويتوقف فيها ما لم يخرجه ذلك إلى التمديد والتمطيط(٥).

قال ابن حجر عن أقل الترتيل: «بشرط أن يكون المسرع لا يخل بشيء من الحروف والحركات والسكون والواجبات»(٦).

---

(١) التبيان: (ص١٠٩).
(٢) التبيان: (ص٥٨).
(٣) فتح الباري، لابن حجر: (٩/ ٨٩).
(٤) الدر المنثور، للسيوطي: (٨/ ٣١٣).
(٥) الآداب الشرعية، لابن مفلح: (٢/ ٢٩٧).
(٦) فتح الباري لابن حجر: (٩/ ٨٩).

المَطْلَبُ الخَامِسُ

الجهر بالقرآن

الجَهْرُ بالقول: رفع الصوت به، وجَهَرَ الشيءُ: عَلَنَ وبَدا، وجَهَرَ بكلامه، ودعائه، وصوته، وصلاته، وقراءته: أَعلن به[١].

والجهر بقراءة القرآن: أن يُسمع القارئ نفسَه، وأن يزيد على ذلك بحيث يُسمع من بقُربه[٢].

جاء في كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن»، **ما نصه:** «فصل: في رفع الصوت بالقراءة... وهو فصل مهم ينبغي أن يعتنى به... لأن فائدته (الجهر) تتعدى إلى غيره، والنفع المتعدي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همَّه إلى الفكر فيه، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط، ويوقظ غيره من نائم وغافل وينشِّطه»[٣].

فمن هذه الأمور تبرز أهمية الجهر بالقرآن في مسألتنا: مسألة التدبر؛ فإن الجهر بالصوت بما يدور في القلب أعوَن على التركيز والانتباه؛ ولذلك تجد الإنسان يلجأ إليه قسرًا عندما تتعقد الأمور ويصعب التفكير.

ومن فوائد الجهر: استماع الملائكة الموكَّلة بسماع الذكر، وفرار الشياطين، وفيه تطهير للمكان والمنزل وتعطيره، وجعله بيئة صالحة طاهرة[٤].

---

(١) لسان العرب: (٤/ ١٤٩) مادة: (جهر). (٢) الفروع لابن مفلح: (١/ ٤١٠).

(٣) التبيان: (ص٥٨).

(٤) **ينظر**: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة، د. خالد اللاحم: (ص٧٠).

فقد روي عن أبي هريرة ﷺ **قوله**: «البيت يُتلى فيه كتاب الله كثر خيره، وحضرته الملائكة، وخرجت منه الشياطين، وإن البيت الذي لم يُتلَ فيه كتاب الله ضاق بأهله، وقلَّ خيره، وحضرته الشياطين، وخرجت منه الملائكة»(١).

جاء في سورة (الإسراء) قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ **قال القرطبي في «تفسيره»**: «عبَّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبَّر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ لأن كل واحد منهما مرتبطٌ بالآخر»(٢).

وجاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قوله ﷺ: **(مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ)**(٣).

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **(إِنِّي لَأَعْرِفُ**

---

(١) الزهد، لابن المبارك: (ص٧٩٠).

(٢) تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٩٩). ذكر الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره أقوال السلف في تأويل (الصلاة) في هذه الآية؛ فبعضهم يرى أنه عنى بالصلاة هنا الدعاء، وبعضهم يرى أنه عنى القراءة في الصلاة. ثم قال كلامًا جميلًا يستفاد منه عدة فوائد، من أبرزها احترام أقوال السلف وعدم التطفل عليها، **يقول** رحمه الله: «ولولا أن أقوال أهل التأويل مضت بما ذكرت عنهم من التأويل، وأنا لا نستجيز خلافهم فيما جاء عنهم، لكان وجهًا يحتمله التأويل أن يقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ التي أمرناك بالمخافتة بها، وهي صلاة النهار لأنها عجماء، لا يُجهر بها، ﴿وَلَا تُخَافِتْ﴾ بصلاتك التي أمرناك بالجهر بها، وهي صلاة الليل، فإنها يجهر بها ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾؛ بأن تجهر بالتي أمرناكَ بالجهر بها، وتُخافت بالتي أمرناكَ بالمخافتة بها، لا تجهر بجميعها، ولا تُخافت بكلها، فكان ذلك وجهًا غير بعيد من الصحة، **ولكنا لا نرى ذلك صحيحًا؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على خلافه**». تفسير الطبري: (١٧/ ٥٨٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن، حديث رقم: (١٨٨٣)، **وينظر**: (ص١١١) في معنى التغني.

أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ)[١].

وعن أم هانئ[٢] ﵂ **قالت:** «كنت أسمع قراءة النبي ﷺ وأنا على عريشي»[٣].

وعن عبد الله بن عمر ﵄ **قال:** «أول ما ينقص من العبادة: التهجُّد بالليل، ورفع الصوت فيها بالقراءة»[٤].

وسئل ابن عباس عن قراءة الرسول ﷺ بالليل فقال: «كان يقرأ في حجرته قراءة لو شاء حافظ أن يحفظها لفعل»[٥].

وعن علي ﵁ **أنه سمع ضجَّة ناس في المسجد يقرؤون القرآن؛ فقال:** «طوبى لهؤلاء كانوا أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ»[٦].



---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم: (٣٩٩١)، ومسلم في فضائل الصحابة باب: من فضائل الأشعريين ﵃ حديث رقم: (٢٤٩٩).

(٢) أم هانئ بنت أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمية، ابنة عم النبي ﷺ، اسمها فاختة وهو الأشهر، وقيل غير ذلك، من فواضل نساء عصرها، لها صحبة، أسلمت عام الفتح، روت عن النبي ﷺ (٤٦) حديثًا، وقد خطبها رسول الله ﷺ ولم يتزوجها، توفيت في خلافة معاوية. **ينظر**: الإصابة: (٤/ ٥٠٣)، وتهذيب التهذيب: (١٢/ ٤٨١).

(٣) أخرجه النسائي في سننه حديث رقم: (١٠١٣)، وابن ماجه في سننه، حديث رقم: (١٣٤٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي: (١٠١٢)، والوادعي في الصحيح المسند: (١٦٧٧). **قال البغوي في شرح السُّنَّة: (٤/ ٢٩)**: «وعن أم هانئ قالت: «كنت أسمع قراءة النبي ﷺ بالليل، وأنا على عرشي» **العريش والعرش**: السقف، وقد قيل للنبي ﷺ: ألا نبني لك عريشًا؟ **فالمراد منه**: ما يستظل به، وسميت بيوت مكة عروشًا؛ لأنها عيدان تنصب وتظلل».

(٤) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد: (ص١١١).

(٥) مختصر قيام الليل للمروزي: (ص١٣٣).

(٦) رواه الطبراني في المعجم الأوسط: (٧/ ٢١٤).

ضابط الجهر بالتلاوة:

جاء في سنن أبي داود: «أن النبيَّ ﷺ خرج ليلةً؛ فإذا هو بأبي بكر رضي الله عنه يصلي يخفض من صوته. قال: ومرَّ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يصلي رافعًا صوته. قال: فلما اجتمعا عند النبي ﷺ، قال ﷺ: **(يَا أَبَا بَكْرٍ! مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَخْفِضُ صَوْتَكَ؟!)**؛ قال: قد أَسمَعْتُ مَن ناجيْتُ يا رسول اللهِ! قال: وقال لعمرَ: **(مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَكَ؟!)**؛ قال: فقال: يا رسول الله! أُوقِظُ الوَسْنَانَ، وأَطْرُدُ الشيطانَ! فقال النبيُّ ﷺ: **(يَا أَبَا بَكْرٍ! ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا)**. وقال لعمرَ: **(اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا)**»[(١)].

قال الطِّيبي: «نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ كأنه قال للصديق: انزل من مناجاتك ربَّك شيئًا قليلًا، واجعل للخلق من قراءتك نصيبًا، وقال لعمر: ارتفع من الخلق هونًا واجعل لنفسك من مناجاة ربِّك نصيبًا»[(٢)].

والجهر بقراءة القرآن له صور متنوعة، ويمكن تقسيمها لما يلي، حسب ما جاء في الآثار والمرويات:

• **في الصلاة الجهرية المكتوبة:** الأصل فيها الجهر؛ وما سميت الصلاة الجهرية إلا للجهر بالقراءة فيها، **وفيها حديث جُبير بن المُطعم** رضي الله عنه **قالَ:** «سمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَقْرَأ في المَغرِبِ بِالطُّورِ، فلَمَّا بلغ هذه الآيةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب: رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، حديث رقم: (١٣٢٩)، وصححه النووي في المجموع: (٣/ ٣٩١)، والألباني في صحيح أبي داود: (١٣٢٩).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعظيم آبادي: (٤/ ١٤٧).

﴿وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧]، قال: كَادَ قَلْبِي أَن يَطير»[١].

• **في صلاة التهجد:** وفيها الحديث السابق في قصة أبي بكر وعمر ﵄، وحديث رُفقة الأشعريِّين، **وفيها حديث ابن عباس** ﵄ **أنه قال:** «كانتْ قِراءَةُ النَّبي ﷺ على قدرِ ما يسْمعُهُ مَنْ في الحُجْرَةِ، وهو في البيتِ»[٢].

قال ابن قدامة: «وهو مخيَّر بين الجهر بالقراءة والإسرار بها، إلا أنه إن كان الجهر أنشط له في القراءة أو كان بحضرته من يستمع قراءته أو ينتفع بها فالجهر أفضل، وإن كان قريبًا منه من يتهجَّد أو من يستضر برفع صوته فالإسرار أولى، وإن لم يكن لا هذا ولا هذا فليفعل ما شاء»[٣].

• **القراءة خارج الصلاة: ولها صور:**

ـ في التعلم والتعليم سواء في البيت أو المسجد أو المدرسة فيستحبُّ الجهر، **وعليه يحمل أثر علي** ﵁ **السابق أنه سمع ضجَّة ناس في المسجد يقرؤون القرآن؛ فقال:** «طوبى لهؤلاء؛ كانوا أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ»[٤].

ـ في قراءة الورد اليومي ونحوه؛ فيستحبُّ له الجهر ـ إذا أمن عدم التشويش على مصلٍّ أو نائم أو غيرهما ـ لأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همَّه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه[٥].

---

(١) سبق تخريجه: (ص١٥٦).
(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب: رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، حديث رقم: (١٣٢٧)، وصححه عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى: (٢٨٥).
(٣) المغني: (١/ ٨٠٩).
(٤) سبق تخريجه: (ص١٨٦).
(٥) الأذكار، للنووي: (ص١٦٢).

ـ في جهر النساء بالقرآن بحضرة الرجال الأجانب ـ لغير حاجة من تعلم وتعليم ونحوهما ـ لا يجوز، لما يخشى في ذلك من الفتنة بهنَّ، وقد جاءت الشريعة بسدِّ الذرائع المفضية للحرام[١].

والخلاصة: أن الضابط العام في الأحوال التي يجهر بها ـ ما عدا الصلاة الجهرية ـ هو: الجهر بالقراءة بحيث يُسمع نفسه وأن يزيد على ذلك بحيث يُسمع من بقُربه[٢]، أما إذا خشي الرياء فلا يستحبُّ له أن يُسمع من بقربه، وعليه يحمل قوله ﷺ: **(الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ)**[٣]، ومعلوم أن المسر بالصدقة أفضل[٤]، والله أعلم.



(١) فتاوى اللجنة الدائمة: (٥٤١٣)، (٤/ ١٢٧).

(٢) **ينظر**: الفروع لابن مفلح: (١/ ٤١٠).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه، في فضائل القرآن، حديث رقم: (٢٩١٩)، وقال: حديث حسن غريب، وأخرجه غيره، والحديث حسنه ابن حجر في نتائج الأفكار: (٢/ ١٩)، وابن باز كما في مجموع فتاوى ابن باز: (٢٤/ ٣٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٣١٠٥).

(٤) **ينظر**: مجموع فتاوى ابن باز: (٢٤/ ٣٨٢).

 المطلب السادس 

معرفة الوقف والابتداء

الوقف لغة: الحبس[١]؛ **قال ابن فارس:** «الواو والقاف والفاء: أصل واحد يدل على تمكُّث في شيء، ثم يُقاس عليه»[٢].

ويقصد بالوقف عند علماء التجويد: «قطع الصوت عن الكلمة زمنًا يتنفس فيه عادة، بنيَّة استئناف القراءة لا بنية الإعراض، ويكون في رؤوس الآي وأوساطها، ولا يأتي في وسط الكلمة، ولا فيما اتصل رسمًا»[٣].

أمَّا الابتداء: فهو ضدُّ الوقف وهو أول كل شيء، **وفي عرف القرَّاء:** الشروع بالقراءة بعد قطع أو وقف، ولا يجوز إلا بكلام مستقل في المعنى موفٍ بالمقصود[٤].

وعلم الوقف والابتداء من أجلِّ علوم الكتاب الحكيم؛ لأنه يستعان به على فهم القرآن والغوص على درره وكنوزه، وتتضح به الوقوف التامة، والكافية والحسان، فتظهر للسامع المتأمل والقارئ المتدبر المعاني على أكمل وجوهها وأصحِّها، وأقربها لمأثور التفسير، ومعاني لغة العرب، فإن اعتماد علماء الوقف والابتداء في وضع الوقوف وتفصيلها، وبيان وجوهها، مبنيٌّ على النظر في معاني الآيات، وكلامهم في المعاني، وفي بيان وجوه الوقف، وتفضيل بعضها على بعض - مأخوذ من المنقول والمعقول.

---

(١) التعريفات للجرجاني: (ص٢٧٤). (٢) مقاييس اللغة، مادة: (وقف).
(٣) النشر في القراءات العشر: (١/ ٣٢٢)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي: (١/ ٢٣٣).
(٤) النشر في القراءات العشر: (١/ ٣٢٢).

وهو أيضًا من العلوم التي تفسر بها وجوه المعاني القرآنية؛ إذ المقصود منه بيان مواضع الوقف؛ بحيث يراعي القارئ المعاني، فيقف ويبتدئ على حسَب ما يقتضيه المعنى واللفظ، ولا يكون ذلك إلا بتدبر واهتمام بالمعاني؛ فالنظر في الوقف معين على التدبر[١].

ولقد كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يتعلمون الوقف والابتداء كما يتعلمون كيفية النطق والقراءة؛ **قال الصحابي الجليل عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما: «لقد عِشنا بُرْهَةً من دهرنا، وإن أحدنا ليُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ، فنتعلَّم حلالها، وحرامها، **وما ينبغي أن يوقَف عندَه منها، كما تتعلَّمون أنتم اليوم القرآن،** ولقد رأيت اليوم رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره، **ولا ما ينبغي أن يوقَف عندَه منه، وينثُره نَثْرَ الدَّقَلِ**[٢]»[٣].

واشتهر اعتناء السلف رحمهم الله تعالى بهذا العلم، حتى عدَّ ابن الجزري ذلك متواترًا عنهم[٤]، وكانوا يعتنون بذلك حال الإقراء، واستمروا يتناقلون ذلك العلم مشافهة إلى أن جاء عصر التدوين؛ فدوِّنت في هذا العلم الجليل مصنفات مبكرة، جاء ذكر بعضها في «الفهرست»[٥]،

---

(١) فضل علم الوقف والابتداء وحكم الوقف على رؤوس الآيات، للميموني: (ص٥ ـ ٦).
(٢) بفتح الدال المهملة بعدها قاف مفتوحة؛ **وهو**: رديء التمر ويابسه وما ليس له اسم خاص، وقيل: هو أردأ التمر. النهاية لابن الأثير: (٢/ ١٧٢).
(٣) السنن الكبرى للبيهقي: (٣/ ١٢٠).
(٤) النشر: (١/ ٢٢٥).
(٥) **قال ابن النديم في الفهرست**: (١/ ١/ ٩٢ ـ ٩٣): «الكتب المؤلفة في الوقف والابتداء في القرآن: كتاب الوقف والابتداء عن حمزة، كتاب الوقف والابتداء عن الفراء، كتاب الوقف والابتداء لخلف، كتاب الوقف والابتداء لابن سعدان، كتاب الوقف والابتداء لضرار بن صرد، كتاب الوقف والابتداء لأبي عمر الدوري، كتاب الوقف والابتداء لهشام بن عبد الله، كتاب الوقف والابتداء لأبي عبد الرحمٰن اليزيدي، كتاب الوقف والابتداء لابن الأنباري، كتاب الوقف والابتداء لابن كيسان، كتاب الوقف والابتداء للجعدي، كتاب الوقف والابتداء لأبي أيوب سليمان بن يحيى الضبي».

وللفائدة سأشير إلى بعض المصنفات المطبوعة في هذا الفن، والتي منها:

▪ **كتاب:** «الوقف والابتداء»، لمحمد بن سعدان الضرير المقرئ (ت٢٣١هـ)[١].

▪ **كتاب:** «إيضاح الوقف والابتداء»، لمحمد بن بشَّار بن الأنباري (ت٣٢٨هـ)[٢].

▪ **كتاب:** «القطع والائتناف»، لأحمد بن محمد بن إسماعيل النحَّاس (ت٣٣٨هـ)[٣].

▪ **كتاب:** «المكتفى في الوقف والابتداء»، لأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)[٤].

▪ **كتاب:** «علل الوقوف»، لمحمد بن طيفور السجاوندي (ت٥٦٠هـ)[٥].

▪ **كتاب:** «معالم الاهتداء، في علم الوقف والابتداء»، لمحمود خليل الحصري (ت١٤٠٠هـ)[٦].

▪ **كتاب:** «الوقف والابتداء، عند النحاة والقراء»، للدكتورة خديجة مفتي[٧].

وغيرها الكثير من الكتب التي تدل على عناية العلماء بعلم الوقف والابتداء[٨] واهتمامهم به؛ لمعرفة كيفية أداء القراءة بالوقف على

---

(١) طبع في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في الإمارات عام ١٤٢٣هـ.
(٢) طبع بتحقيق محيي الدين رمضان، وهو من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق.
(٣) طبع في دار الكتب العلمية ١٤٢٣هـ، بتحقيق أحمد فريد المزيدي.
(٤) طبع في مؤسسة الرسالة ببيروت عام ١٤٠٧هـ، بتحقيق الدكتور يوسف المرعشلي.
(٥) طبع في مكتبة الرشد بالرياض عام ١٤١٥هـ، بتحقيق الدكتور محمد العيدي.
(٦) الكتاب مطبوع في مكتبة السُّنَّة بمصر عام ١٤٢٣هـ، وله طبعات أخرى.
(٧) وهي رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة أم القرى.
(٨) **قال المرعشي في جهد المقل: (٢٤٩) وهو يتحدث عن فن الوقف والابتداء:** «وهذا =

المواضع التي نص عليها القراء لإتمام المعاني، والابتداء بمواضع محدودة لا تختل فيها المعاني[(١)]. وفيه إيضاح معاني القرآن العظيم، وتعريف مقاصده، وإظهار فوائده[(٢)].

۞ **فينبغي لمن قرأ القرآن أن يتفهم ما يقرأ**، ويشغل قلبه، ويتفقَّد القطع والائتناف، ويحرص على أن يُفْهِمَ المستمعين في الصلاة وغيرها، وأن يكون وقفه عند كلام مستغن أو شبيه، وأن يكون ابتداؤه حسنًا[(٣)]؛ فيعرف الوقف التام، والوقف الكافي الذي ليس بتام، والوقف القبيح الذي ليس بتام ولا كاف[(٤)]، فكلما كان القارئ عارفًا لهذا الفن ومراعيًا لقواعده كان لفهم المعنى أقدر، ولتدبر الآيات أمثل، **قال الزركشي متحدثًا عن هذا الفن**: «وهو فنٌّ جليل، وبه يُعرف كيف أداء القرآن، ويترتب على ذلك فوائد كثيرة، واستنباطات غزيرة، وبه تتبيَّن معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات»[(٥)].

وللأسف فإن من خَبَرَ أحوال بعض الناس اليوم رأى عجبًا في مخالفة قواعد هذا العلم، فمنهم من يقف وقفًا قبيحًا، ويبتدئ ابتداء أقبح كوقف بعضهم على قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ ويبتدئ: ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ [المائدة: ١٤]. أو يركع عند قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]، وجميع ذلك منهي عنه وينزه عنه كلام الله ﷻ، فلا بد للمتدبر من معرفة الوقف والابتداء؛ فإنه معين على فهم الآيات وتدبرها.

= فن مستقل مغاير لفن التجويد؛ ولكن جرت عادة بعض العلماء بجعل قواعده الكلية جزءًا من كتب التجويد».

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي: (١/ ٣٤٢).

(٢) الإيضاح لابن الأنباري: (١/ ١٠٨)، والتمهيد في علم التجويد: (١٧٧).

(٣) القطع والائتناف: (ص٣٤).

(٤) الإيضاح في الوقف والابتداء: (١/ ١٠٨).

(٥) البرهان في علوم القرآن: (١/ ٤١٥).

 المطلب السابع 

المداومة على قراءة القرآن

الأصل في حال المسلم الذي يريد الفقه في القرآن أن يكثر من تلاوته، وكذلك كان أهل الفقه في القرآن كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

قال النووي: «اعلم أن قراءة القرآن آكد الأذكار كما قدّمنا، فينبغي المداومة عليها، فلا يُخلي عنها يومًا وليلة، ويحصل له أصلُ القراءة بقراءة الآيات القليلة»[١].

ولا بد من الصبر للوصول إلى تلك المراتب، فإن من أكثر من ذكر شيء أحبَّه، فكذلك أول الذكر متكلَّف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له، ثم يمتنع الصبر عنه آخرًا فيصير المُوجَب موجِبًا والثَّمرُ مُثْمِرًا، **وهذا معنى قول بعض السلف**: «كابدتُّ القرآن عشرين سنة ثم تنعَّمت به عشرين سنة»[٢]، ولا يصدر التنعيم إلا من الأنس والحب، ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعًا، فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولًا ويكابد أكله ويواظب عليه؛ فيصير موافقًا لطبعه حتى لا يصبر عنه، فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف.

هِيَ النَّفْسُ مَا عَوَّدْتَهَا تَتَعَوَّدُ[٣]

---

(١) الأذكار: (ص١١٠).
(٢) قاله ثابت البناني رحمه الله. **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (٥/ ٢٢١).
(٣) إحياء علوم الدين: (١/ ٣٠٢).

ومع أن الرسول ﷺ قد قيل له: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] إلا أنه ضرب أروع الأمثلة في مداومته وتعاهده لكتاب ربِّه في صور شتى من حياته ﷺ، بل إنه كان ﷺ يحافظ على ذلك في سفره وحضره وفي جلوسه وركوبه، وقد روى عبد الله بن مُغفَّل رضي الله عنه أنه رأى الرسول ﷺ يوم فتح مكة يقرأ، وهو على ناقته أو جمله وهي تسير به، وهو يقرأ سورة (الفتح) أو من سورة (الفتح) قراءة ليِّنة يقرأ وهو يرجِّع[١].

وعلى هذا سار أصحابه ﷺ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا دخل البيت نشر المصحف فقرأ فيه[٢].

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول لأصحابه: «لو أنَّ قلوبنا طهُرت ما شبِعنا من كلام ربِّنا، وإني لأكره أن يأتيَ عليَّ يوم لا أنظر في المصحف»، وما مات عثمان رضي الله عنه حتى خرَّق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه[٣].

وقيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر رضي الله عنهما في منزله؟ قال: «لا تطيقونه: الوضوء لكل صلاة، والمصحف بينهما»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب الترجيع، حديث رقم: (٤٧٦٠) ورقم: (٤٧٤٧). **قال ابن حجر في فتح الباري:** (٩/ ٩٢): «**والترجيع:** هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله الترديد، وترجيع الصوت: ترديده في الحلق، وقد فسره ـ في حديث آخر ـ بقوله: «أ ا أ بهمزة مفتوحة بعدها ألف ساكنة ثم همزة أخرى» ثم قالوا: يحتمل أمرين: أحدهما أن ذلك حدث من هز الناقة، والآخر أنه أشبع المد في موضعه فحدث ذلك، وهذا الثاني أشبه بالسياق فإن في بعض طرقه: «لولا أن يجتمع الناس لقرأت لكم بذلك اللحن»؛ أي: النغم. وقد ثبت الترجيع في غير هذا الموضع».

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن: (ص١٠٥).

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير: (٧/ ٢١٤).

(٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد: (٤/ ١٧٠).

وكان الحسن بن علي يقرأ ورده من أول الليل، وكان حسينٌ يقرؤه من آخر الليل[(١)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «إني لأقرأ حزبي، أو قالت: سُبعي، وأنا جالسة على فراشي أو سريري»[(٢)].

وكان عثمان رضي الله عنه **يقول**: «إني لأستحي من ربِّي تعالى أن يمرَّ عليَّ يوم لا أنظر في عهد ربِّي»[(٣)].

لقد كان هناك نصيبٌ معتبر للقرآن في يومهم، لدرجة أن بعضهم كان يختمه في ثلاث ليال وبعضهم في سبع، وبعضهم في عشر، مع التدبر والترتيل والتعايش مع الآيات، والذي ساعدهم على المداومة على ذلك هو استشعارهم لقيمة القرآن من ناحية، ولتحذير الرسول ﷺ لهم بعدم الانشغال بغيره، ولذلك كان القرآن يصحبهم في كل وقت، حتى في المعارك.

والذي كان يسير في طرقات المدينة ليلًا فلن تخطئ أذناه آيات القرآن وهي تنساب من كل بيت، فالجميع يقرأ ويترنَّم ويبكي، ويستشعر حلاوة الإيمان، ولذَّة الوصال، فيدفعه ذلك إلى مزيد من القراءة بتدبر وترتيل...

يستوي في ذلك الرجال والنساء، ولقد مرَّ بنا قوله ﷺ: **(إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ)**[(٤)].

---

(١) فضائل القرآن، للمستغفري: (١/ ٤٢١).
(٢) فضائل القرآن، للمستغفري: (١/ ٤٢١).
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (٢٠٣٣).
(٤) سبق تخريجه: (ص١٨٦).

فلا عجب إذن أن تظهر هذه النماذج الفريدة، وبهذه الأعداد الكبيرة، فالمدرسة واحدة، والمنهج واحد، واليَنبوع صافٍ فياض لا ينضُب[١].

۞ **وهٰهنا مسألة متعلقة بهذا المبحث؛ وهي: كيفية تحزيب الصحابة ﷺ للقرآن، وكيف كان تقسيمهم له؟**

وقد أجاب عن هذه المسألة ابن تيمية ﷺ حيث أوضح أن الصحابة كانوا يحزِّبونه سورًا تامَّة، لا يحزبون السورة الواحدة، **وقد استدل بحديث أوس بن حذيفة الثقفي[٢] حين قال:** «سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاثٌ، وخمسٌ، وسبعٌ، وتسعٌ، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزبُ المفصَّل وحدَه»[٣].

فلم يكونوا يحزّبون القرآن بحسب عددِ الأجزاءِ وأحزابها المعروفةِ في المصاحفِ الآن ـ فإن هذه وُضعتْ في زمن الحجاج بن يوسف بحسب عدِّ الآي والحروف ونحوها؛ فيجعلون الحزب قدرًا متسقًا من الحروف، دون النظر إلى مطالع السور وخواتيمها، أو الاعتبار للمعاني وتمامها ـ وأمّا الصحابةُ فإنهم كانوا يحزّبون القرآن بحسب السور التامة، وهو ما يكونُ أعونَ على تدبّر كلام اللهِ تعالى، إذ تتضمّن السورُ المعاني

---

(١) **ينظر**: تحقيق الوصال بين القلب والقرآن، الهلالي: (ص٤٧ ـ ٤٨).

(٢) أوْسُ بنُ حذيفة بن ربيعةَ بن أبي سلَمة الثقفي، وهو أوس بن أبي أوس ﷺ قدم في وفد ثقيف على رسول الله ﷺ، وروى له: أبو داود، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، وصح من طريقه أحاديث. قال محمد بن عمر: مات أوس بن حذيفة ليالي الحَرَّة. وقال أبو نعيم: تُوفي أوس بن حذيفة سنة (٥٩هـ). **ينظر**: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: (١/٢٠٩)، والإصابة في تمييز الصحابة: (١/٢٩٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند حديث رقم: (١٦١٦٦)، وابن ماجه في سننه، في كتاب: إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها، باب: في كم يستحب يختم القرآن، حديث رقم: (١٣٤٥)، وحسنه ابن كثير في فضائل القرآن: (ص١٤٨).

متصلة تامّةً؛ فيستوفي القارئ للسور النظرَ في مجموع الآيات الواردة ويُحكمُ تدبّرها وفهمها، دون أن ينقطع المعنى أو يقفَ على كلامٍ يتصلُ بما بعدهُ، فيفتتحون القراءة بما فتح الله به السور من المطالع العظيمة التي تأخذ بمجامع القلوب فتزلزلها هيبة وخضوعًا، ويختتمون بما ختم به من الخواتيم المحرّكة للأرواح(١).

وإذا عرضنا للتحزيبِ المسبّع بحسب طريقة الصحابة، التي أوردها أوس بن حذيفة رضي الله عنه في حديثِهِ، وهي أيضًا طريقة أكثر السلف، كما نقل ذلك عنهم النووي(٢)، **فسيكون كالجدول الآتي**:

اليوم	عدد السور	أسماء السور
الأول	٣	البقرة وآل عمران والنساء
الثاني	٥	المائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة
الثالث	٧	يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل
الرابع	٩	الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان
الخامس	١١	الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس
السادس	١٣	الصافات وص والزمر وغافر وفصّلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف ومحمد والفتح والحجرات
السابع	٦٥	وهي المفصّل: من سورة ق إلى آخر المصحف الشريف

(١) **ينظر**: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ٤٠٥)، ومقالة: أحزاب القرآن لماجد البلوشي على الشبكة العنكبوتية.

(٢) **ينظر**: التبيان في آداب حملة القرآن: (ص٦١).

إنَّ المتأمل لهذا التحزيب ليجد أنه قد جمع بين النظائر على نسقٍ، فلم يفصل بين الأنفال والتوبة، وهما كالسورة الواحدة، وجمع بين السور المفتتحة بالحروف المقطعة المختتمة بالرَّاء، ولا فصل بين العتاق الأول (الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء)، وجمع بين الطواسين (الشعراء والنمل والقصص)، وذوات ﴿الٓمٓ﴾ (العنكبوت والروم ولقمان والسجدة)، ولم يفصل بين الحواميم السبع، وجعل المفصل على حدة، ثمَّ هو فوق ذلك مقسّم في أعداده أحسن تقسيم بطريقة لا كلفة لمعرفتها وترتيبها على الأوتار: ثلاث، وخمس، وسبع... إلخ[1].



(١) **ينظر كتاب**: تحزيب القرآن، للدكتور: عبد العزيز الحربي: (ص١٠٨ ـ ١٠٩).

 المَطْلَبُ الثَّامِنُ 

فهم معاني الآيات

ويشتمل على مسائل(١):

إن تدبر الكلام بدون فهم معانيه ممتنعٌ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام مفيد المقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك، والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؟! فهو النور الذي أنزله الله ليُستضاء به، ويُهتدى بهداه، ويُعمل به: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩](٢).

وفي هذا المطلب جملة من المسائل المهمة التي ينبغي للمتدبر أن يراعيها في منهاجه وسيره مع كتاب الله ﷻ، وقد انتظمت في المسائل الآتية:

---

(١) **ينظر كتاب**: «المراحل الثمان، لطالب فهم القرآن»، د. عصام بن صالح العويد نشره: مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، الطبعة الأولى.

(٢) **ينظر**: مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٣/ ٣٣٢).

المَسْأَلَةُ الأُولَىٰ

فهم الآيات بالمأثور عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والسلف الصالح

وهذه الطريقة تحتاج إلى تفريعات كثيرة، وتفصيلات طويلة[1]، لكن حسبنا أن يدرك فيها المتدبر المسائل الآتية:

أولًا: ليُعْلَم أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤][2]، **وقد قال أبو عبد الرحمٰن**

---

(١) قال الدكتور مساعد الطيار في شرحه لمقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية: (ص٢٨٥): «وهذا الطريق: تفسير القرآن بالسُّنَّة يحتاج إلى دراسة علمية تجلي كنوزه، وهو موضوع فيه طول وتفريعات كثيرة، ولم تَفِ بها البحوث المعاصرة ـ فيما رأيت ـ والله أعلم».

(٢) المقصود هنا بيان جميع المستشكل لا جميع الكلمات والألفاظ؛ وهو الذي قاله الجمهور، حكى ذلك السيوطي في الإتقان، وكذلك البقاعي في تفسيره: نظم الدرر في تناسب الآي والسُّوَر: (١١/ ١٦٨)، وغيرهما. يدل على ذلك تفسير مجاهد لقول الله ﷻ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، كما أورده الطبري في تفسيره بأنه: «بيانٌ لما أُجمل واستشكل»، **قال ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره:** (١/ ٨٧ ـ ٨٨): «من تأويل القرآن ما لا يُدرك علمُه إلا ببيان الرسول ﷺ؛ وذلك تفصيل جُمَلٍ ما في آيه من أمر الله ونَهْيه وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وسائر معاني شرائع دينه، الذي هو مجمَلٌ في ظاهر التنزيل، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة.. وذلك هو المعنى الذي أمره الله ببيانه لهم فقال له جلَّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]».

فرجع البيان حينئذٍ إلى شيئين: إلى المستشكل، وإلى المجمل. **يوضح ذلك أيضًا أثر ابن عباس المشهور الذي أخرجه الطبري في تفسيره**: (١/ ٧٥) **قال**: «حدثنا محمد بن بشّار، قال: حدثنا مؤمَّل، قال: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، قال: قال ابن عباس: التفسيرُ على أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لَا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لَا يعلمه إلا الله تعالى». فدل على أن الرسول ﷺ بين القسم الذي يحتاج إلى بيان وما احتاجت الأمة إلى بيانه، وعلى هذا =

السُّلمي: «حدَّثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن؛ كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يُجاوزوها حتى يتعلَّموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلَّمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»؛ «ولهذا كانوا يبقون مدَّة في حفظ السورة؛ كما ذُكر عن عمر وابنه عبد الله، وغيرهما»[(١)].

فحياته ﷺ من مبعثه إلى وفاته كانت تبيانًا لهذا القرآن؛ شملت قوله وفعله وإقراره وخُلقه وحُكمه، فقد بلَّغ ﷺ ما أنزل إليه من ربه من ألفاظ ومعانٍ بلاغًا مبينًا حصل به العلم اليقيني، وأقام الحجة، وقطع المعذرة، وأوجب العلم وبيَّنه أحسن بيان وأوضحه[(٢)]. **يشير الشاطبي في «الموافقات» إلى ذلك بقوله**: «السُّنَّة إنما جاءت مبينة للكتاب وشارحة لمعانيه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وذلك التبليغ من وجهين: تبليغ الرسالة، وهو الكتاب. وبيان معانيه. وكذلك فعل ﷺ [وجزاه عنا أفضل الجزاء بمنه وفضله]؛ فأنت إذا تأملت موارد السُّنَّة وجدتَّها بيانًا للكتاب، هذا هو الأمر العام فيها»[(٣)].

وجامع البيان في هذه المسألة: أن يعلم المتدبر أن من تأويل القرآن

= يحمل كلام الإمام ابن تيمية رحمه الله في مقدمة في أصول التفسير الذي أشكل على بعضهم؛ **يؤيده نص ابن تيمية في موضع آخر الذي يقول فيه**: «وقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؛ وأول النزاع: النزاع في معاني القرآن، فإن لم يكن الرسول عالمًا بمعانيه امتنع الرد إليه. وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السُّنَّة تفسِّر القرآن وتبيِّنه وتدلُّ عليه، **وتعبِّر عن مجمله، وأنها تفسر مجمل القرآن من الأمر والخبر**». مجموع الفتاوى: (١٧/ ٤٣١ ـ ٤٣٢).

(١) مجموع الفتاوى: (١٣/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، **وينظر في تخريج الأثر**: (ص١٢٥).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة: (ص٤٥٤).

(٣) **ينظر**: الموافقات في أصول الفقه: (٣/ ٢٣٠).

ما لا يُدرك علمُه إلا ببيان الرسول ﷺ؛ كما يقوله شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله تعالى[١]؛ فيحسن للمتدبر معرفة ذلك والاطلاع عليه.

ثانيًا: أن على المتدبر أن يبحث في مصادر التفسير الموثوقة عن البيان النبوي للآيات؛ فإن لم يجد ذلك فلينتقل إلى تفسير كبار الصحابة ومن بعدهم ممن اشتهر بالتفسير، ثم إذا لم يجد ذلك ينتقل إلى كبار التابعين الذين أخذوا التفسير عن صحابة رسول الله ﷺ، **يقسم هذه الدرجات الإمام ابن تيمية بقوله**:

«عليك بالسُّنَّة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]... والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السُّنَّة.

وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنَّة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصُّوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح؛ لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين: كابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما.

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السُّنَّة، ولا وجدتَّه عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين: كمجاهد بن جبر؛ فإنه كان آية في التفسير، وكسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المُسَيَّب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مُزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتُذكر

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٧٤).

أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافًا، فيحكيها أقوالًا، وليس كذلك؛ فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادي»[1].



(١) **ينظر**: مجموع الفتاوى: (١٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦).

المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ

معرفة أسباب النزول وتصورها في أثناء القراءة

معرفة أسباب نزول القرآن من الأسباب التي لا يستغني عنها المتدبّر لكلام الله تعالى، وفيها من الفوائد شيء عظيم، إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها؛ لامتناع معرفة تفسير الآية، وقصد سبيلها؛ دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها(١).

ومن فوائد معرفة أسباب النزول واستشعارها في أثناء قراءة المتدبر كتاب الله ما يلي(٢):

الفائدة الأولى: أن معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية:

فبيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن(٣)، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: «ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبَّب، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء: أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رُجع إلى سبب يمينه، وما هيَّجها وأثارها»(٤).

وقال الشاطبي: «معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن. . .»(٥).

ومن أمثلة الآيات التي كان لسبب النزول أثر في فهم معناها ما يلي:

١ ـ ما أخرجه البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

---

(١) **ينظر**: أسباب النزول، للواحدي: (ص٨).

(٢) **ينظر**: المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية.

(٣) **ينظر**: البرهان، للزركشي: (١/ ٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٣/ ٣٣٩).

(٥) الموافقات: (٤/ ١٤٦).

«نزلت هذه الآية فينا: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٨٩]، كانت الأنصار إذا حجُّوا فجاؤوا، لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قِبَل بابه، فكأنه عُيِّر بذلك؛ فنزلت الآية»[١]. فسبب النزول بيَّن أن المراد بالإتيان هو الدخول وليس مجرد المجيء، كما أفاد أن المراد بالبيوت بيوتهم وليست بيوتَ غيرهم، ولولا وجود سبب النزول ما تبين هذان المعنيان من لفظ الآية المجرد.

٢ ـ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رضي الله عنها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] **قالت:** «هي اليتيمة في حجر وليِّها فيرغب في جمالها، ومالها، ويريد أن يتزوجها بأدنى من سُنَّة نسائها؛ فنُهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصَّداق، وأمروا بنكاح من سواهن من النساء»[٢]. فسبب النزول هنا بيَّن الصلة في الآية بين الأمر بالقسط في اليتامى، وبين نكاح ما طاب من النساء، ولولا وجود السبب لم تتبين الصلة.

الفائدة الثانية: أن العلم بسبب النزول يرفع الإشكال، ويحسم النزاع:

قال الشاطبي: «إن الجهل بأسباب التنزيل مُوقِع في الشُّبه والإشكالات، ومُورِد للنصوص الظاهِرةِ مَورِدَ الإجمال؛ حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع... بحيث لو فُقد ذكر السبب، لم يُعرف من المنزل معناه على الخصوص دون تطرُّق الاحتمالات، وتوجُّه الإشكالات»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٨٩]، حديث رقم: (١٨٠٣).

(٢) أخرجه البخاري كتاب: التفسير، باب: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، حديث رقم: (٢٧٦٣).

(٣) الموافقات: (٤/١٤٦).

ومن آيات القرآن التي كان لسبب النزول أثر في دفع الإشكال عنها ما يلي:

١ ـ **عن عروة بن الزبير قال:** «قلت لعائشة رضي الله عنها: أرأيت قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] فلا أَرى على أحد شيئًا أن لا يطَّوَّف بهما؟ فقالت عائشة: كلا، لو كانت كما تقول، كانت: فلا جناح عليه أن لا يطَّوَّف بهما! إنما أُنزلت هذه الآية في الأنصار؛ كانوا يُهلُّون لمَناة، وكانت مَناةُ حَذْوَ قُديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾»[1].

فسبب النزول هنا دفع الإشكال الذي وقع في نفس عروة، حين ظن أن السعي بين الصفا والمروة ليس واجبًا، فبينت له أم المؤمنين رضي الله عنها أن الآية إنما أُنزلت لرفع الحرج عمن امتنع من السعي بينهما، بسبب ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، والله أعلم.

٢ ـ **قال الشاطبي:** «وروي أن عمر استعمل قُدامة بن مَظْعُون على البحرين، فقدم الجارود على عمر، فقال: إن قدامة شرب فسكر. فقال عمر: من يشهد على ما تقول؟ قال الجارود: أبو هريرة يشهد على ما أقول، وذكر الحديث، فقال عمر: يا قدامة إني جالدك، قال: والله لو شربتُ كما يقولون ما كان لك أن تجلدني، قال عمر: ولم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب يفعل في العمرة ما يفعل في الحج، حديث رقم: (١٧٩٠).

فقال عمر: إنك أخطأت التأويل يا قدامة؛ إذا اتقيتَ الله اجتنبتَ ما حرَّم الله، وفي رواية فقال: لم تجلدني؟ بيني وبينك كتاب الله. فقال عمر: وأيَّ كتاب الله تجد أن لا أجلدك؟ قال: إن الله يقول في كتابه: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]؛ فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا؛ شهدتُّ مع رسول الله ﷺ بدرًا، وأُحدًا، والخندق، والمشاهد، فقال عمر: ألا تردُّون عليه قوله؟ فقال ابن عبَّاسٍ: إن هؤلاء الآيات أُنزلن عذرًا للماضين، وحجةً على الباقين؛ فعذر الماضين بأنهم لقوا الله قبل أن تحرَّم عليهم الخمر، وحجةً على الباقين لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠] ثم قرأ إلى آخر الآية الأخرى، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، فإن الله قد نهى أن يُشرب الخمر. قال عمر: صدقت»[١].

فقدامة بن مظعون رضي الله عنه لما جهل سبب نزول الآية استدل بها على جواز شرب الخمر فوقع في الإشكال، والصحابة رضي الله عنهم لعلمهم بسبب النزول أبطلوا استدلاله بالآية على شرب الخمر.

الفائدة الثالثة: أن معرفة سبب النزول تُبيِّن الحكمة الداعية إلى تشريع الحكم:

قال الزركشي: «وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته ـ يعني: العلم بأسباب النزول ـ لجريانه مجرى التاريخ. وليس كذلك؛ بل له فوائد؛ منها: وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم»[٢].

---

(١) الموافقات: (٤/ ١٥٠)، والأثر أخرجه عبد الرزاق في مصنفه: (١٧٠٧٦)، والبيهقي في السنن الكبرى: (١٧٥١٦) وغيرهما، وصححه ابن العربي في أحكام القرآن: (٢/ ١٧٨)، وابن حجر في الفتح: (١٣/ ١٥١).

(٢) البرهان: (١/ ٢٢).

وقال الزرقاني مبينًا فائدة العلم بحكمة التشريع: «وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن: أما المؤمن فيزداد إيمانًا على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله، والعمل بكتابه؛ لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نِيطَت بهذه الأحكام، ومن أجلها جاء هذا التنزيل، وأما الكافر فتسوقه تلك الحِكَم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفًا؛ حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان، لا على الاستبداد، والتحكم، والطغيان؛ خصوصًا إذا لاحظ سيرَ ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد. وحسبك شاهدًا على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه»(١).

ومن الأمثلة التي يبيِّن فيها السببُ الحكمةَ الداعيةَ إلى تشريع الأحكام ما يلي:

١ ـ عن ابن عبَّاسٍ ﵄ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] **قال:** «نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبُّوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به؛ فقال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾؛ **أي:** بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسمِعهم، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]»(٢).

فالآية خلت من ذكر الحكمة الداعية إلى التشريع، بينما السبب نص عليها؛ وهي كفُّ المشركين عن سبِّ القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به.

إن المتدبر حين يطلع على سبب نزول الآية فسوف يدرك من خلاله حِكَم التّشريع، ويعرف مقاصد الشّريعة، وكيف أنّ الأحكام الشّرعيّة كانت تأتي مناسبة للواقع، ومسايرة للحدث، ومحقّقة ومستوفية حاجة المكلَّف.

---

(١) مناهل العرفان: (١/ ١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، حديث رقم: (٤٧٢٢).

المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ

إدراك المعنى اللُّغوي للكلمات(١)

لا يخفى على ذي لُبٍّ ما للغةِ العربية من أهمية عظمى؛ في كونها لغة القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة، وكونها جزءًا من ديننا، بل لا يمكنُ أن يقوم الإسلام إلا بها، ولا يصح أن يقرأ المسلم القرآن إلا بالعربية، وقراءة القرآن ركنٌ من أركان الصلاة، التي هي ركن من أركان الإسلام.

ومما يدلُّ أيضًا على أهمية اللغة العربية في فهم الكتاب العزيز حرصُ العلماء في العصور المتقدمة على التأليف في إعراب القرآن ومعانيه؛ لأن اللغة العربية هي الوسيلةُ إلى الوصول إلى أسرار الكتاب والسُّنَّة، وفهم دقائقهما، وارتباط اللغة العربية بهذا الكتاب المُنَزَّل المحفوظ جعلها محفوظة ما دام محفوظًا، وقد كان سببًا في بقائها وانتشارها، ولهذا السبب عُني السَّلفُ بعلوم اللغة العربية، وحثُّوا على تعلمِها، والنَّهل من عُبابها، **فقد كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري** رضي الله عنهما: «أمَّا بعد، فتفقَّهوا في السُّنَّةِ، وتفقَّهوا في العربية، وأَعْرِبُوا القرآن؛ فإنه عربي»(٢).

وبيَّن شيخُ الإسلام سبب قول عمر رضي الله عنه: **«تفقَّهوا في السُّنَّةِ، وتفقَّهوا في العربية»؛ حيث قال**: «لأنَّ الدِّينَ فيه فقهُ أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريقُ إلى فقه الأقوال، وفقه الشريعة هو الطريقُ إلى فقه الأعمال»(٣).

---

(١) **ينظر**: أهمية اللغة العربية ومميزاتها، صادق الهادي، مقال مميز منشور على شبكة الألوكة.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: (٢٩٩١).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: (١/ ٤٢٥).

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «كنتُ لا أدري ما: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر؛ فقال أحدهما: أنا فطرتُها؛ **يعني**: ابتدأتها»[١]، **وقال**: «إذا خَفِيَ عليكم شيءٌ من القرآنِ، فابتغوه في الشِّعرِ؛ فإنَّه ديوانُ العرب»[٢].

وقال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة: «لا بُدَّ في تفسيرِ القرآن والحديث من أن يُعرَف ما يدلُّ على مرادِ الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يُفهَم كلامُه؟ فمعرفةُ العربيةِ التي خُوطبنا بها ممَّا يُعين على أن نفقه مرادَ اللهِ ورسولِه بكلامِه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظِ على المعاني؛ فإنَّ عامَّة ضلالِ أهل البدع كان بهذا السبب، فإنَّهم صاروا يحملون كلامَ اللهِ ورسولِه على ما يَدَّعون أنَّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك»[٣].

فالمتدبر إذا أدرك المعنى اللُّغوي جيدًا ازداد تدبرًا وخشوعًا؛ وههنا مثال يسير يُبين ذلك:

حين يقرأ المتدبر قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦] قد يشكل عليه معنى ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾، فحين يرجع إلى كتب اللغة ويدرك أن المقصود بالانْتِبَاذ هنا: التَّنَحِّي، والاعْتِزَالُ الشديد، يقال: انْتَبَذَ عن قَوْمِهِ؛ إذا تَنَحَّى، وانْتَبَذَ فُلانٌ إلى ناحِيَةٍ؛ أَي: تَنَحَّى نَاحِيَةً؛ وكأن أهلها وعشيرتها شيء منبوذ غير مرغوب فيه بالنسبة لها؛ فاعتزلتهم وتنحَّت عنهم بعيدًا[٤]. حينها يتلذذ ببلاغة القرآن وعظمة معانيه، ثم تصبح له سجية بعد ذلك ودافعة تدفعه لمعرفة المزيد من المعاني والمدلولات.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره: (٩/ ١٧٥)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن: (ص٣٤٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم: (٣٨٤٥).

(٣) الإيمان: (ص١١١).

(٤) **ينظر**: تاج العروس: (٩/ ٤٨٢)، وتهذيب اللغة: (١٤/ ٣١٧).

المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ

معرفة دلالة الجملة وما يتعلق بها

الجمل لها أثر في إدراك أكمل المعاني، ومعرفة أتم أوجه التفسير عند الكلام على تفسير كتاب الله ﷻ؛ فلذلك يحسن بالمتدبر أن يكون عارفًا بدلالات الجمل من جهة علم البلاغة، وبالأخص علم المعاني. والجمل في لغة العرب تنقسم باعتبارات كثيرة؛ ومما يعين على فهم القرآن وفهم كلام أئمة السلف في التفسير معرفة ما له علاقة بعلم التفسير: كدلالة الجملة الاسمية والفعلية، ودلالة التقديم والتأخير في الجملة، ونحوهما[1].

وهذه الطريقة التدبرية بديعة جدًّا وفيها من البلاغة والحسن ما يجعل المتدبر يفَتِّش عنها ويستملحها، **وهٰهنا أنموذجان في هذه المسألة ليستفيد منهما المتدبر، ومن ثَمَّ يقيس عليهما:**

الأنموذج الأول: حول دلالة الجملة الاسمية والفعلية:

والجملة الاسمية في علم البلاغة: تدل غالبًا على الدوام والثبوت دون تقييد بزمن. **والفعلية**: تدل غالبًا على التجدد والحدوث لتقييده بالزمن، مثال ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] جيء بالجملة الاسمية ـ والله أعلم ـ لإفادة أن الله ﷻ مستحق للحمد استحقاقًا دائمًا ثابتًا له ﷻ، لا ينفكُّ عنه بوجه من الوجوه. ومثل قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١] جيء بالجملة الفعلية: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لدلالة الفعلية على تجدد الخوض وكثرة الولوغ فيه[2].

---

(١) **ينظر**: المراحل الثمان، لطالب فهم القرآن: (ص٧٩) وما بعدها.

(٢) المرجع نفسه: (ص٨٠ ـ ٨١).

ومثال ثالث تضمن الجملتين أشار إليه الإمام ابن القيِّم، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ حيث إنها تضمنت مدحًا لأبينا إبراهيم، حيث ردَّ عليهم السلام أحسن مما حيَّوه به؛ فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلَّمنا عليك سلامًا. وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره: سلامٌ دائمٌ أو ثابتٌ أو مستقرٌّ عليكم، **ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم. والفعلية تقتضي التجدد والحدوث؛ فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن**[١].

الأنموذج الثاني: حول دلالة التقديم والتأخير في الجملة:

فمن أهم المباحث التى شغلت البلاغيين قديمًا وحديثًا: مبحث «التقديم والتأخير»، وربما كان سبب اهتمامهم هذا يرجع إلى أنه سبب من أسباب الإعجاز القرآني.

فإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض، فقد التُزِم في جُمل القرآن أن يكون هذا التقديم مشيرًا إلى مغزى دالًّا على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها، تابعة لمنهج يتقدم عنده ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيقدم مثلًا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحورَ الذى يدور حولَه الحديث وحدَه، فيكون هو المقصود والمعنيَّ، والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنَه، فلا جَرَمَ أن يتقدم في الجملة، كما تقدم في النفس[٢].

وباب التقديم والتأخير باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطُف لديك موقعه، ثم تنظر؛ فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك، أن قدِّم فيه شيء، وحوِّل

---

(١) **ينظر**: الرسالة التبوكية، ابن القيِّم: (ص٦٦).

(٢) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي: (ص١١٢).

اللفظ عن مكان إلى مكان[١].

يقول سيبويه في كتابه: «وهو عربيٌّ جيِّد كثير؛ كأنهم إنما يقدِّمون الذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يُهِمَّانِهم ويَعْنِيانهم»[٢].

ومن فوائد التقديم والتأخير أيضًا: بيان الأهم، وإفادة الاختصاص والحصر، والتنبيه على السببية، فمن المفيد أن ينتبه لها المتدبر ويفتش عنها، **وهنا أمثلة تساعد على فهم ذلك**[٣]:

▪ **بيان الأهم:** قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]؛ **يوضح ذلك الإمام ابن القيِّم بقوله:** «وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قُدِّم وتأخير ما أُخِّر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته؛ فبدأ أولًا بذكر أصول العبد وهم آباؤه المتقدمون طبعًا وشرفًا ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم وحتى عن أبنائهم، ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة ويرغبون عن دينهم؛ لما في ذلك من إزرائهم بهم. ثم ذكر الفروع وهم الأبناء، لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة، ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب؛ فذكر الأصول أولًا، ثم الفروع ثانيًا، ثم

---

(١) دلائل الإعجاز، للجرجاني: (ص١٠٦).
(٢) الكتاب: (١/ ٣٤).
(٣) **ينظر**: المراحل الثمان، لطالب فهم القرآن: (ص٨٣) وما بعدها.

النظراء ثالثًا، ثم الأزواج رابعًا؛ لأن الزوجة أجنبية عنده ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها...»[١].

■ **إفادة الاختصاص أو الحصر:** قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ **يوضح ذلك السيوطي بذكر هذا المثال وذكر غيره بقوله:** «كاد أهل البيان يطبقون على أن تقديم المعمول يفيد الحصر سواء كان مفعولًا أو ظرفًا أو مجرورًا؛ ولهذا قيل في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: **معناه:** (نخصُّك بالعبادة والاستعانة)، وفي ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]؛ **معناه:** (إليه لا إلى غيره)، وفي ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أُخِّرت الصِّلة في الشهادة الأولى وقُدِّمت في الثانية؛ لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم، وفي الثاني إثبات اختصاصهم بشهادة النبي ﷺ عليهم»[٢].

■ **التنبيه على السببية:** قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]؛ لأن زنى البصر داع إلى زنى الفرج، وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ فإن التوبة سبب الطهارة[٣].



---

(١) بدائع الفوائد: (١/ ١٣٢).
(٢) الإتقان في علوم القرآن: (٢/ ١٤٠).
(٣) المراحل الثمان، لطالب فهم القرآن: (ص٨٥).

المَسْأَلَةُ الخَامِسَة

العناية بسياقة الآيات[١]

وهذه مسألة مهمة ينبغي للمتدبر أن يراعيها؛ فلا ينظر في الكلمة أو الجملة مستقلة بنفسها، بل عليه أن ينظر إليها في سياق النص القرآني؛ فإن ذلك معين على تحديد المعنى المراد لا سيما إذا كان للكلمة أو الجملة أكثر من معنى. **قال مسلم بن يسار**[٢]: «إذا حدثت عن الله حديثًا فقف، حتى تنظر ما قبلَه وما بعدَه»[٣].

وبمراعاة هذه المسألة رجَّح كثير من المفسرين بعض الأقوال وضعَّفوا غيرها؛ كابن جرير، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيمية، وابن كثير، والزركشي كما في «البرهان»، وكذلك الألوسي، والشوكاني، وغيرهم من المفسرين.

قال ابن جرير في تفسيره: «قد زعم بعض الزاعمين أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ **يعني به**: الشياطين، وأن قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ **يعني به**: الناس. وذلك قولٌ لجميع أهل التأويل مخالف؛ وذلك أنهم مجمعون على أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾، معني به اليهود دون الشياطين: ثم هو ـ مع ذلك ـ خلاف ما دلَّ عليه التنزيل؛ لأن الآيات

---

(١) المراحل الثمان، لطالب فهم القرآن: (ص٩١)، وما بعدها.

(٢) أبو عبد الله البصري الفقيه الزاهد، روى عن عبادة وابن عباس، وعنه ابن سيرين وقتادة وأيوب، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز عام (١٠٠هـ) وقيل: (١٠١هـ). **ينظر**: الطبقات الكبرى لابن سعد: (١٣٨/٧)، وحلية الأولياء: (٢/ ٢٩٠).

(٣) فضائل القرآن، للقاسم بن سلام: (ص٣٧٧)، ومصنف ابن أبي شيبة: (١٤/ ٢٥).

قبل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾، وبعد قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، جاءت من الله بذمٍّ اليهود وتوبيخهم على ضلالهم، وذمًّا لهم على نبذهم وحيَ الله وآيات كتابه وراء ظهورهم، مع علمهم بخطأ فعلهم. فقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾، أحد تلك الأخبار عنهم»[1].

ومن الأمثلة على هذه المسألة: «قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

قيَّد السلف المعية المذكورة في هذه الآيات ونحوها بأنها معية العلم، فقال ابن عباس ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾: عالم بكم أينما كنتم. وعن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال: علمه. وهذا كثير عنهم[2].

والحجة في ذلك دلالة السياق، والسياق إنما هو في العلم، قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم[3]، وسُئل رحمه الله عن رجل قال: إن الله معنا، وتلا قوله تعالى: ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فقال: يأخذون بآخر الآية ويدعون أولها، هلّا قرأ عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾؟ فعِلمُه معهم[4].

والآية بتمامها هي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

---

(١) تفسير الطبري: (٢/ ٤٥٦).
(٢) الدر المنثور: (٨/ ٤٩).
(٣) تفسير ابن كثير: (٨/ ٧٣).
(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية: (٢/ ٢٠٠).

وكذا قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. فافتتاحها وختامها بالعلم»[(١)].

ومن الأمثلة أيضًا: قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١].

قال السعدي: «قيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربِّه ليلة الإسراء وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله؛ فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربِّه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام كما يدل عليه السياق، وأن محمدًا ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين؛ مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]؛ **أي:** رأى محمد جبريل مرة أخرى نازلًا إليه[(٢)]».

يقول ابن القيِّم: «فائدة: إرشادات السياق: السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غَالَطَ في نظره، وغَالَطَ في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير؟»[(٣)].

المقصود: أن دلالة السياق لها أهمية كبيرة في فهم القول الصحيح لدى المتدبر؛ فهي إما أنها تخصِّص العام أو تقيِّد المطلق، أو تطلق المقيد أو تعمِّم الخاص، أو ترجِّح عند اختلاف المفسرين، والأمثلة في هذا أكثر من أن تحصى، ولو أن طالب علم تفرغ لها لجمع منها خيرًا كثيرًا[(٤)].

---

(١) المراحل الثمان، لطالب فهم القرآن: (ص٩٢ ـ ٩٣).
(٢) تفسير السعدي: (ص٩٦٦). (٣) بدائع الفوائد: (٤/ ٩).
(٤) المراحل الثمان، لطالب فهم القرآن: (ص٩٢).

المَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ

معرفة مقاصد السور وغاياتها[(١)]

وفيها مسائل:

الأولى: ماهيته وأهميته:

المقصود في هذه المسألة: أن يعرف المتدبر المعنى العام الذي أنزلت السورة من أجله، أو الموضوعَ الذي تدور عليه آياتُ سورةٍ ما؛ فإن ذلك دافع جدًّا لتدبر كتاب الله ﷻ، وهو فن نشأ جمعه متأخرًا؛ عن طريق الاستقراء والتتبع لطريقة الأئمة في تفسير كتاب الله[(٢)].

قال في «نظم الدرر»: «الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القُرب والبُعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل؛ بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبيَّن لك إن شاء الله وجه النظم مفصلًا بين كل آية وآية في كل سورة وسورة، والله الهادي»[(٣)].

---

(١) **ينظر**: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، والمراحل الثمان، د. عصام العويد: (ص١١٣)، ومقاصد السور وأثره في فهم التفسير، للشيخ صالح آل الشيخ، وهي محاضرة مفرغة في المكتبة الشاملة.

(٢) **ينظر**: مقاصد السور وأثره في فهم التفسير.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي: (١/ ١١).

الثانية: ضوابطه وحدوده:

الأغلب في سور القرآن أن لها وحدة موضوعية تدور عليها، وكذلك الآيات، فالآية في الأعم الأغلب تكون متصلة بما قبلها وما بعدها، ولا يلزم أن يكون ذلك في كل آية وكل سورة، ولو كان؛ فالوقوف عليه في كل آية وسورة متعذر. **لكن لا بد لمن أراد أن يستخرج ذلك من أمرين:**

الأمر الأول: أن يكتفي بما ظهر له من الموضوع وتناسب الآيات من دون تكلف ولا تنطع؛ لأن التكلف فيه قد يُفضي إلى القول في المسألة بلا علم والاجتهاد فيما لا طائل منه[1].

الأمر الثاني: أن يكون المشتغل بهذه المسالك عالمًا بأقوال السلف في تفسير الآيات والسور التي يريد أن يستنبط لها مناسبة أو موضوعًا معينًا، وأن يكون مطلعًا عارفًا بعلوم البلاغة خصوصًا: علمي «المعاني والبيان». فمن تأمل كلام السلف في التفسير وجد أنهم يعتبرون بمقاصد السور، ولذا قد لا يفهم المرء وجه تفسير السلف حتى يربط بين كلامهم وبين مقصود السورة التي أنزلت من أجله، بل إنهم نصّوا على عدد من مقاصد السور صراحة.

ومراعاة هذه الضوابط هو صنيع جماعة من المحققين من أهل العلم: كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيِّم، واستعمله الرازي في تفسيره، والطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، وغيرهم كما سيأتي في الأمثلة.

---

(١) على خلاف ما جرى من البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» الذي طبع في (٨) مجلدات، طبعته: دار الكتب العلمية في بيروت، وطبع في الهند قبل ذلك في كتاب كبير؛ حيث التزم فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن يذكر مقصد السورة وأن يذكر التناسب بين كل آية والتي بعدها، والتناسب بين آخر السورة والتي قبلها، مما جعله متكلفًا في كثير من المواضع، **حتى قال عن نفسه:** «إنه ربما مكث شهرًا في تأمل آية بعد آية ما المناسبة بينها». وقد رد عليه هذا التكلف بعض علماء عصره.

۞ ولكن كيف يمكن أن نستخرج المقصود العام للسورة[١]؟

والجواب: أن هذا يمكن بإحدى ثلاث وسائل:

١ ـ أن ينص العلماء من أهل التحقيق على أن مقصود السورة كذا وكذا؛ كما نصوا على أن سورة (الإخلاص) في العلم الخبري، وهو توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية، وأن سورة (الكافرون) في بيان التوحيد العملي الطلبي وهو المسمى بتوحيد الألوهية، ونصوا على أن سورة (النحل) نزلت في النِّعَم، وغيرها كما سبق.

٢ ـ أن يكون موضوع السورة ظاهرًا من اسمها، أو من أولها أو بهما معًا.

مثال ذلك: سورة (القيامة)؛ فمن اسمها ومن مطلعها يتبيَّن أن مقصود السورة هو الكلام عن يوم القيامة، ولذا عندما تقرأ قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]، ۞ **فلا بد أن تسأل نفسك ما علاقة هذه الآيات بموضوع السورة ومقصدها، فهذه الآيات لا بد لها من رابط بما قبلها وبعدها؟**

والجواب: إن في هذا إشارة إلى أن مثل هذه السورة لا ينبغي لأيِّ عبد أن تمر عليه مرورًا سريعًا من دون تفكر في هذا اليوم العظيم، وهو يوم القيامة، فمن قرأها فلا يستعجل بقراءتها فالأمر عظيم.

٣ ـ الاستقراء: بالتأمل في آيات السورة، والاستقراء يكون معتبرًا عند الأصوليين إذا كان كاملًا أو أغلبيًّا، أما الاستقراء الجزئي فلا عبرة به.

ومثال ذلك: سورة (الماعون)؛ جاءت لتأمر بمكارم الأخلاق الواجبة على المؤمنين، وتبيِّن أن من انتقص شيئًا منها فقد ترك شيئًا من

---

(١) مقاصد السور وأثره في فهم التفسير، للشيخ صالح آل الشيخ، والمراحل الثمان، لطالب فهم القرآن: (ص١٠٥).

واجبات الدين، وأن من اتصف بالصفات التي نهت عنها، فقد اتصف بصفات الذين يكذِّبون بيوم الدين.

الثالثة: أمثلته[١]:

• **سورة الفاتحة**: وهي أم القرآن، فقد جمعت علوم القرآن كاملة على جهة الإجمال، بل هي أم الكتب السماوية قاطبة. مقصودها أن تجمع علوم القرآن بحيث تكون كالمقدمة لكتاب الله ﷻ، والفاتحة لجميع مقاصده وأغراضه، كما أخرج البخاري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**أُمُّ الْقُرْآنِ: هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**)[٢]. **وقد جاء مأثورًا عن الحسن البصري قوله**: «إن الله أنزل مئة كتاب وأربعة كتب؛ جمع علمها في الأربعة، وجمع علم الأربعة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصَّل، وجمع علم المفصَّل في أم القرآن»[٣].

• **سورة براءة**: وهي في صفات المنافقين. **عن سعيد بن جبير قال**: «قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة ما زالت تنزل: ومنهم ومنهم؛ حتى ظنُّوا أنها لم تُبقِ أحدًا منهم إلا ذكر فيها»[٤]. **قال سفيان بن عيينة**: «هذه السورة نزلت في المنافقين»[٥].

• **سورة النحل**: وتسمى سورة النِّعَم. **فعن قتادة في قوله**: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾، **إلى قوله**: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، **قال**: «ولذلك هذه السورة تسمى سورة النِّعَم»[٦]. **قال ابن تيمية**: «سورة (النحل) وتسمَّى: سورة النِّعَم كما قاله قتادة وغيره»[٧].

---

(١) المراحل الثمان، لطالب فهم القرآن: (ص١٠٨) وما بعدها.
(٢) صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، حديث رقم: (٤٧٠٤).
(٣) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٧).
(٤) صحيح البخاري: (٤٨٨٢).
(٥) زاد المسير: (٢/ ٢٣١).
(٦) الدر المنثور للسيوطي: (٥/ ١٥٥).
(٧) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٠٨).

وقال الشيخ السعدي: «هذه السورة تسمى سورة النِّعَم؛ فإن الله ذكر في أولها أصول النِّعَم وقواعدها، وفي آخرها متمِّماتها ومكمِّلاتها»[(١)].

• **سورة طه**: وهي سورة الكتب المنزَّلة. **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: «سورة (طه) مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه، فهي سورة كتبه، كما أن (مريم) سورة عباده ورسله».

ثم علل لذلك فقال: «افتتحها بقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]، إلى قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]، ثم ذكر قصة موسى؛ ونداء الله له، ومناجاته إياه، وتكليمه له... ثم ذكر قصة آدم لأنها أول النبوات»[(٢)] إلى آخر كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

• **سورة مريم**: وهي سورة رحمة الله لأوليائه. **قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: «سورة (طه) مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه فهي سورة كتبه، كما أن (مريم) سورة عباده ورسله»[(٣)]. وقد تكرر فيها اسم (الرحمٰن) في اثنتي عشرة آية، وهذا ما لم يقع في أي سورة أخرى من القرآن، وكذا تكرر ذكر الرحمة في السورة كثيرًا، ويكفي في ذلك مطلعها، ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢]، فهي سورة رحمة الله لأوليائه.

• **سورة الأنبياء**: وهي سورة الذكر الذي تنزل على الأنبياء جميعًا؛ **أي**: ما اتفقت عليه الأديان السماوية. **قال شيخ الإسلام**: «سورة (الأنبياء) سورة الذكر، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر»؛ **ثم علل لذلك فقال**: «افتتحها بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ الآية [الأنبياء: ٢]، وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]،

(١) في تفسيره: (١/ ٤٣٥).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢٣٧).
(٣) المرجع نفسه.

وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]»[1].

• **سورة ق**: سورة القوة والعلو. **يقول ابن القيِّم عن سورة (ق)**: «والسورة مبنية على الكلمات القافيَّة، من ذكر القرآن وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد، وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدُّم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون، والتنقيب في البلاد، وذكر القَبْل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبُسوق النخل والرزق، وذكر القوم وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة، وسر آخر: وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدَّة والجهر والعلوِّ والانفتاح»[2].

• **سورة الكافرون**: وهي سورة الإخلاص الثانية، أو سورة التوحيد العملي الإرادي. **يقول ابن القيِّم عن سورتي (الكافرون والإخلاص)**: «وقد جمع ﷻ هذين النوعين من التوحيد في سورتي الإخلاص وهما: سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]؛ المتضمن للتوحيد العملي الإرادي، وسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، المتضمنة للتوحيد العلمي الخبري، فسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فيها بيان ما يجب لله تعالى من صفات الكمال وبيان ما يجب تنزيهه من النقائص والأمثال، وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له والتبري من عبادة كل ما سواه، ولا يتم أحد التوحيدين إلا بالآخر»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢٦٥).
(٢) بدائع الفوائد: (٣/ ١١٢١).
(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية: (٢/ ٩٤).

• **سورة الإخلاص**: هي صفة الرحمٰن، وهي في التوحيد العلمي الخبري. فعن عائشة أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «(**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**) فقال: لأنها صفة الرحمٰن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: (**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**)»[1].

وتلحظ أن الأسماء كلها تدور على توحيد الله ﷻ، وسبق كلام ابن القيِّم قريبًا عن سورتي (الكافرون والإخلاص).

• **سورة الناس**: نزلت في إزالة الشرور الباطنة أو الداخلية، وكيفية التعوذ منها، وهذه الشرور باطنة؛ فناسبها الاستعاذة بهذه الصفات ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٣]. **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ في معرض كلامه عن سورة (الناس) ـ:** «فكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد، وأما الشر الصادر من غيره فسورة (الفلق)؛ فإن فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عمومًا وخصوصًا، والله أعلم»[2].

ويقول ابن القيِّم: «وهذه السورة ـ **أي**: سورة (الناس) ـ مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سببه الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان، الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، فسورة (الفلق) تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج، **وسورة (الناس) تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شر من داخل:**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، حديث رقم: (٨١٣).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٧/ ٥٦٣).

فالشر الأول: لا يدخل تحت التكليف، ولا يُطلب منه الكفُّ عنه لأنه ليس من كسبه، **والشر الثاني**: في سورة (الناس)، يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهي، فهذا شرُّ المعائب، والأول شرُّ المصائب، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما، فسورة (الفلق) تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة (الناس) تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة»[1].

والخلاصة: أن هذا الموضوع «مقاصد السور» من العلم النادر العزيز، وهو مهم لكل طالب علم في التفسير ولكل متدبر بقدر ما ذكر من مراعاة الضوابط من البحث عن تنصيص الأئمة عليه في كلامهم، أو أن يكون ظاهرًا في الآيات والسور، والله الفتاح المعين.



(١) بدائع الفوائد: (٢/ ٢٥٠).

المَسْأَلَةَ السَّابِعَةَ

استشعار الآيات والمعاني[١]

من الوسائل المعينة جدًّا لطالب التدبر أن يستشعر الآيات والمعاني في قراءته وكأنه يعيشها واقعًا في حياته؛ كما كان الصحابة ﷺ يتعايشون مع القرآن؛ فلقد كانت الآيات تنزل في أمور باشروها بأيديهم أو أبصروها بأعينهم، أو خاضوا غمارها فعاشوا حُلوها ومُرَّها، وفرحها وحزنها، وتكبدوا معاناتها، وأدركوا ملابساتها؛ فكانت الآيات تقع في قلوبهم مواقعها، فعنها يصدرون، وإليها يَرِدُون ورود الظامئ إلى الماء البارد.

إنَّ هذا الشعور يفتح لهم من القرآن آفاقًا... لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان ييسِّر لهم العمل، ويخفِّف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوِّله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان، ولا في بطون الصحائف؛ إنما تتحول آثارًا وأحداثًا تحوِّل خط سير الحياة، إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح: روح المعرفة المنشئة للعمل.

ولا يفهم النصوص القرآنية ولا المعاني الربانية حق الفهم إلا من واجه مثل الظروف التي واجهتها أول مرة واستشعر حقيقتها ونزولها وبلاغتها، هنا تتفتح النصوص لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى امتثال وعمل؛ تعمل في واقع الحياة، وتدفع بها إلى حركة حقيقية في عالم الواقع. وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرَّات ثم يقف الموقف أو يواجه الحادث؛

---

(١) **ينظر**: تدبر القرآن، للسنيدي: (ص٩٧ ـ ٩٩).

فإذا النصُّ القرآنيُّ جديد يوحي إليه بما لم يوح من قبل قطُّ، ويجيب عن السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق، وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث.

هؤلاء الذين يقرؤونه بهذه الروح وهذا الاستشعار هم الذين ينتفعون به، وهم الذين يعرفون من هو المتكلم به، وهم الذين يرجون منه ما لا يرجو غيرهم، وفي أمثالهم نزل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].



المَطْلَبُ التَّاسِعُ

البكاء والتباكي

وهو صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقال الله في ذكر عباده المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وفي حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «قال لي النبيُّ ﷺ: **(اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ)** قلتُ: يا رسولَ الله، أقرأُ عليكَ، وعليكَ أُنزِلَ؟ قال: **(إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي)** فقرأتُ عليه سورَةَ (النِّساء)، حتى جِئتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: **(حَسْبُكَ ٱلْآنَ)** فالتفتُّ إليه، فإذا عَيناهُ تَذْرِفانِ»[١].

قال ابن بطال: «إنما بكى ﷺ عند هذا لأنه مثَّل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بتصديقه والإيمان به، وسؤاله الشفاعة لهم؛ ليريحهم من طُول الموقف، وأهواله، وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن»[٢].

وعن عبد الله بنِ الشِّخِّير[٣] رضي الله عنه **قال**: «أَتيْتُ رسُول اللهِ ﷺ وهو يُصلِّي ولِجَوْفِهِ أَزيزٌ كَأَزيزِ المِرْجَلِ من البُكاءِ»[٤].

---

(١) سبق تخريجه: (ص١٠٤).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (١٠/ ٢٨١).

(٣) عبد الله بن الشخير بن عوف بن كَعْب بن وقدان الحرشي ثُمَّ العامري، لَهُ صحبة ورواية، نزل البصرة، وهُوَ والد مطرِّف الفقيه، وأخيه يَزِيد أبي العلاء. **ينظر**: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: (٣/ ٩٢٦)، والكاشف، للذهبي: (١/ ٥٦١).

(٤) رواه أحمد في المسند: (١٥٨٧٧)، والنسائي: (١٢١٤) وهذا لفظه، وأبو داود: =

وعلى هذا سار أصحابه كما وصفتهم أسماء بنت أبي بكر ﵄ حين قالت: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قُرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله: تدمع أعينهم وتَقْشعِرُّ جلودهم»[(١)].

قال أبو حامد الغزالي: «البكاء مستحبٌّ مع القراءة وعندها، وطريقه في تحصيله أن يُحضر قلبه الحزن بأن يتأمَّل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره حزن وبكاء... فليَبْكِ على فقدِ ذلك؛ فإنه من أعظم المصائب»[(٢)].

فالبكاء عند قراءة القرآن دليل خشوع وفهم إذا كان بكاءً صادقًا، **وهو على أنواع**: منه ما يكون بكاء رحمة ورقّة، ومنه ما يكون بكاء خوفٍ وخشية، منه ما يكون بكاء محبَّة وشوق، منه ما يكون بكاءً من الفرح والسرور، ومنه ما يكون بكاء حزن، وبكاء جزع[(٣)].

والبكاء المطلوب من المتدبر عند تلاوة القرآن هو: بكاء اشتياق ومحبة، وخوف وخشية، وليس بكاء النفاق، ولا البكاء المستعار؛ كالتظاهر بالبكاء لأجل أن يقول الناس عنه خاشع، ولا بالبكاء المرتفع فإن هذا يخالف الخشوع.

قال الإمام ابن القيِّم: «ولم يكن بكاؤه ﷺ بشهيق ورفع صوت، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهمُلا، ويُسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه عند سماعه للقرآن بكاء اشتياق ومحبة، مصاحب للخوف والخشية»[(٤)].

= (٩٠٤) بلفظ: «... كَأَزِيزِ الرَّحَى»، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب: (ص٥٤٤). **والمِرْجل**: الإناء الذي يغلي فيه الماء. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: مادة: (رجل)، (٤/ ٣١٥).

(١) سبق تخريجه: (ص١٣٢).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن: (ص٨٧ ـ ٨٨).

(٣) **ينظر**: زاد المعاد، لابن القيِّم: (١/ ١٨٥).

(٤) المرجع نفسه: (١/ ١٨٣).

أما التباكي فهو: تكلف البكاء(١)؛ والتباكي منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم. فالتباكي المحمود هو الذي يستجلب رقة القلب وخشية الله، وليس تباكي رياء وسُمعة.

أما التباكي المذموم الذي يُستجلب به حمدُ الخلق وثناؤهم عليه، فيتظاهر بالبكاء أمام الناس، فهذا تباكي نفاق فكن على حذر من ذلك أيها المتدبر! وتأمل ما في كتاب ربِّك من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم تأمل تقصيرك في أوامره ونواهيه وزواجره، واستشعر أن الله تعالى يخاطبك بهذا القرآن، فإذا كان هذا حالك فستزيدك مواعظ القرآن خشوعًا وخضوعًا لأمر الله، وتكون من عباد الله المنعَم عليهم والمُجتبَين، كما قال الله تعالى في حال السابقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩﴾ [مريم: ٥٨].



(١) القاموس المحيط، مادة: (ب ك ي).

المطلب العاشر

ترديد الآيات وتكريرها

تكرار الآية من صور الوقوف على المعاني، حيث إن تكرار الآية ـ إن أقبل عليها القلب ـ يفتح كنوزًا عظيمة، وأسرارًا عجيبة للمتدبر؛ ولذا حرص عليه العارفون لإدراكهم أثر ذلك وفائدته؛ فهذا قدوتهم ﷺ قرأ ليلة بآية حتى أصبح يكررها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][1].

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها افتتحت سورة (الطور) فانتهت إلى قوله: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فأصبحت تكرِّر: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧][2].

وهكذا ورد عن جملة من السلف أنهم كانوا يفعلونه أيضًا كما ورد «عن تميم الداري رضي الله عنه أنه كرر هذه الآية حتى أصبح: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. وردَّد ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وردَّد سعيد بن جبير: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وردَّد أيضًا: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ الآية [غافر: ٧٠ ـ ٧١]، وردَّد أيضًا: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ردَّدها إلى السحر. وقام سعيد بن جبير ليلة بهذه الآية يردِّدها ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وروي عنه أنه أحرم بنافلة

---

(١) سبق تخريجه: (ص١١٠).

(٢) مختصر قيام الليل: (ص١٤٨).

فاستفتح ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]، فلم يزل فيها حتى نادى منادي السحر»[١].

وقام الحسن البصري ليلة حتى الصباح بـ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١] يردِّدها، ثم غُشي عليه، ثم عاد فعاد إليها فغُشي عليه، فلم يختمها حتى طلع الفجر[٢].

قال النووي: «وقد بات جماعة من السلف يتلو الواحد منهم الآية الواحدة ليلةً كاملةً أو معظمَ ليله، يتدبَّرها عند القراءة»[٣].

وقال ابن القيِّم: «وهذه كانت عادة السلف؛ يردِّد أحدهم الآية إلى الصباح»[٤].

وقال ابن قدامة: «إن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليردِّدها»[٥].

إنَّ هذه الصور الخاشعة تعطي المتدبِّر دافعًا قويًّا للاقتداء بهؤلاء الأصفياء الأتقياء الذين أدركوا عظم أثر هذا السبب. فلتكن قراءة ـ من يريد الانتفاع ـ قراءة بتفكر وخشوع؛ حتى إذا مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها، ولو مئة مرة، ولو ليلة؛ فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن[٦].



(١) **ينظر**: التبيان في آداب حملة القرآن: (ص٨٥).
(٢) مختصر قيام الليل: (ص١٤٨).
(٣) الأذكار: (١/١٠٧).
(٤) مفتاح دار السعادة: (١/١٨٧).
(٥) مختصر منهاج القاصدين: (ص٥٣).
(٦) المرجع نفسه.

 المَطْلَبُ الحَادِيَ عَشَرَ 

القراءة في كتب المفسرين وفضائل القرآن

وهذا السبب من أهم الأسباب التي ينبغي مراعاتها، فالقراءة في هذه الكتب ومراجعتها مفيدة جدًّا لطالب التدبر؛ فهي إما ترفع مشكلًا أو توضح مبهمًا أو تشرح معنى أو تؤكد استنباطًا، أو تزيد إيمانًا. **قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: «والذي يعين المتدبر على استخراج درره وجواهره، والاهتداء بأنواره وبصائره؛ علم التفسير، الذي هو مفتاح باب فهمه، ومصباح أسباب علمه، والكفيل بفتح مقفله، والقبيل بشرح مشكله، والمهيمن على تفصيل مجمله، فإن تدبر كتاب الله ﷻ واتباعه والعمل بما فيه، لا يكون إلا بعد فهمه ومعرفة معانيه»(١).

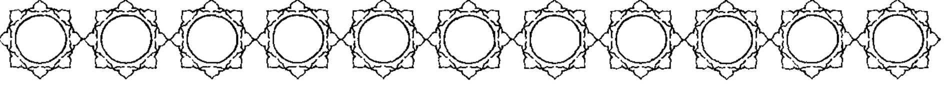
وأما كتب فضائل القرآن، فهي من أهم المعينات على تدبر القرآن؛ إذ النفس تتشوف للآيات التي ثبت لها الفضل فتعمل فيها آلات التدبر فتخرج بكنوز عظيمة، **قال ابن كثير**: «ذكر البخاري رحمه الله كتاب فضائل القرآن بعد كتاب التفسير؛ لأن التفسير أهم، فلهذا بدأ به. ونحن قدمنا «الفضائل» قبل التفسير، وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها؛ ليكون ذلك باعثًا على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه»(٢).



---

(١) **ينظر**: قاعدة في فضائل القرآن: (ص٦٩ ـ ٧٠). ومن المفيد مراجعة الضابط الثاني: «التعويل على كتب التفسير السالمة من التأويلات المذمومة والشبهات» فقد ذُكر فيها أسماء التفاسير المناسبة (ص٧٧).

(٢) فضائل القرآن: (ص٣٣).



ٱلْفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

الوقوف على مقاصد التدبر وغاياته

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: التفكر والاعتبار.
- المبحث الثاني: خشوع القلب والجوارح.
- المبحث الثالث: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي.
- المبحث الرابع: استخراج العبر واستنباط الأحكام.



المَبْحَثُ الأَوَّلُ

التفكر والاعتبار

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: التفكر في آيات الله المسموعة.
- المطلب الثاني: التفكر في آيات الله المشهودة.

تمهيد

أنعم الله ﷻ على الإنس والجن بنعم عظيمة سخَّرها لهم؛ ليعرفوه وليعظموه وليوحدوه، محققين الغاية التي من أجلها خُلقوا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإن من أعظم هذه النعم نعمة العقل الذي هو آلة التفكير، وقد ورد الحديث عن هذه النعمة في أكثر من موضع في كتاب الله، قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ولقد جاء في القرآن الكريم الحثُّ على التفكير في مواضع عديدة؛ حيث وردت مادة: **(التفكر)** في حوالي تسعة عشر موضعًا في القرآن الكريم[١]، وخُتمَت سبع آيات[٢] من كتاب الله بقوله تعالى: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]؛ في إشارة إلى أن هذه الآيات العظيمة التي تُذْكَر قبلها؛ لا ينتفع بها إلا ذوو العقول المتفكرة.

وفي مواضع أخرى جاء التشنيع والتوبيخ للقوم الذين عطلوا عقولهم وتفكيرهم، كما في سورة (الحج): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

إن هذه الآيات وغيرها تُظهر للمتأمل أهمية العقل والتفكير، وأنه

---

(١) **ينظر كتاب**: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق، لرقية العلواني: (ص١٩).

(٢) كما في سورة يونس الآية (٢٤)، والرعد الآية (٣)، والنحل في موضعين الآية (١١)، و(٦٩)، والروم الآية (٢١)، والزمر الآية (٤٢)، والجاثية الآية (١٣).

نعمة ربانية عظيمة اختص اللهُ بها الإنسانَ، وجعلها مناط التكليف، وميَّزه بها عن غيره من بين سائر الجمادات والعجماوات، وقد نص بعض العلماء على أن منزلة التفكُّر تعدُّ من أفضل الأعمال وأشرفها[١]؛ «وذلك لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف الجوارح؛ فكان عمله أشرف من عمل الجوارح»[٢].

ولقد كثر الحثُّ في كتاب الله ـ تعالى ـ على هذه العبادة الجليلة[٣]؛ نظرًا لأهميتها وفضلها العظيم؛ حيث إنها تورث العلم والمحبة، والنور والإيمان، وهي عبادة أهل الصلاح والتقوى، **يقول عامر بن عبد قيس**[٤]: «سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب الرسول ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان: التفكر»[٥].

جاء في «التعريفات» للجرجاني أن المراد بالتفكر: «إعمال القلب في النظر في الأدلة»[٦]. **وما يعنينا من الأدلة هنا**: الآيات الواردة في كتاب الله ﷻ؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ولو تأملنا مجال التفكر في آيات القرآن لبرز لنا مجالان عظيمان أشار إليهما الإمام ابن القيِّم في كتابه القيِّم: «مفتاح دار السعادة»[٧] **وقد جاء ترتيبهما تحت هذين المطلبين**:

---

(١) **يقول الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ**: «إن من أفضل العمل: الورع والتفكر». **ينظر**: الزهد، لابن المبارك: (ص٩٦).

(٢) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٠).

(٣) **ينظر**: إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٢٣).

(٤) قال الذهبي في السير: (٤/ ١٦): «عامر بن عبد قيس، القدوة الولي الزاهد أبو عبد الله، ويقال: أبو عمرو، التميمي، العنبري، البصري. روى عن عمر، وسلمان. وعنه: الحسن، ومحمد بن سيرين، وأبو عبد الرحمٰن الحبلي وغيرهم، قال العجلي: كان ثقة من عباد التابعين، رآه كعب الأحبار فقال: هذا راهب هذه الأمة... وروى عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه، أن قبر عامر بن عبد قيس ببيت المقدس. وقيل: توفي في زمن معاوية».

(٥) تفسير ابن كثير: (٢/ ١٨٥).

(٦) **ينظر**: التعريفات، للجرجاني: (ص١٦٧).

(٧) **ينظر**: مفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٧).

المَطلَبُ الأوَّلُ

التفكر في آيات الله المسموعة

وهو التفكر في الدليل القرآني: وفيه يكون التفكر في آيات الله المسموعة التي حثَّ الله تعالى على التفكر فيها وتدبُّرها في أكثر من نص في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]؛ وذلك أن المرء يتفكر في هذه الأدلة حين سماعها أو تلاوتها، وما تتضمنه من دلائل باهرة تحثُّ على توحيد الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ويتفكر أيضًا فيما جاء فيها من معجزات ودلائل وبشارات ونذارات وعبرة وأحكام، ونحوها، ويتفكر في معجزة ألفاظه، وعظمة أحكامه، وقوة حججه وبراهينه... إلخ.

فهذا التفكر يورث في القلب محبةَ الخالق وتعظيمَه، وإخلاص العبادة له، والتوكل عليه، وزيادة الإيمان واليقين، وغير ذلك من مقامات العبودية وأعمال القلوب.



المَطْلَبُ الثَّانِي

التفكر في آيات الله المشهودة

وهو التفكر في الدليل العِياني: وهو آيات الله المشهودة، ولقد أثنى الله ﷻ على من يتفكر في ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

وقد ثبت في صحيح ابن حبان وغيره مرفوعًا: (**لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ؛ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا**)... ثم تلا هذه الآية[1].

فتأمَّل ـ رحمك الله ـ كيف أن الآيات الواردة في القرآن تلفت الأنظار إلى الآيات المشاهَدة من أجل إعمال التفكر، وتأمَّل أيضًا كيف خُتِمت بالدعوة والحث على التفكر.

تفكر ـ مثلًا ـ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، وتفكر أيضًا في هذه الآية، وما فيها من تجانس وتماثل وعبرة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وتفكر في هذا المشهد البديع، والإعجاز الفريد: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: التوبة، حديث رقم: (٦٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب رقم: (١٤٦٨)، وذكره الوادعي في الصحيح المسند: (١٦٥٤).

﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩].

إلى غير ذلك من الآيات العظيمة المشاهَدة في الآفاق، والمعجزات الباهرة المتقنة في هذا الكون الفسيح؛ فمشهد السموات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار، ومشهد جميع المخلوقات، في تناسقها وإبداعها، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا، ولو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة؛ لاهتزت له مشاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ذلك حكيمًا مدبرًا، وعليمًا قادرًا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن جميل ما يحكى في هذا الباب ما قاله ابن الجوزي عن نفسه: «عَرَضَ لي في طريق الحجِّ خوفٌ من العرب، فسِرْنا على طريق خَيْبَرَ، فرأيت من الجبال الهائلة والطُّرق العجيبة ما أذهلني، وزادت عَظَمَةُ الخالق ﷻ في صدري، فصار يعرض لي عند ذكر الطُّرُق نوع تعظيمٍ لا أجده عند ذكر غيرها، فصحتُ بالنفس: ويحك! اعْبُري إلى البحر، وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالًا هي أعظم من هذه. ثم اخرجي إلى الكون والتفتي إليه؛ فإنَّك ترَيْنَهُ بالإضافة إلى السموات والأفلاك كَذَرَّةٍ في فلاةٍ. ثم جُولي في الأفلاكِ، وطُوفي حولَ العرشِ، وتلمَّحي ما في الجِنان والنيران. ثم اخرُجي عن الكُلِّ، والتفتي إليه؛ فإنك تشاهدين العالم في قَبْضَةِ القادر الذي لا تقفُ قدرتُهُ عند حدٍّ. ثم التفتي إليكِ، فتلمَّحي بدايتكِ ونهايتك، وتفكري فيما قبل البداية، وليس إلَّا العدمُ، وفيما بعد البلى، وليس إلَّا الترابُ.

فكيفَ يأنسُ بهذا الوجودِ من نَظَرَ بعين فِكْرِهِ المبدأَ والمنتهى؟ وكيف يغفُلُ أربابُ القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟»[1].

---

(١) صيد الخاطر: (ص٢٧٥ ـ ٢٧٦).

* التفكر في هذا الزمن:

إنَّ الملاحظ على كثير من المنتسبين إلى الإسلام في زمننا يجد أنهم أصناف في تعاملهم مع التفكير:

• فقوم شُغِلوا عن التفكير السليم بتفكير عقيم، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ فأصبح تفكيرهم الدائم في الدنيا وملذَّاتها وزخرفها؛ فهم في تفكير وشغل في الليل والنهار، وأوصدوا على أنفسهم مجال التفكير النافع فتشوَّشَت العبادات، وقلَّ التفكير والاهتمام بالآخرة، ونسي كثيرٌ منهم نفسه ومحاسبتها، وتذكيرها بما خلقت له، وإلى أين مصيرها[١].

• وقوم جنحوا في التفكير إلى ما وراء حدود العقل، واقتحموا أمورًا لم يُعطَ العقلُ القدرةَ على إدراكها وتصوُّرها، فعظموا العقل وقدَّموه على النقل فوُكِلوا إليه، فازدادوا حيرة وشكوكًا.

• وقوم تبلد عندهم التفكير فأصبحوا ينظرون إلى آيات الله المسموعة والمشهودة فلا يتحرك فيهم شيء؛ وكأنه حدث عادي يمر عليهم دون تفكر ولا اعتبار!

• وقوم عطَّلوا تفكيرهم، وأسلموا عقولهم وتفكيرهم إلى غيرهم، فصاروا لا يرون إلا بأعينهم ولا يفكرون إلا بتفكيرهم، فقلدوا غيرهم وعطلوا تفكيرهم؛ فالحق ما قالوه والصحيح ما صححوه.

إن الواجب على المكلَّف أن يشغل نفسه بهذه العبادة الجليلة في حدودها ومجالاتها المنضبطة، ويتعاهدها في جميع الأحوال؛ وذلك أن التفكير السليم يوصل صاحبه إلى الخير في الدنيا والآخرة؛ و«أصل الخير والشرِّ من قِبَل التفكر؛ فإن الفِكْرَ مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفعُ الفِكْرِ الفكرُ في مصالح المعاد، وفي طريق

---

(١) **عن ذي النون أنه قال:** «لا يتفكر القلب لغير الله، إلا كان عليه عقوبة». حلية الأولياء: (٩/ ٣٨٣).

اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها»(١).

وإننا اليوم نعيش في زمن كثرت فيه الفتن، وتلاطمت فيه المحن، وكثرت فيه المنكرات، زمنٍ يحس فيه المؤمن الصادق بغربة شديدة، لا يسلِّيه فيها، ولا يذهبها عنه إلا العيش مع القرآن الكريم، والتفكر في معانيه، والنهل من معينه، والاتجاه إليه اتجاهًا صحيحًا بكامل أحاسيسه ومشاعره!

إنها دعوة للجميع للتفكر والتأمل في المجالات التي أمرنا الله ﷻ بالتفكر فيها والاعتبار بما فيها من الهدايات والمعاني؛ فالتفكر السليم أصل الخير على العبد في معاشه ومعاده.

إنها دعوة للتفكر في عَظَمة القرآن الكريم، والتفكر في معانيه وآياته والعيش في رحابه.

وهي دعوة للتفكر في آيات الله في الآفاق والأنفُس، وفي نعمه الظاهرة والباطنة.

وهي دعوة للتفكر في سِيَر الأنبياء والصالحين والمجددين، في سِيَرهم مع أقوامهم، وفي أحوالهم، وفي عاقبة أمرهم.

وهي دعوة للتفكر في النفس ومحاسبتها وإصلاحها وتهذيبها وتزكيتها.

ودعوة للتفكر في الدنيا والآخرة، وحقيقة كلٍّ منهما.

إنها دعوة للتفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه؛ من أجل تجديد الإيمان، وفتح آفاق العلم والإحسان، وشغل القلب بأعظم الأعمال، والتعرف على عَظَمة الخالق ـ جلَّ في علاه ـ والافتقار إليه، والانطراح بين يديه، والتلذذ بمناجاته ﷻ.

---

(١) الفوائد، لابن القيِّم: (ص١٩٨).

إنها دعوة لإحياء هذه العبادة الجليلة «عبادة التفكر» موجَّهة لكل مسلم؛ كلٌّ على قدر استطاعته، في البيت والمدرسة والمسجد؛ فلنعَوِّد قلوبنا عليها[١]، لنحيا حياة قرآنية ربانية.

إِذَا الـمَـرْءُ كَـانَـتْ لَـهُ فِـكْـرَةٌ ... فَـفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ عِـبْـرَةٌ[٢]



(١) **قال أبو سليمان الداراني**: «عوِّدوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر». **ينظر**: حلية الأولياء: (٩/ ٢٧٤).

(٢) كان الإمام سفيان بن عيينة كثيرًا ما يتمثل هذا البيت. **ينظر**: حلية الأولياء: (٧/ ٣٠٦).

المَبَحَثُ ٱلثَّانِي

خشوع القلب والجوارح

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: صور من خشوع النبي ﷺ.
- المطلب الثاني: صور من خشوع السلف.
- المطلب الثالث: أسباب تحصيل الخشوع.

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

صور من خشوع النبي ﷺ

إنَّ من أبرز مقاصد تدبر القرآن خشوع المتدبر تأثرًا وخضوعًا من مواعظ هذا الكتاب العظيم، وخشوع القلب هو ذِلَّته وسُكونه لله(١)؛ ولذلك تبكي العين، وتتأثر الجوارح، ويزداد الإيمان، ولما كان نبينا ﷺ أعلم الأمة بالله وأشدَّهم له خشية، كان يأخذه ﷺ الخشوع والتأثر إذا قرأ القرآن المجيد، فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تخبر الأمة بأعجب شيء رأته من رسول الله ﷺ حين قالت: «لما كان ليلة من الليالي قال: (**يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**)، قلت: والله إني لأحبُّ قُربكَ وأحبُّ ما يسرُّكَ، قالت: فقامَ فتطهَّر، ثم قامَ يصلِّي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حِجْرَه، قالت: وكان جالسًا فلم يزل يبكي ﷺ حتى بلَّ لِحْيتَه، قالت: ثم بكى حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يُؤذِنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! قال: (**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟! لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ؛ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتفكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾** [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١])»(٢).

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٥٢١).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: التوبة، حديث رقم: (٦٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب رقم: (١٤٦٨)، وذكره الوادعي في الصحيح المسند: (١٦٥٤).

وها هو صاحبه حذيفة رضي الله عنه يصف صلاته ﷺ وقراءته الخاشعة بقوله: «صلَّيت مع النبيِّ ﷺ ذات ليلةٍ فافتتحَ (البقرة) فقلتُ: يركعُ عند المئةِ. ثمَّ مضى فقلتُ: يصَلِّي بها في ركعةٍ، فمضى فقلتُ: يركعُ بها. ثمَّ افتتح (النساء) فقرأها، ثمَّ افتتح (آل عمران) فقرأها، يقرأ مُترسِّلًا إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبَّحَ، وإذا مَرَّ بِسُؤَالٍ سأل، وإذا مَرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذَ، ثمَّ ركع...»(١).

ومرة تلا ﷺ قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «(**اللَّهُمَّ أُمَّتِي! أُمَّتِي!**) وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريلُ، اذهبْ إلى محمدٍ ـ وربُّكَ أعلم ـ فَسَلْهُ: ما يبْكِيكَ؟ فأتاه جبريلُ عليهِ الصَّلاة والسَّلامُ، فسألهُ، فأخْبرَهُ رسولُ الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال اللهُ: يا جبريل، اذهبْ إلى محمدٍ فَقُلْ: إنَّا سنُرْضِيكَ في أُمَّتِكَ ولا نسُوؤُكَ»(٢).

بل إن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نقل لنا أثرًا مؤثرًا عن خشوعه وتدبره ﷺ لا يكاد المتدبر أن يقرأه إلا فاضت عيناه، وخشع قلبه؛ حين يتصور ذلك الموقف الخاشع من نبيه ﷺ؛ يتصور أولًا الحوار الإيماني الذي دار بين المعلم وتلميذه، ثم قراءة التلميذ الخاشعة، ثم تأثر المعلم وبكاءه، هذا المشهد الخاشع يصوره ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: قال: «قال لي النبي ﷺ: (**اقْرَأْ عَلَيَّ**)، قلت: يا رسول الله، أأقرأ عليكَ، وعليكَ أُنزِلَ؟! قال: (**نَعَمْ**)؛ فقرأتُ سورة (النِّساء) حتى أتيتُ إلى هذه

---

(١) سبق تخريجه: (ص١٦٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم، حديث رقم: (٢٠٢).

الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: (**حَسْبُكَ الآنَ**)، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان»[(١)].

فيا أيها المتدبر! إذا كان هذا الشاهد تفيض عيناه لهول هذه المقالة وعظم تلك الحالة، فماذا لعمر الله يصنع المشهود عليه؟! وكأنه بالقيامة وقد أناخت لديه، والحساب وقد ضُرب بين يديه.

ولتعلم أيها المتدبر أنه لم يكن بكاؤه ﷺ شهيقًا ورفع صوت، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهمُلا، ويُسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه عند سماعه للقرآن بكاء اشتياق ومحبة، مصاحبًا للخوف والخشية؛ فتمسك بسُنَّته، وسر على هديه؛ ففيهما الكمال والفلاح، والفوز والنجاح.



(١) سبق تخريجه: (ص١٠٤).

المَطْلَبُ الثَّانِي

صور من خشوع السلف

إن سير السلف الصالح رضوان الله عليهم مليئة بالمواقف والصور التدبرية الخاشعة، ومن المفيد أن يحاول المتدبر أن يجمعها أو يطلع عليها؛ لتحثَّه على الاقتداء والسير على منهاجهم، وإن صور خشوع السلف كثيرة لا تحصى، **وهٰهنا جملة من أخبارهم، وصورٌ من أحوال خشوعهم وبكائهم:**

• **أبو بكر** رضي الله عنه: **حدثت ابنته عائشة** رضي الله عنها **قائلة**: «ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدًا بفناء داره، فكان يصلِّي فيه ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكَّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين»[1].

• **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: صلى مرَّة الصبح في أصحابه فَسُمِعَ نَشيجُه من آخر الصفوف وهو يقرأ سورة (يوسف): ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦][2].

• **ابن عباس** رضي الله عنه: **قال ابن أبي مُلَيْكَة**: «سافرت مع ابن عباس رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة، فكان ابن عباس يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا، ثم حكى قراءته: ثم يبكي حتى تسمع له نشيجًا»[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الصلاة، باب: المسجد يكون في الطريق من غير ضرر بالناس، حديث رقم: (٤٦٤).

(٢) فضائل القرآن، لأبي عبيد: (ص١٣٨)، **قال أبو عبيد**: «نشيج الشيخ: مثل بكاء الصبي إذا ضُرب فلم يُخرج بكاءه؛ فردَّده في صدره».

(٣) سبق تخريجه: (ص١٦٢).

• **جموع الصحابة: شهدت لهم أسماء بنت أبي بكر ﵄ بقولها:** «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن كما نَعَتَهُم الله: تدمع أعينهم، وتَقْشعِرُّ جلودهم»[(١)].

• **وفد أهل اليمن:** وذلك حين قدموا في زمن أبي بكر ﵁ وسمعوا القرآن جعلوا يبكون! **فقال أبو بكر:** «هكذا كنا»[(٢)].

علق قتادة على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ **فقال:** «هذا نعتُ أولياء الله؛ بأن تقشعِرَّ جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئنَّ قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، وإنما هذا في أهل البدع وهذا من الشيطان»[(٣)].

والأخبار عنهم كثيرة ومتواترة، ومن المفيد الإشارة إلى المربين في المحاضن التربوية أن يهتموا بتأصيل هذا الجانب لدى المتربين ومحاولة نشر عبادة تدبر السلف الصالح، ومن ذلك تكليفهم بجمع ما يتعلق بخشوع السلف وتدبرهم في بحث قصير أو رسائل مختصرة، ومن ثَمَّ عرضها على المعلم لمراجعتها وإقرارها، وبعد ذلك يتم قراءتها على التلاميذ، وبلا شك أنها ستؤثر في نشأتهم مع كتاب الله.



(١) سبق تخريجه: (ص١٣٢).
(٢) الحلية، لأبي نعيم: (١/ ٢٢٤).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسير القرآن: (٢/ ١٧٢).

 المَطلَبُ الثَّالِثُ 

أسباب تحصيل الخشوع

إنَّ للخشوع أسبابًا يحسن بالمتدبر أن يحققها، وذلك لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، وهنا **ذِكْرٌ وترتيبٌ لأبرز هذه الأسباب التي تعين على تحصيل الخشوع والتأثر مع قراءة كتاب الله**:

■ **صفاء القلب**: قد أجمع العارفون على أن محل الخشوع القلب[(١)] ومحل نزول القرآن؛ قال الله لنبيِّه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]، ووبَّخ الله المنافقين توبيخًا شديدًا في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؛ فذكر أن الأقفال التي في قلوبهم كانت مانعة عن تدبر القرآن، فالأولى للمتدبر أن يصفِّي قلبه بفعل الأسباب النافعة، وأن يترك ويحرص على اجتناب فعل الموانع والأقفال، التي تمنع وصول التدبر إلى قلبه؛ وبعدها فليُبشر بقلب خاشع وتدبُّر نافع بإذن الله.
قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يُجاوز تراقيَهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسَخَ فيه نَفَعَ»[(٢)].

■ **تحقيق العلم**: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

فالعالم بالله هو الذي يخشى الله ويتَّقيه ويخافه، «ومتى كان العِلْمُ نافعًا ووقر في القلب، فقد خشع القلب لله، وانكسر له، وذلَّ هيبةً

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/٣٥٧). (٢) **ينظر**: صحيح مسلم: (٨٢٢).

وإجلالًا، وخشية ومحبة»[١].

▪ **معرفة القدوات**: وذلك بالاطلاع والقراءة للأحاديث والآثار المروية عن رسول الله ﷺ في قصص خشوعه وتأثره، وكذا عن أصحابه والتابعين؛ فإن الاطلاع على ذلك دافع رئيس للاقتداء والاهتداء.

▪ **تحسين الصوت والترتيل**: فإن الترتيل جاذب للخشوع سواء من القارئ أو السامع، **قال الإمام أحمد**: «يحسِّن القارئ صوته بالقرآن، ويقرؤه بحزن وتدبر؛ وهو معنى قوله ﷺ: **(مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ كَأَذَنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ)**»[٢].

▪ **التفكر بالآيات**: فعلى المتدبر أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوَّذ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرَّع وطلب، فبهذا يخشع القلب وتتأثر الجوارح[٣].



(١) بيان فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب: (ص٧٤).
(٢) الآداب الشرعية: (٢/ ٣١١)، والحديث سبق تخريجه: (ص١٨٥).
(٣) الإتقان في علوم القرآن: (١/ ٣٦٩).

المَبحَثُ الثَّالِثُ

امتثال الأوامر، واجتناب النواهي

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: امتثال الأوامر.
- المطلب الثاني: اجتناب النواهي.

تَمْهِيدٌ

من أبرز مقاصد التدبر وغاياته امتثال المتدبِّر للأوامر التي جاءت في كتاب الله ﷻ، واجتناب النواهي التي نهى عنها، وإن إدراك القارئ لها ومعرفته لآثارها ونتائجها دافع رئيس لمعرفتها، وتتبُّعها في كتاب الله، ثم الامتثال لها، وهي وصية عظمى وفائدة كبرى للمتدبر أن يحرص عليها ويراعيها، **جاء رجل لابن مسعود** رضي الله عنه **فقال له: أوصِني، قال:** «إذا سَمِعتَ اللهَ ﷻ، يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فأصغِ إليها سمعكَ؛ فإنَّهُ خيرٌ تُوصَى به، أو شرٌّ تُصرَفُ عنه»[1].

وهي وصية لباب واسع في كتاب الله يتعايش معها المتدبر، فإذا كان المسلم قد قصر في تطبيق أمر أو ارتكاب نهي، تاب وأقلع، وخاف ورجا... ولقد جاء في وصف حال رسولنا ﷺ أنه يتدبر ما كان يقرؤه بتفاعل وخشوع، كما ذكر صاحبه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنَّه صلَّى إلى جنب النبي ﷺ ليلةً، فسمعه يقرأ مترسِّلًا؛ إذا مَرَّ بآية عذابٍ وَقَفَ وتعوَّذ، وإذا مَرَّ بآية رحمةٍ، وَقَفَ فَدَعَا...»[2].

وهكذا ينبغي أن تكون قراءة المتدبر؛ قراءة مترسلة خاشعة، متأملة في أوامر الآيات ونواهيها، وبما أن الشرائع التي جاءت بها الرسل

---

(١) شعب الإيمان، للبيهقي، حديث رقم: (١٨٩٠).

(٢) سبق تخريجه: (ص١٦٤).

تنقسم إلى أوامر، ونواهٍ؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ **لأن الإنذار**: عن الوقوع في المخالفة؛ **والبشارة**: لمن امتثل، وأطاع[١]؛ **جاء تقسيم هذا المبحث في المطلبين الآتيين:**

---

(١) تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين: آية رقم: (٢١٣).

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

امتثال الأوامر

إنَّ من لازم إيمان المتدبر ومحبته لربِّه الامتثال لأوامره التي أنزلها في كتابه، وإن من لازم علامات العلم النافع العمل بهذه الأوامر التي علمها المرء، وإن مما أقلق الصالحين وأقضَّ مضاجعهم خوفهم من الإخلال بهذا الأمر أو التقصير تجاهه، **يصور ذلك الصحابي الجليل العابد الزاهد أبو الدرداء** رضي الله عنه **بقوله**: «أخوفُ ما أخاف أن يُقال لي يوم القيامة: يا عُوَيْمِرُ، أعلمتَ أم جهلتَ؟ فإن قلتُ: علمت، فيقال: لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها: الآمرةُ هل ائتمرتَ؟ والزاجرةُ هل ازدجرتَ؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يُسمع»[(١)].

يقولون ذلك مع أن سيرهم التي نقلت عنهم ذكرت حرصهم الشديد على الاستجابة لأوامر ربهم، وامتثالهم لها. فماذا عسى أن يقول غيرهم ممن جاء بعدهم؟! فهم ـ رضوان الله عليهم ـ لم يكونوا يقرؤون القرآن لمجرد المعرفة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، ولم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من المعارف والعلوم، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولًا يملأ به جَعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في حياته كلها، يتلقى الأمر ليعمل به فور سماعه.

ولأنهم رأوا هذا القرآن رسائل من ربِّهم؛ فكانوا يتدبرونها بالليل،

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية: (١/ ٢١٣).

وينفذونها بالنهار(١).

۞ **وإليك أيها المتدبر كلامًا نافعًا من العالم الفقيه ابن مفلح وهو يحكي لك ماذا يجب أن تكون حال قراءتك للقرآن فيقول:** «ينبغي أن يكون ذا سكينة ووقار، يُعرف القرآن في سمته وخلقه... فما أخوفني أن يكون المصحف في بيتك وأنت مرتكب لنواهي الحق سبحانه؛ فتدخل تحت قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فهجران الأوائل كلام الحق يوجب ما أوجب عليهم من الإبعاد والمقت... فالله الله! في إهمال ما وجب لله تعالى؛ من الأدب عند تلاوة القرآن، والإنصات للفهم، والنهضة للعمل بالحكم؛ إيفاءً للحقوق إذا وجبت، وصبرًا على أثقال التكاليف إذا حضرت، وتلقيًا بالتسليم للمصائب إذا نزلت، وحشمة للحق في كل أخذ وترك؛ حيث نبهك على سبب الحشمة فقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]»(٢).

فليحرص المتدبر على تتبع أوامر الله ﷻ في كتابه وليمتثل لها، وليعلم أن جنس فعل المأمور به أعظم من جنس ترك المنهي عنه، وأن جنس ترك المأمور به أعظم من جنس فعل المنهي عنه، وأن مثوبة بني آدم على أداء الواجبات أعظم من مثوبتهم على ترك المحرمات، وأن عقوبتهم على ترك الواجبات أعظم من عقوبتهم على فعل المحرمات(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا كان أصل الإيمان الذي هو أعظم القرب والحسنات والطاعات؛ فهو مأمور به، والكفر الذي هو أعظم

---

(١) **قال الحسن بن علي** رضي الله عنهما: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم؛ فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار». **ينظر**: التبيان في آداب حملة القرآن: (ص٢٨).

(٢) الآداب الشرعية: (٢/ ٣٠١ ـ ٣١٠).

(٣) **ينظر**: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٠/ ٨٥).

الذنوب والسيئات، والمعاصي ترك هذا المأمور به، سواء اقترن به فعل منهي عنه من التكذيب أو لم يقترن به شيء، بل كان تركًا للإيمان فقط؛ عُلم أن جنسَ فعلِ المأمور به أعظمُ من جنس تركِ المنهيِّ عنه»[1].



(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٠/ ٨٧).

 المَطْلَبُ الثَّانِي 

اجتناب النواهي

من أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحًا، ومن الجرائم فضوحًا؛ كان القرآن حجة عليه، وخصمًا لديه(١)، وإن الواجب على قارئ كتاب الله معرفة ما يريده الله منه في هذا الكتاب، فيقرأ هذا الكتاب لينفع نفسه أولًا، وليتدبر ما فيه من الأخبار والأوامر والنواهي، فمعرفة هذه الأمور والامتثال لها تعين على الامتثال والخضوع والفلاح والنجاح في حياة الأفراد والجماعات في الدنيا والأخرى. فكل ما جاء به القرآن من الأخبار ومن القصص ومن الأوامر ومن النواهي، فإنها أقوم شيء وأحسنه، وأنفعه للعباد في المعاش والمعاد، وهكذا بقية أوامر القرآن ونواهيه؛ فلن تتلو القرآن حق تلاوته إلا بإقامة ألفاظه ومعانيه، وتصديق أخباره، واتباع أحكامه؛ على ما أراد الله به وبينه رسوله ﷺ.

وهل كان خلقه ﷺ إلا اتباع القرآن، والسير على منهج القرآن فعلًا للأوامر وتركًا للنواهي؟ **كما أخبرت بذلك أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها **لما سئلت عن خلق النبي ﷺ قالت**: «كان خلُقُه القرْآنَ»(٢)؛ **والمعنى**: أنه كان ﷺ يعمل بأوامر القرآن، وينتهي عن نواهي القرآن، ويسير على المنهج الذي رسمه القرآن، فهذا هو الخلق العظيم الذي أعطاه الله نبيَّه، وهو الامتثال لأوامر الله، وترك نواهيه، والاستقامة على الأخلاق والأعمال التي يحبُّها ويرضاها سبحانه(٣).

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١/ ٢). (٢) سبق تخريجه: (ص١٢١).

(٣) الأخلاق الإسلامية، من إملاءات الشيخ عبد العزيز بن باز، الموقع الرسمي لسماحته رحمه الله تعالى.

وليعلم المتدبر أن عدم العمل بالقرآن؛ ومن ذلك اقتراف النواهي التي حذر منها والإصرار عليها ـ داخل في هجر القرآن الذي شكاه الرسول ﷺ إلى ربِّه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. **وقد ذكر ابن القيِّم** رحمه الله **أنواع هجر القرآن، ثم قال:** «الثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به»(١).

وقد كان التأمُّل في أوامر الله ونواهيه حاملًا لبعض أهل العلم على التوبة والرجوع عن ارتكاب الذُّنوب، ومنهم الفضيل بن عياض رحمه الله فقد كانت توبته بسبب سماع آية من كتاب الله، وتفكُّره في مواعظ الله، فأوجب ذلك له توبة ورجوعًا، وخشية وخضوعًا(٢). فهو الذي ينبغي أن نلتفت إليه التفاتًا شديدًا ونحن نقرأ القرآن نتدبَّر أوامره ونواهيه، ونمتثل لها، لكي لا يفوتنا التدبر المطلوب، ولا الآثار المطلوبة من هذا التدبر في واقع السلوك وواقع الحياة.

ولنضرب مثالًا على ما سبق في هذين المطلبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فحين يقرأ المتدبر هذه الآية يجد أنها جامعة شاملة؛ حيث جمعت بين الأمر بفعل أصول التقوى الثلاثة، **والتي هي: العدل**، و**الإحسان**، و**إيتاء ذي القربى**، وبين النهي عن أصول المعاصي والآثام الثلاثة، **والتي هي: الفحشاء**، و**المنكر**، و**البغي**.

فحين يتأمل ذلك المتدبر ويمتثل لها، يعرف يقينًا لماذا وصفها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأنها: أجمع آية في

(١) الفوائد: (ص١٥٦).

(٢) **ينظر**: كتاب التوابين، لابن قدامة المقدسي: (ص٢٢٣).

كتاب الله[١]. وهكذا ينبغي للمتدبر أن يمتثل لأوامر القرآن، ويزدجر بنواهيه وهو يسير في قراءته متأملًا خاشعًا، **يقول القرطبي**: «فما أحقَّ من عَلم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ما شُرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه؛ فإنه قد حمل أعباء الرُّسُل، وصار شهيدًا في القيامة على من خالف من أهل المِلَل»[٢].



(١) أخرجه الطبري في تفسيره: (١٧/ ٢٨٠).

(٢) تفسير القرطبي: (١/ ٢).

المَبۡحَثُ ٱلرَّابِعُ

استخراج العبر واستنباط الأحكام

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: شرف هذه المنزلة وعلوها.
- المطلب الثاني: شروط الاستنباط.
- المطلب الثالث: أساليب الاستنباط.

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

شرف هذه المنزلة وعلوها[١]

من المفيد أن نتكلم أولًا عن معاني الاستنباط عند علماء اللغة وعلماء الشرع:

يقول ابن فارس: «نَبَطَ: النون والباء والطاء كلمةٌ تدلُّ على استخراج شيء. واستنبَطتُ الماءَ: استخرجتُه[٢]». **فهو في اللغة:** الاستخراج، ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]؛ **أي:** يستخرجونه[٣].

قال ابن جرير الطبري: «وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن العيون أو عن معارف القلوب فهو له مُستنبِط»[٤].

وقال النووي: «قال العلماء: الاستنباط: استخراج ما خفي المراد به من اللفظ، وسمي النبط والأنباط؛ لاستخراجهم ينابيع الأرض بحيث لا يهتدي إليها غيرهم كاهتدائهم»[٥].

أما شرفه فيكفي فيه أن الله مدح أهله، ووصفهم بالعلم والمعرفة فقال في شأنهم: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

---

(١) استفدتُّ في هذا المبحث من الكتب الآتية: رسالة ماجستير بعنوان: منهج الاستنباط من القرآن الكريم، للدكتور: فهد الوهبي، طبعها مركز الشاطبي، وهي رسالة قدمت لقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكتاب: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، للدكتور: مساعد الطيَّار، طبعه: دار ابن الجوزي.

(٢) مقاييس اللغة، لابن فارس: (٥/ ٣٨١). (٣) معالم التنزيل، للبغوي: (١/ ٥٦٧).

(٤) تفسير الطبري: (٨/ ٥٧١).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا النووي: (٢/ ١٥٨).

﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] **قال الإمام ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط في كتابه، وأخبر أنهم أهل العلم»[(١)].

وهذا الاستنباط الممدوحُ أهلُه؛ قدرٌ زائدٌ على معرفة التفسير - الذي هو فهم المعنى - مع جلالة علم التفسير، وفضله العظيم؛ **كما وضحه ابن القيِّم بقوله:** «ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعاني والعِلل، ونسبة بعضها إلى بعض، فيَعْتَبِر ما يصحُّ منها بصحَّة مثله ومُشبِهه ونظيره، ويُلغي ما لا يصح، هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط، قال الجوهري: الاستنباط كالاستخراج[(٢)]، ومعلوم أن ذلك قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّدِ فَهْم اللفظ، فإن ذلك ليس طريقُه الاستنباط؛ إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط، وإنما تنال به العلل، والمعاني، والأشباه والنظائر، ومقاصد المتكلم، والله سبحانه ذمَّ من سمع ظاهرًا مجردًا فأذاعه وأفشاه، وحمد من استنبط من أولي العلم حقيقته ومعناه»[(٣)].

ومما سبق يتبيَّن أن للاستنباط علاقة قوية بالتدبر؛ وذلك أن التدبر الوقوف مع الآيات والتأمل فيها ثم العمل بها - وهذا الوقوف أنواع ودرجات ينتج منها الاستنباط، فالاستنباط فرع من التدبر؛ **لأنه:** استخراج ما خفي من النص القرآني بطريق صحيح؛ وهذا نتيجة من نتائج التدبر[(٤)].

فإذا حقق المتدبر هذا المعنى بأدواته وشروطه ومعارفه، انهالت عليه خيرات العلوم والمعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، **يقول ابن القيِّم:** «اعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقَّاد، مليء باستخراج العبر، واستنباط الحكم، فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار،

(١) إعلام الموقعين: (١/ ١٧٢).
(٢) الصحاح للجوهري: (٣/ ١١٦٢).
(٣) إعلام الموقعين: (١/ ١٧٢).
(٤) منهج الاستنباط من القرآن الكريم: (ص٤٥).

فإذا سمع الآيات كانت له نورًا على نور، وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان»[١].



(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢)، مناهل العرفان في علوم القرآن: (٢/ ٧٩).

المَطْلَبُ ٱلثَّانِي

شروط الاستنباط

من خلال استقراء نصوص العلماء والمفسرين نجد أنهم تكلموا عن شروط الاستنباط في مواضع متفرقة، ويمكن القول إن الشروط التي تصحح مسار الاستنباط من كتاب الله تعالى جاءت على قسمين(١):

* **شروط خاصة بالمُسْتَنْبِط**: وهي متعلقة بمن أراد الاستنباط من كتاب الله من جهة تكوينه وتأهيله للاستنباط.

* **وشروط خاصة بالمعنى المُسْتَنْبَط**: فإن المستنبِط قد يكون مؤهلًا للاستنباط لكن قد يعرض للاستنباط أمر خارجي فيبطله.

أولًا: شروط خاصة بالمُسْتَنْبِط:

وهي متعلقة بمن أراد الاستنباط من كتاب الله من جهة تكوينه وتأهيله للاستنباط؛ كصحة الاعتقاد، وصحة مصادر التلقي في اعتمادها على الوحيين، وسلامة مقصد المستنبِط؛ فما إن يتلبس المرء بشبهة أو شهوة ويصر عليها إلا حجبته عن الوصول إلى أسرار كتاب الله تعالى.
قال الإمام الشافعي موصيًا طالب العلم والقرآن: «فحُقَّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جُهدِهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كلِّ عارض دونَ طَلَبِه، وإخلاصُ النية لله في استدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يُدرَك خيرٌ إلا بعونه»(٢).

---

(١) **ينظر**: منهج الاستنباط من القرآن الكريم: (ص١٩٨).
(٢) الرسالة: (ص١٩).

وقال الزركشي: «واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة، وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كبر أو هوى أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمدًا على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعًا إلى معقوله؛ وهذه كلها حُجُبٌ وموانع، وبعضها آكد من بعض»[١].

ومن الشروط الخاصة بالمستنبِط أيضًا: معرفة التفسير الصحيح: فمن أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله[٢].

قال القرطبي: «فمن لم يُحكِم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية، كثُر غلطه، ودخل في زُمرة من فسَّر القرآن بالرأي... ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر»[٣].

ومن الشروط: العلم باللغة العربية. **قال الشاطبي**: «الاجتهاد إن تعلق بالاستنباط من النصوص، فلا بد من اشتراط العلم بالعربية»[٤].

وليس المقصود من اشتراط العلم باللغة العربية أن يكون المستنبِط ملمًّا بجميع العلوم العربية على اختلافها؛ فإن ذلك لا يمكن لبشر غير نبي سيما في هذا الزمن.

قال الشافعي: «ولسان العرب أوسعُ الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يُحيط بجميع علمه إنسانٌ غيرُ نبيٍّ، ولكنَّه لا يذهب

---

(١) البرهان في علوم القرآن: (٢/ ١٨١).
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: (١/ ٣٦).
(٣) تفسير القرطبي: (١/ ٣٤).
(٤) الموافقات: (٥/ ١٢٤).

منه شيء على عامَّتها، حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه.

والعلمُ به عند العرب كالعلم بالسُّنَّة عند أهل الفقه؛ لا نعلم رجلًا جمع السُّنن فلم يذهب منها عليه شيءٌ»[١].

ومن أمثلة ما ينبغي العلم به قبل الاستنباط، معرفة معنى اللفظة، وما تدل عليه من عموم أو خصوص، أو إطلاق أو تقييد، أو غير ذلك.

ولا شك أن الجهل في ذلك مورد للخطأ في الاستنباط.

ومنها أيضًا: معرفة طرق الاستنباط: فمن أهم ما يشترط في المستنبِط: معرفته للطرق الصحيحة للاستنباط؛ إذ الجهل بهذه الطرق قد يؤديه إلى سلوك طرق غير صحيحة في الاستنباط؛ مما يترتب عليه الخطأ فيما يستنبط من معانٍ. وهذه الطرق هي دلالات الألفاظ وقواعد الاستنباط التي أصَّلها العلماء رحمهم الله وبيَّنوها في كتبهم، وحذروا من سلوك طرق مخالفة لها، **قال الشاطبي في بيان حال أهل البدع في الاستدلال**: «كل خارج عن السُّنَّة ممن يدعي الدخول فيها والكون من أهلها، لا بد له من تكلف في الاستدلال بأدلتها على خصومات مسائلهم، وإلا كذَّب اطِّراحُها دعواهم... إلا أن هؤلاء ـ كما يتبين بعد ـ لم يبلغوا مبلغ الناظرين فيها بإطلاق: إما لعدم الرسوخ في معرفة كلام العرب والعلم بمقاصدها، وإما لعدم الرسوخ في العلم بقواعد الأصول التي من جهتها تُستنبط الأحكام الشرعية، وإما لعدم الأمرين جميعًا، فبالأحرى أن تصير مآخذهم للأدلة مخالفةً لمأخذ من تقدمهم من المحققين للأمرين»[٢].

---

(١) الرسالة: (ص٣٤).

(٢) الاعتصام: (١/ ٢٨١).

ثانيًا: الشروط الخاصة بالمعنى المستنبَط[(١)]:

أ ـ سلامة المعنى المستنبَط من معارض شرعي راجح: وله حالات كأن يثبت ما يعارض هذا الاستنباط شرعًا. مثاله: استنباط بعض العلماء أن المشي أفضل من الركوب في الحج من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، حيث خالف هذا الاستنباط ما ثبت من حج النبي ﷺ راكبًا[(٢)].

ب ـ صحة ارتباطه بالنص؛ ومعنى ذلك: أن يكون المعنى المستنبط قد استُخرج بطريق صحيح، فيكون بينه وبين لفظ الآية ترابط،

---

(١) منهج الاستنباط من القرآن الكريم، (ص٢٤٣ ـ ٢٧٨). **فائدة:** قال الدكتور: مساعد الطيار في كتابه: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر (ص١٦٦) **ما نصه:** «القانون الكلي؛ لصحة الاستنباط من عدمه: أنت في صياغة هذا القانون أمام ثلاثةِ أمور: نص مفسَّر؛ إما تفسيرًا صحيحًا، وإما تفسيرًا خطأً. ونص ظاهر. ومعلومة مرتبطة بأحدهما. وربط أيِّ معلومة من المعلومات، **والزعم أن القرآن دل عليها لا يخلو من أحوال:**

الحال الأولى: أن تكون المعلومة بذاتها فاسدة باطلة، تخالف ما جاءت به الشريعة، وحكم هذه المعلومة واضح، فهي باطلة بذاتها، وربطها بآيات القرآن خطأ بلا إشكال. وقد يكون ربطها بنص ظاهر، أو بتفسير صحيح، أو بتفسير غير صحيح.

الحال الثانيةُ: أن تكون المعلومة بذاتها صحيحة، ولا تخالف الشريعة، بل هي مما دلت عليه الشريعة، **وهذه على قسمين:**

الأول: أن يكون ربطها بالآية صحيحًا؛ **أي:** أن الآية دلت عليها دلالة واضحة لا يخالف فيها مخالف. وقد يكون الربط هنا بنص ظاهر، أو بتفسير صحيح.

الثاني: أن تكون المعلومة صحيحة بذاتها، لكن ربطها بالآية خطأ؛ لأنَّ الآية لا تدل عليها بحال.

فالمعلومة لو حكيت دون ربطها بالآية لكانت صحيحة لا يُخالف في صحتها، لكن الذي يُخالف فيه هو كون الآية دلت عليها. وقد يكون الربط هنا بنص ظاهر، أو بتفسير صحيح...» ثم ذكر أمثلة على ذلك.

(٢) **ينظر:** الإبانة: (ص١١٦).

وذلك بأن تدل عليه الآية بأحد وجوه الدلالة أو بقاعدة من قواعد الاستنباط الصحيحة. وعند اختلال هذا الشرط فإنه يُحكم بعدم صحة ارتباط المعنى بالآية التي استخرج منها، ولو صح هذا الاستنباطُ من طريق آخر.

ولذلك نجد عددًا من المفسرين يؤكد صحة المعنى المستنبط، ولكن بعدم ربطه بالآية التي استخرج منها، بل بربطه بدليل آخر، ومن ذلك ما قاله ابن عطية على استنباط بعضهم في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] **بأن المعنى**: لا يُؤخَذ أحدٌ بذنب أحد. **قال**: «وهذا صحيحٌ في نفسه، لكن مِنْ غير هذه الآية»[(١)].

ج ـ **أن يكون مما للرأي فيه مجال**. فما استأثر الله بعلمه لا سبيل لأحد للوصول إليه. ومما استأثر الله بعلمه، قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

د ـ **أن يكون مجال إعمال الذهن في الاستنباط من ألفاظ القرآن لا من لفظ التفسير أو الترجمة للقرآن**؛ لأنه لا يصح أن يقال إن التفسير أو الترجمة قرآن، ولأن القرآن أنزله الله باللفظ العربي للدلالة على أحكامه بأساليبه المتنوعة في إفادة تلك الأحكام، ولأن ألفاظ القرآن لها دلالتها بالعبارة والإشارة والاقتضاء، ولها مفهوم ومنطوق، وكل ذلك يؤخذ منه الأحكام، والتفسير والترجمة مهما كانا دقيقين لا يحلَّان محل القرآن في ذلك كله[(٢)].

---

(١) المحرر الوجيز: (١/ ٣٩٣).

(٢) **ينظر**: منهج الاستنباط من القرآن الكريم: (ص٢٢٨).

المطلب الثالث

أساليب الاستنباط

من المفيد أن يتعلم المتدبر أساليب الاستنباط، ويعرف أنواعها ومأخذها وطرقها؛ لكي يفيد منها في سيره مع كتاب الله تدبرًا وفهمًا واستنباطًا، ومن هذه الأساليب التي يحسن معرفتها ما يأتي(١):

أولًا: الاستنباط بالجمع بين آيتين:

وذلك أنه قد ترد بعض الآيات مبينة لحكم معين، وترد آية أخرى مبينة لحكم آخر؛ وحين يجمع بينهما المتدبر يظهر له حكمٌ جديدٌ لم يُتفطَّن له، ومن ذلك قصة الرجل الذي تزوج امرأة فولدت له في ستة أشهر، فانطلق إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فأمر بها أن تُرجم، **فدخل عليه علي بن أبي طالب** رضي الله عنه **فقال**: «إن الله يقول في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] فكم تجد بقي إلا ستة أشهر؟! فقال عثمان: والله ما تفطَّنتُ لهذا!»(٢).

قال ابن كثير: «وهو استنباط قوي صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم»(٣).

---

(١) ذكرتها على سبيل المثال، وليس الحصر والترتيب، وللاستزادة يراجع كتاب: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر: (ص١٥٩ ـ ١٨٢)، وكتاب: منهج الاستنباط من القرآن الكريم: (ص٢٩٥).

(٢) **ينظر**: تفسير الطبري: (٢٥/ ٦١)، وابن كثير: (٧/ ٢٨٠). جاء في البحر المحيط لأبي حيان: (٨/ ٦١) **ما نصه**: «وقد كشفت التجربة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر كنص القرآن». **وقال الآلوسي في روح المعاني**: (١٣/ ١٧٥): «وبه قال الأطباء».

(٣) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ٢٨٠).

ثانيًا: الاستنباط بدلالة النص (مفهوم الموافقة):

مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فهذا اللفظ يدل بعبارته على تحريم التأفيف للوالدين. ويستنبط منه بدلالة النص (مفهوم الموافقة) تحريمُ زجرهما بأي كلمة. **قال الشيخ الشنقيطي**: «فالضرب المسكوت عنه أولى بالحكم الذي هو التحريم من التأفيف المنطوق به مع القطع بنفي الفارق»(١).

ثالثًا: الاستنباط بإعمال مفهوم المخالفة (دليل الخطاب):

وهو الاستدلال بتخصيص الشيء بالذكر على نفي الحكم المذكور في المنطوق عما عداه، وسمي مفهوم مخالفة؛ لأن الحكم الذي يثبت للمسكوت نقيضٌ للحكم المنطوق به مختلف عنه، وهو حجة عند جمهور العلماء(٢). **ومن ذلك استنباط الإمام الشافعي وقوع الرؤية من قوله تعالى**: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] **قال**: «لما أن حَجَبَ هؤلاء في السَّخَط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرِّضا»؛ فاحتج بهذه الآية التي منطوقها صريح في حجب الكفار عن الرؤية، واحتج بمفهوم المخالفة على إثبات الرؤية لأهل الإيمان(٣).

رابعًا: الاستنباط بدلالة الإشارة:

وهي: دلالة اللفظ على حكم غير مقصود، ولا سيق له النص،

---

(١) أضواء البيان: (٤/ ٦٠٣).

(٢) **ينظر**: روضة الناظر لابن قدامة: (ص٢٧٠).

(٣) **ينظر**: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، للالكائي: (٣/ ٥٠٦).

ولكنه لازم للحكم الذي سيق لإفادته الكلام[١].

مثاله: قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]. استُنبط منه بدلالة الإشارة أن الذين هاجروا من مكة قد زالت أملاكهم عمَّا خلَّفوا بمكة؛ لاستيلاء الكفار عليها. ووجه الاستنباط: أن الله تعالى سمَّاهم فقراء، والفقير حقيقة من لا يملك المال، لا من بعدت يده عن المال[٢].



(١) **ينظر**: مذكرة أصول الفقه للشنقيطي: (ص٢٣٦).

(٢) **ينظر**: أصول السرخسي: (١/ ٢٣٦).

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

معرفة آثار التدبُّر

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: أثر تدبر القرآن الكريم على الفرد والمجتمع.
- المبحث الثاني: أثر تدبر القرآن الكريم على الأمة.





أثر تدبر القرآن الكريم على الفرد والمجتمع

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: أثره الإيماني.
- المطلب الثاني: أثره النفسي.
- المطلب الثالث: أثره السلوكي.


المطلب الأول


أثره الإيماني

إذا أصبح المؤمن تاليًا لكتاب ربِّه آناء الليل وأطراف النهار، خاشعًا بتلاوته، ممتثلًا لأوامره ونواهيه، متفكرًا في آياته ومعجزاته ـ ظهر أثر هذه الأمور عليه ظهورًا يغبطه الناس عليه؛ كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ بقوله: (**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**)[1]؛ وإن أول ما يظهر من هذه الآثار الأثر الإيماني الوجداني الذي هو لبّ الفلاح وأساسه، وحينها يبشر المتدبر بوجل القلب وانتفاعه، وامتثال الجوارح وانصياعها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

فهذه الآية بينت أثر التدبر على أولئك المؤمنين، الذين جمعوا بين العلم والعمل، جمعوا بين أعمال القلوب وأعمال الأبدان، فأصبحوا: ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ وذلك لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده. وقد قدَّم الله تعالى أعمال القلوب هنا؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها. وأنه ينبغي للعبد المتدبر أن يتعاهد إيمانه وينميه، وأن أولى

---

(١) صحيح الإمام مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل من يقوم بالقرآن... حديث رقم: (٨١٥).

ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه[(١)].

إنَّ أهل القرآن المتدبرين له يؤمنون بالله حق الإيمان، ويعرفونه حق المعرفة، فيخلصون عبادتهم كلها له ﷻ، وتراهم يخشون الله في السر والعلن، فلا يُقدِمُون على عمل أو قول حتى يعرضوه على ربهم هل يرضاه أم يسخطه، فهم يعبدون الله كأنهم يرونه ويعلمون أنه يراهم في سكناتهم وحركاتهم.

إن أعظم أثر إيماني يقدمه القرآن هو هداية القلب من عند الله ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، وإن أثر التدبر على قلب المؤمن يزداد كلما ازداد المؤمن تدبرًا لآيات ربه، حتى ينتهي به إلى الاطمئنان والراحة والسعادة؛ وذلك لأن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، ولا يحول بينه وبينه شيء إلا النفاق أو الكفر الذي يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه؛ فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في آياته المتكررة زيادة في الإيمان والتدبر، تُبلغ إلى الاطمئنان؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وذلك أثر عظيم لا يعرف حقيقته إلا من ذاقه وعرف أثره، وحينها سيدرك مقصود الدعوة لتدبر القرآن؛ إذ بها حياة الأفراد والجماعات.

وكما أن هذا الكلام ينطبق على الأفراد فإنه كذلك ينعكس على المجتمع، فإذا اهتم المجتمع بالقرآن تلاوة وتدبرًا وخشوعًا انعكس ذلك على أخوَّته ومحبته وترابطه وأمنه واستقراره؛ وإذا شعر المجتمع بهذا وعايشه واقعًا ملموسًا فإنه سيتمسك بذلك ويحافظ عليه، وسيبحث عن الأسباب والوسائل التي تسعى لنشر ثقافة التدبر بين أبناء مجتمعه؛ ليحيا حياة إيمانية طيبة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

(١) تفسير السعدي: (ص٣١٥).

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وبالجملة: فالقرآن الكريم يبعث بين المجتمع المسلم على التراحم والتوادِّ بين أفراده، وينشر العدل والإنصاف والمساواة، وإثبات الحقوق لأصحابها، وهذا كله يزيد الأفراد خشية لربهم وتضرُّعًا إليه، فيزداد المجتمع إيمانًا ويقينًا، وتمسكًا وتوحيدًا؛ فيكون كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى(١).



(١) **ينظر**: من الآثار الإيمانية لتعليم وتعلم القرآن الكريم على الفرد والمجتمع د. شعبان رمضان.



المَطْلَبُ الثَّانِي



أثره النفسي

إنَّ أثر تدبر القرآن على النفس البشرية عظيم؛ فكم من عقول غيَّرها، وأفكار صحَّحها، ونفوس طيَّبها، وهموم فرَّقها، وأمراض شفاها، وكيف تقاوم الأدواء كلامَ ربِّ الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، وعلى الأرض لقطعها؟! فما من مرض من أمراض القُلُوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهمًا في كتابه؟![1]

إن القوم الذين يداومون على قراءة كتاب الله بتدبر وخشوع هم من أبعد الناس عن الحزن والضيق والقلق. فكما أنَّ الروحَ إذا دخلتِ الأبدانَ حرَّكتها وأحيتها، كذلك تدبر القُرآن إذا دخل القلوب، فإنَّه يُحييها ويحركها لخشية الله ومَحبته، أمَّا إذا خلت القلوبُ من القرآن وتدبره، فإنَّها تموت، كما أنَّ الجسمَ إذا خَلَا من الروح، فإنه يموت. قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨]. **قال ابن كثير:** «يقول تعالى ممتنًّا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ **أي**: زاجرًا عن الفواحش، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾؛ **أي**: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ **أي**: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنَّما ذلك

(١) **ينظر**: زاد المعاد، لابن القيِّم: (٤/ ٣٥٢).

للمؤمنين به والمصدِّقين الموقنين بما فيه...»[١].

إن أثر التدبر النفسي مخرج لأزمات الفرد ومشكلاته، وقد جاء في القرآن الكريم الشفاء لكثير من الأمراض النفسية والاجتماعية المنتشرة بين عدد من أفراد المجتمع مسببة العديد من المشكلات الخطرة، التي لا يقف خطرها عند الفرد وحده؛ بل تمتد لتشمل شرائح متعددة من المجتمع.

وذلك لما في قراءة القرآن بتدبر وخشوع من تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان، فهو يهز وجدانه، ويرهف أحاسيسه ومشاعره، ويصقُل روحه، ويوقظ إدراكه وتفكيره، ويجلِّي بصيرته، فإذا بالإنسان بعد أن يتعرض لتأثير القرآن يصبح إنسانًا جديدًا كأنه خلق خلقًا جديدًا.

وقد بيَّن القرآن الكريم أثر ذلك وما يحدثه على متلقِّيه من أمن وطمأنينة؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

إن كل من يقرأ تاريخ الإسلام ويتتبع مراحل الدعوة الإسلامية منذ أيامها الأولى، ويرى كيف كانت تتغير شخصيات الأفراد الذين كانوا يتعلمون الإسلام في مدرسة الرسول ﷺ - يستطيع أن يدرك إدراكًا واضحًا مدى التأثير العظيم الذي أحدثه القرآن الكريم ودعوة الإسلام في نفوسهم وفي مجتمعهم، وقد أثبتت كثير من الدراسات المعاصرة أثر القرآن على الصحة النفسية للفرد والمجتمع، وتحصينهما من الأمراض النفسية والاجتماعية[٢]، ولذلك فلا عجب أن نجد أن أشهر علماء النفس

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٣٦).

(٢) **ينظر في ذلك**: «دراسة ميدانية على حفاظ وحافظات القرآن الكريم بمعهد الإمام =

في العصر الحديث قد أبانوا ذلك ولم يستطيعوا إخفاء هذه المعجزة الخالدة في أثر القرآن النفسي على الفرد والمجتمع، **حيث يقول بعضهم**: «إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان»[١]، وقد جاء بيان ذلك في كتاب الله سابقًا هذه التجربة؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. **ويقول الآخر**: «المرء المتديِّن لا يُعاني قطُّ مرضًا نفسيًّا»[٢]، وقد جاء بيان ذلك قبله في كتاب الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

إنَّ النفوس المؤمنة حين تتلقى كتاب الله ﷻ بتدبر وخشوع وخضوع، فستعيش حياة الراحة والاستقرار في نفوسها ونفوس مجتمعها، فالقرآن جاء في أوصافه أنه (مبارك)؛ وإن من آثار هذه البركة الراحة النفسية للأفراد والمجتمعات.



= الشاطبي مقارنة مع عينة من طلاب وطالبات جامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة» أعدَّها: الدكتور صالح بن إبراهيم الصنيع أستاذ علم النفس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

(١) عالم النفس الأمريكي: وليم جيمس. **ينظر**: أثر القرآن في الأثر النفسي، ناهد الخراشي.

(٢) بريل أحد المشاهير في التحليل النفسي. المرجع نفسه.

 المطلب الثالث 

أثره السلوكي

المتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن من أهم مقاصدها وغاياتها العظمى هو تهذيب سلوك المتلقي وأخلاقه، وتزكية نفسه، والرقي بها إلى معالي الأمور ومكارم الأخلاق؛ حتى يصير من أفضل الناس سلوكًا، وأنبلهم أخلاقًا، وأحسنهم سيرةً وتعاملًا، وأكرمهم شيمًا ومروءة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]؛ فهداية القرآن أفضلُ في كل شيء، ومنها الهداية إلى أفضل وأحسن مقامات السلوك والأخلاق، ومن أجل ذلك بعث الله رسوله محمدًا ﷺ لعباده؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وليتمِّم لهم صالح الأخلاق[1]، ويزكيهم لأحسن الأقوال والأفعال، وهو الذي أثنى عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، **وروي عن عائشة** رضي الله عنها **قالت**: «فإنَّ خُلقَ نَبِيِّ الله ﷺ كانَ القُرآنَ»[2]، ولذلك منَّ الله على المؤمنين بأن بعث فيهم أفضل رسله؛ يتلو عليهم آياته، ويعلمهم القرآن والسُّنَّة، ويزكيهم بتهذيب سلوكهم، وتزكية نفوسهم، وتقويم أخلاقهم، وتطهيرها من الرذائل، وسفاسف الأمور، وضلالات الجاهلية، وتنمية خلق الغيرة على محارم الله عمومًا أن تنتهك وعلى حدوده أن تضيَّع.

والغيرة على الزوجة والبنات والمحارم ونساء المسلمين أن تنتهك

---

(١) روى الإمام أحمد في مسنده (٨٩٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **(إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)**. وصححه ابن عبد البر في التمهيد: (٢٤/ ٣٣٣).

(٢) سبق تخريجه: (ص١٢١).

أعراضهن أو تُداس كرامتهن أو يُخدش حياؤهن، والمحافظة عليهن، كما يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وينقذهم من الشرك وعبادة الأصنام إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الخيانة إلى الأمانة وحفظ العهود، ومن التجبر والتكبر والخيلاء والفخر إلى التواضع والحلم وحسن المعاملة، ومن الكذب إلى الصدق، ومن التهاجر والتقاطع إلى التراحم وصلة الرحم والأخوة الإسلامية، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ولنا في هدي رسول الله وسيرته الطيبة وشمائله وأخلاقه الأسوة والقدوة الحسنة، وقد أنزلت على الرسول ﷺ في كتابه الكريم آيات كثيرة تحثُّ المؤمنين على التحلي بأحسن الأخلاق، وتهذب سلوكهم وتزكي نفوسهم، ومن ذلك ما ورد في صفات عباد الرحمٰن في سورة (الفرقان) في قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ فوصفهم الله سبحانه بإحدى عشرة خصلة من خصال الخير والأخلاق؛ **وهي**: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والتقتير، والنزاهة من الشرك، والبعد عن الزنى والقتل، والتوبة إلى الله، والابتعاد عن الكذب وشهادة الزور، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ والنصيحة، والابتهال إلى الله والالتجاء إليه والتضرع بين يديه وسؤاله من خيري الدنيا والآخرة.

ومنها: ما ذكره الله من قصص القرآن الكريم في وصايا لقمان الحكيم لابنه؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]

إلى قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦].

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقد ذكر جمع من العلماء أن هذه الآية أجمع آية وردت في البر، والفضل، والإحسان، ومكارم الأخلاق.

ومن الآيات التي تمثل أنموذجًا فريدًا في التربية الإسلامية الحكيمة وتهذيب النفوس وتزكية السلوك والأخلاق، وبها سعادة المجتمع والفرد في الدنيا والآخرة: آيات الوصايا العشر؛ وهي قول الله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

والمسلم إذا تدبر كتاب الله المطهّر؛ أمرًا أو نهيًا، أو قصصًا عن الأمم الماضية واعتبر بما فيها من الحكمة والمواعظ والعبر، وسبب هلاك الأمم الضالة السابقة، ونجاة المؤمنين المهتدين، فاجتنب طريق الضالين المفسدين والمنافقين، واتبع طريق أولياء الله المتقين، وتقرب إلى الله في السر والعلن بصالح العمل، وأدى العبادات من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج كما شرع الله حجّة كاملة بأركانها وواجباتها مخلصًا بذلك وجهه لله تعالى، وأحسن معاملته للناس، واقتدى بأخلاق المصطفى ﷺ ـ فإن نفسه تسمو، وهمته تعلو وتتطلع إلى معالي الأمور

ومكارم الأخلاق، وتعزف عن سفاسف الأمور ورذائل الأخلاق، وينعكس ذلك على سلوكه وأخلاقه، ويكون ذلك سببًا لاستقامته ظاهرًا وباطنًا، وعاصمًا له من الوقوع في مزالق الشهوات، وضلالات الشبهات.

وبعد؛ فكما أن لتدبر القرآن الكريم أثرًا عظيمًا على الفرد والمجتمع المسلم، فهو كذلك يجري على الأُمَّة المسلمة؛ وذلك لأنَّ هذا المجتمع الذي يعيشُ بالقرآن دومًا حين يستقيم أفراده لا بد أن تستقيم بهم الأمة؛ لأنه باستقامة الأفراد تستقيم الأمة؛ لأنَّ الأمة ما هي إلا أفراد، فالفرد أساسها ولَبِنتها، فإذا صَلَحَت اللبنة صَلَحَ كل ما تؤلفه.

وكثير من الخطابات القرآنيَّة جاءت تُخاطب الأُمَّة جميعها؛ بل هناك خطابات للناس أجمعين، ومن هذه الخطابات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وما من شك في أنَّ كل خطاب من هذه الخطابات مَعنيٌّ به الأفراد، كلُّ فردٍ على وجه الخصوص، ومَعنيٌّ به الأمة جميعها على وجه العموم.

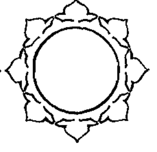
وبناءً على ذلك، فكُلُّ أثر من هذه الآثار السابقة التي ذكرنا أنَّها تعود على الأفراد والمجتمعات، فهي آثار إيمانية تعود ـ أيضًا ـ على الأمة المسلمة، فإذا أردنا أن نُقوِّم الأمة تقويمًا إيمانيًّا ـ من خلال القرآن الكريم ـ فلا بد أنْ نقوِّم أنفسنا كأفراد أولًا؛ لأنَّ الأمة ما هي إلا أفراد، فإذا سعى كلٌّ منا إلى تقويم نفسه، واستشعر هذه المسؤولية على عاتقه، فسيمتد الأثر بالطبع إلى من حوله(١).

---

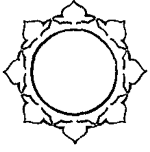
(١) **ينظر بحث**: الطاعة وأثرها في القرآن الكريم، للدكتور: شعبان رمضان، بحث منشور بحوليَّة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر بالقاهرة، عدد: (٢٣، ٢/ ٦٣٦).

وكما أنَّ المشتغل بالقرآن تعليمًا وتعلمًا يسيطر القرآن على مشاعره، ويحدث التغيير في قلبه، فكذلك الأمة التي تنشغل بالقرآن لا بد أنَّ القرآنَ سيسيطر على اتِّجاهاتها، ويحدث التغيير فيها بأسرها، وكما أن القرآن يعرِّف العبد بربه، ويَربط به سبحانه، ويكون باعثًا له على خشية الله والفزع إلى ذكره، فكذلك في الأُمَّة يربطها بربها، ويكون باعثًا لها على الفزع إلى طريق الله في كل أمورها ومُعاملاتها. ومن هنا جاء الحديث في المبحث الآتي عن أثر تدبر القرآن على الأمة.





المَبْحَثُ الثَّانِي



أثر تدبر القرآن الكريم على الأمة

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: أثره الأمني.
- المطلب الثاني: أثره الاقتصادي.
- المطلب الثالث: أثره السياسي.



المَطْلَبُ الأَوَّلُ



أثره الأمني

إنَّ أثر تدبر القرآن على الأمة جمعاء عظيم، وإن من أبرز آثاره: الأثر الأمني الذي يجمع للحياة الإنسانية جميع الأحوال الصالحة؛ من الصحة والرزق والرخاء والأمن والاستقرار والعيش الرغيد. **فالأمة القرآنية ستنعم بنعم كثيرة من أهمها:** الأمن وعدم الخوف على مستقبلها ومستقبل أبنائها، ومفهوم الأمن في القرآن شامل لكل جوانب الحياة المادية والمعنوية، وهو شامل للجميع أفرادًا وجماعات، وذلك لعموم مقاصد الشريعة في حفظ ما يُعرف بالكليات الخمس (الدين ـ النفس ـ العقل ـ العِرض ـ المال)[١].

وحين ننظر في مدلول كلمة (الأمن) في اللغة نجد أنها شاملة موافقة لما جاء في كتاب الله ﷻ، **فالأمن في اللغة:** ضدُّ الخوف ونقيضه، والأصلُ أن يُستَعمَلَ في سُكُون القلب[٢]، الذي يعني الراحة النفسية والطمأنينة والاستقرار وعدم الخوف، **قال ابن فارس:** «**الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان؛ أحدهما:** الأمانة التي هي ضد الخيانة؛ **ومعناها:** سكون القلب، **والآخر:** التصديق»[٣].

وعرفه الجرجاني في «التعريفات» بأنه: «هو عدم توقُّع مكروه في الزمان الآتي»[٤]، وهذا فيه معنى الطمأنينة والاستقرار.

---

(١) **ينظر:** مقاصد الشريعة، للطاهر بن عاشور: (ص٧).

(٢) لسان العرب، لابن منظور: (١٣/ ٢١)، القاموس المحيط للفيروزابادي: (ص١٥١٨)، المفردات في غريب القرآن للأصفهاني: (ص٩٠).

(٣) مقاييس اللغة، لابن فارس: (١/ ١٣٣).

(٤) التعريفات: (ص٥٥)، **وينظر:** المفردات في غريب القرآن للأصفهاني: (ص٩٠).

أما عند المفسرين فقد قال ابن عاشور عنه: «الأمن: حالة اطمئنان النفس، وراحة البال، وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك؛ ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] إنه جمع في هذه الجملة جميع ما يطلب لخير البلد»[١].

إن الأمة القرآنية التي يتجه حكامها ومحكوموها إلى كتاب ربها علمًا وعملًا وتدبرًا، هي التي ستنعم بالأمن الذي هو أهم الأسس وأبرز القواعد التي يقام عليها صرح الحضارات، وهو اللغة الرسمية التي يتميز بها الفرد المتحضر والمجتمع المتقدم والأمة الواعدة، التي تدرك ما ينطوي عليه المناخ الآمن من عوامل حضارية فتية، وعناصر فاعلة تقود إلى صنع مجتمع حضاري متقدم، يحظى بالاستقرار وينعم بالسكينة ويتفيأ ظلال الأمن وحياة الرفاهية.

ولعلَّ من يدقق النظر في القرآن المجيد يدرك احتواءه لجميع الجوانب التي يتحقق بها الأمن على جميع الأصعدة، التي هي أثر من آثار تدبره والإيمان به، **ومن ذلك ما يلي:**

● **الأمن والاستقرار في البلاد،** قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٦]؛ فاستجاب الله دعاء أبينا إبراهيم بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧]، وكان هذا من تكريم الله سبحانه لبيته هذا ـ

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: (١٣/ ٥٥).

حتى والناس من حوله في جاهلية وخوف امتنَّ الله به على العرب: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]. ويوسف عليه السلام يطلب من والديه دخول مصر مخبرًا باستتباب الأمن بها بعد قيام العدل فيها: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

• **الأمن في المعارك والشدائد والأزمات**، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]، وقال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤]. **وعن أنسٍ، عن أبي طلحة** رضي الله عنهما**، قالَ**: «كنتُ فيمَن تَغشَّاهُ النُّعاسُ يومَ أُحُدٍ حتى سَقَطَ سَيفِي مِن يَدِي مِرارًا؛ يسقطُ وآخذُهُ، ويسقُطُ فآخُذُهُ»[1]. **قال ابن القيِّم**: «وأنزل الله عليهم النُّعاس أمنةً منه في غزوة بدر وأحد، والنُّعاس في الحرب وعند الخوف دليل على الأمن، وهو من الله...»[2].

• **النجاة من أهوال يوم القيامة**، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. **يقول الطبري**: «يقول تعالى ذكره: لهؤلاء الذين يُلحدون في آياتنا اليومَ في الدنيا يومَ القيامة: عذابُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٦٨): كتاب المغازي، باب: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾... الآية، [آل عمران: ١٥٤].
(٢) زاد المعاد، لابن القيِّم: (٢/ ١٨٢).

النار، ثم قال الله: أفهذا الذي يُلقى في النار خير، أم الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله لإيمانه بالله ﷻ؟ هذا الكافر، إنه إن آمن بآيات الله، واتبع أمر الله ونهيه، أمَّنه يوم القيامة مما حذَّره منه من عقابه، إن ورد عليه يومئذ به كافرًا»[1]. وفي هذا اليوم الرهيب أيضًا يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

• **الأمن لأهل الجنة**، قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، **قال ابن القيِّم**: «قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١ ـ ٥٢]، **والمقام الأمين**: موضع الإقامة، **والأمين**: الآمن من كل سوء وآفة ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنَّغَصِ والنَّكَد...، وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]، وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]، فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام؛ فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها؛ فلا يخافون ذلك، وأمن من الموت؛ فلا يخافون فيها موتًا»[2].

• **تحقيق الإيمان بالله**: فالعلاقة قوية بين الأمن والإيمان، فالمجتمع إذا آمن أمن، وإذا أمن نمى؛ فعاش أفراده مع الأمن حياة طيبة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. **فالذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين: أولهما**: الإيمان وهو كمال القوة

---

(١) تفسير الطبري: (٢٠/ ٤٤٢).
(٢) حادي الأرواح: (ص١٠٠ ـ ١٠١).

النظرية. **وثانيهما**: ولم يلبسوا إيمانهم بظلم وهو كمال القوة العملية[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة؛ كان له الأمن التام والاهتداء التام»[٢].

فإن الأمن والعافية والسرور، ولذة القلب ونعيمه وبهجته، وطمأنينته: مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادةِ، والخوفُ، والهم، والغم، والبلاء، والألم، والقلق: مع الضلال والحيرة[٣].

• **التمكين والاستخلاف في الدنيا**، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]؛ ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ﷺ ؛أن يستخلفهم في الأرض، وأن يمكِّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدِّلهم من بعد خوفهم أمنًا... ذلك وعد الله، ووعد الله حق، ووعد الله واقع، ولن يُخلف الله وعده.

«فهذا وعد عام في النبوة والخلافة وإقامة الدعوة وعموم الشريعة، فنفذ الوعد في كل أحد بقدره وعلى حاله... وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين، فهذا نهاية الأمن والعز»[٤].

والمتتبع لحال المسلمين يجد أنه كلما كانت الأمة المسلمة مطيعة لله ورسوله ﷺ، يحكم التوحيد حياتها كاملة ـ كان الأمن على قدر ذلك،

(١) مفاتيح الغيب: (١٢/ ٤٩).
(٢) **ينظر**: مجموع الفتاوى: (٧/ ٨١).
(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيِّم: (٢/ ١٧٢).
(٤) تفسير القرطبي: (١٢/ ٢٩٨).

ولذلك كان الآمنون في الدنيا، هم أهل الإيمان. **وصرح الماوَرْدي**[١] **بأن صلاح الدنيا وانتظام أمرها بستة أشياء، منها:** «أمنٌ عام تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويَسْكُن فيه البريء، ويأنس به الضعيف؛ فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة»[٢].

● **شكر النِّعَم**، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ٢١]. وهكذا نجد في هذه الآيات أن استقرار الأمن مربوط بشكر النعمة، وأن زواله مقرون بكفرها.

● **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، وهو مطلب مهم لمن أراد النجاة لنفسه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

إن الأمة التي يسود بين أهلها الإيمان بالله ﷻ وتدبر كتابه، لا شك أنها أمة آمنة مطمئنة؛ فهي لا ترضى بغير شرع الله ﷻ بديلًا، ولا تقبل

---

(١) علي بن محمد بن حبيب، القاضي أبو الحسن، البصري، الشافعي، أحد أئمة الشافعية، له التصانيف الكثيرة في كل فن من العلم، وكان حافظًا للمذهب، وولي القضاء ببلاد كثيرة، توفي سنة (٤٥٠هـ). **ينظر**: لسان الميزان: (٤/ ٢٩٩)، طبقات المفسرين للسيوطي: (ص٧١).

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي: (ص١١١ ـ ١١٩).

الاستسلام إلا لحكمه، وهذا بِدَوْرِه سيضفي الأمن والأمان عليها وعلى أبنائها، وإذا انحرف الناس عن هذا المنهج ضاع الأمن، وهلك العباد، وسقطت البلاد وجَرَتِ السُّنة كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].



المَطْلَبُ الثَّانِي

أثره الاقتصادي

جاء القرآن لينظم حياة الأفراد بما يحقق لهم عبودية الله ﷻ في الأرض، ومهمة الاستخلاف، ولم يدع مجالًا من مجالات الحياة إلا وبيَّن ما يحتاجه الإنسان من أحكام وتصورات تحقِّق الكثير من المصالح الدنيوية والأخروية، ومن ذلك تنظيم احتياج الناس لكسب المال وتوفير الاحتياجات الحياتية الخاصة بهم، وقد كانت حياة النبي ﷺ وحياة أصحابه من بعده هي الأنموذج الأمثل لتطبيق هذا التشريع الاقتصادي البديع.

وإن الأثر الاقتصادي لتدبر كتاب الله ﷻ والعمل بما فيه على صعيد الأمة؛ جاء موضحًا مبينًا في عدة هدايات قرآنية، وآيات ربانية، وهي قاعدة قرَّرها القرآن في مواضع متفرقة، قاعدة صحيحة تقوم أسبابها على وعد الله وسُنَّة الحياة؛ كما أن الواقع العملي يشهد بتحقُّقها على مدار القرون. فما من أمة قامت بكتاب ربِّها المنزَّل إليها، وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعًا، إلا فاضت فيها الخيرات، ومكن اللهُ لها في الأرض، واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح.

جاء ذلك ظاهرًا بيِّنًا في قوله سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]؛ وهذا القول ينطبق على كل أهل كتاب، أنهم لو حققوا في حياتهم منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل، وما أنزله الله إليهم من التعاليم، كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل - لرُزقوا من كلّ سبيل،

ولصلَحت حياتهم ونمَت أرزاقهم، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ووفرة النتاج، ففي الآية تعميم لجهات الرزق.

بل إن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا لا يكفُل لأصحابه جزاء الآخرة وحدَه، وإن كان هو المقدَّم وهو الأدوم، ولكنه كذلك يكفُل صلاح أمر الدنيا ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة وفرةً ونماءً وحسن توزيع، وكفاية يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض، فإقامة كتاب الله وتحكيمه والرجوع إليه يكفل صلاح الحياة الأرضية وفيض الرزق ووفرة النتاج وحسن التوزيع؛ حتى تأكل الأمة جميعًا في ظل هذا المنهج من فوقهم ومن تحت أرجلهم[١].

فهاتان الآيتان تقرران أصلًا كبيرًا من أصول التصور الإسلامي في التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس، وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض، فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب ولكل أمة من الناس، أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا، وأن تكفَّر عنهم سيئاتهم ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة، وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة، وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان، بشرط تدبرهم لكتاب ربِّهم علمًا وعملًا وفهمًا وتطبيقًا[٢].

وفي القرآن مواضع أخرى متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله وقربها من كتاب الله، وبين تيسير الأرزاق، وعموم الرخاء، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ

---

(١) **ينظر**: تفسير ابن كثير: (٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، وتفسير السعدي: (ص٢٣٨)، والتحرير والتنوير: (٤/ ٣١٤).

(٢) **ينظر**: في ظلال القرآن: (٢/ ٩٣٠).

ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف ٩٦]، وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وجاء في موضع: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٢ ـ ٣]، وجاء على لسان نبيِّ الله نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢]، وغيرها من الآيات المبينة لهذه الحقيقة الربانية.

۞ **إن المسلمين اليوم وهم يعيشون في هذه الحالة الاقتصادية المأساوية على مستوى الفرد والأمة،** لهُم بحاجة ماسَّة للرجوع إلى كتاب ربِّهم، والتمسُّك بمنهاجه، فأثره عليهم عظيم في نهضتهم وتمكينهم كما وعد الله وكما وقع ذلك عِبر القرون الطويلة، وإن تردِّي أحوال الأمة الاقتصادية، وانتشار الفقر والبطالة بين أبنائها، وقلة البركة والرزق في بلدانها، وكثرة الديون وتراكمها عليها(١)، كله بسبب: بُعد الأمة عن كتاب الله ﷻ وتدبر آياته، وتطبيق أحكامه، وإنه لا خلاص من هذا كله إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، والتاريخ خير شاهد على ذلـــك: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].



(١) الإحصائيات تقول: إن أكثر من ثلث العالم الإسلامي اليوم يعيشون تحت خط الفقر، والله المستعان. **ينظر**: أرقام تحكي العالم، محمد صادق مكي: (ص٣٣).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

أثره السياسي

*** في بداية هذا المبحث لنا أن نتساءل: هل لتدبر القرآن أثر في الجانب السياسي على الأمة؟**

والجواب عن ذلك يحتاج إلى دليل من الشرع والعقل: أمَّا من جانب الشرع: فإننا لو تأملنا في نصوص القرآن الكريم لوجدنا أن القرآن الكريم في مواضع كثيرة يَعِدُ الأمة ـ إذا هي رجعت إلى كتاب ربِّها، وأقامت دينها ـ بالتمكين والهيمنة على الأمم؛ بل إن القرآن الكريم يبشِّر المؤمنين بأن التمسك بهذا القرآن يهديهم لأقوم السبل وأفضلها في كل شيء، ومنها الجانب السياسي، فحين تحدث القرآن الكريم عن إفسادين كبيرين لبني إسرائيل مقرونين بعلو واستكبار؛ جاء الحديث بالتوكيد والتقرير بهداية هذا القرآن للتي هي أقوم في كل شيء، وتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير؛ كما قال الله ﷻ في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، **ولا شك أن من أعظم الصالحات**: تدبر القرآن الكريم، **ومن جليل الاستنباط هنا**: أن التبشير القرآني جاء بصيغة الفعل المضارع ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ ذلك الفعل الدال على التجدد والاستمرار، وهذا معناه أن البشرى القرآنية متجددة لكل جيل ولكل حالة على مرِّ العصور[(١)].

وهٰهنا كلام عالم خبير وهو العلامة الشنقيطي؛ بيَّن فيه داء الأمة، ووصف الأثر والدواء، من خلال هدايات هذه الآية العظيمة؛ **حيث**

---

(١) **ينظر**: وعود القرآن بالتمكين للإسلام للخالدي: (ص٦٠).

يقول: «**ومن هدي القرآن للتي هي أقوم**: هديه إلى حل المشكلات العالمية بأقوم الطرق وأعدلها، **ونحن دائمًا في المناسبات نبيِّن هدي القرآن العظيم إلى حل ثلاث مشكلات، هي من أعظم ما يعانيه العالم في جميع المعمورة ممن ينتمي إلى الإسلام؛ تنبيهًا بها على غيرها**:

المشكلة الأولى: هي ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العُدَدِ والعَدَدِ عن مقاومة الكفَّار. وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها؛ فبيَّن أن علاج الضعف عن مقاومة الكفَّار إنما هو بصدق التوجه إلى الله تعالى، وقوة الإيمان به والتوكل عليه؛ لأن الله قوي عزيز، قاهر لكل شيء؛ فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا...

المشكلة الثانية: هي تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح، وأنواع الإيذاء، مع أن المسلمين على الحق والكفار على الباطل.

وهذه المشكلة استشكلها أصحاب النَّبي ﷺ فأفتى الله جلَّ وعلا فيها، وبيَّن السبب في ذلك بفتوى سماوية تتلى في كتابه جلَّ وعلا.

وذلك أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين يوم أُحُدٍ استشكل المسلمون ذلك وقالوا: كيف يُدال منَّا المشركون؟ ونحن على الحق وهم على الباطل؟ فأنزل الله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، فيه إجمال بيَّنه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢] ـ إلى قوله ـ: ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾.

ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين، وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم أمره ﷻ وإرادة بعضهم الدنيا مقدمًا لها على أمر الرسول ﷺ.

المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية؛ لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦] فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يُضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإنْ جامَلَ بعضهم بعضًا فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك.

وقد بيَّن تعالى في سورة (الحشر): أن سبب هذا الداء الذي عَمت به البلوى إنما هو ضعف العقل؛ قال تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: ١٤]، ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي؛ لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتًا، ويضيء الطريق للمتمسِّك به؛ فيريه الحق حقًّا والباطل باطلًا، والنافع نافعًا، والضار ضارًّا»[(١)].

إنَّ الله ﷻ قد وعد رسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض؛ **أي**: أئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد[(٢)]، وهو ما يعبر عنه اليوم بـ(النهضة والتمكين)، ولكن الله ﷻ جعل ذلك مشروطًا بتدبر كتابه وإقامة ما فيه من شرائع وإطاعة رسول الله ﷺ فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥ ـ ٥٦].

قال الشيخ السعدي في «تفسيره»: «أخبر أن الإيمان والعمل

---

(١) أضواء البيان: (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١). (٢) **ينظر**: تفسير ابن كثير: (٦/ ٧٧).

الصالح سبب للاستخلاف المذكور... فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكِّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلَّها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم»[(١)].

أمَّا من الواقع: فالتاريخ هو خير شاهد على العلاقة الوثيقة بين تدبر القرآن الكريم المستلزم العمل بهما وبين نهضة الأمة، بل إن أصل وجود هذه الأمة كأمة لم يكن إلا بالأخذ بهذا الكتاب العزيز، **ومن أفضل من أشار إلى هذه الحقيقة الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية؛ فيقول محتجًّا بالتاريخ:** «وقد فعل تبارك وتعالى ذلك؛ وله الحمد والمنّة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية ـ وهو المقوقس ـ وملوك عُمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تَملَّك بعد أصْحَمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمَّ شَعَث ما وَهَى عند موته عليه الصلاة والسلام، وأطَّدَ جزيرة العرب ومهَّدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صُحبةَ خالد بن الوليد رضي الله عنه، ففتحوا طرفًا منها، وقتلوا خلقًا من أهلها، وجيشًا آخر صُحبةَ أبي عبيدة رضي الله عنه، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد

(١) تفسير السعدي: (ص١٢٦، ٥٧٣).

حَوران وما والاها، وتوفاه الله ﷻ، واختار له ما عنده من الكرامة، ومَنَّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قيامًا تامًّا... وتمَّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر ذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربِّه أتمُّ سلام وأزكى صلاة.

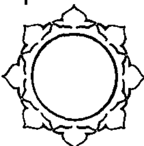
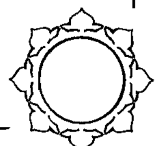
ثم لما كانت الدولة العثمانية[١]، امتدَّت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَةَ مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدًّا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ **وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن**»[٢].

وهذا التعليل الأخير من الإمام ابن كثير الذي ختم به كلامه هو من أجمل الإشارات، وأفضل العبارات التي تبيِّن مغزى هذا المبحث؛ حيث أشار رحمه الله أن بركة القرآن دراسة وتلاوة وعناية انعكست على الجانب السياسي والهيمنة الحضارية على الدولة في عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وعهد من قبله.

❁ **إنَّ الأمة عند رجوعها إلى القرآن لا ترجو بذلك مجد الدنيا وعزَّها فقط، ولكنها تطيع بذلك ربَّها ونبيَّها**، لتفوز بخيري الدنيا والآخرة، وما ذلك العز والمجد على طريق القرآن إلا عاجل البشرى في الدنيا الموصل بإذن الله إلى الفوز بالآخرة والنعيم المقيم.

---

(١) **يعني**: خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. (٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ٧٧ ـ ٧٨).

البَابُ ٱلثَّالِثُ

موانع تدبر القرآن الكريم

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: الوقوع في الشبهات.
- الفصل الثاني: الوقوع في الشهوات.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الوقوع في الشبهات

وفيه ثمانية مباحث:

- المبحث الأول: الجلوس مع أهل البدع، والاستماع إليهم.
- المبحث الثاني: قصر تدبر القرآن على المجتهدين فقط.
- المبحث الثالث: الحرص على تتبُّع شواذِّ القراءات.
- المبحث الرابع: اتباع المتشابه من الآيات.
- المبحث الخامس: الحرص على كثرة التلاوة والحفظ دون التدبر.
- المبحث السادس: قصر معاني القرآن على أحوال خاصة.
- المبحث السابع: الانشغال بتتبع المبهمات.
- المبحث الثامن: ابتداع طرق مزعومة للتدبر.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

الجلوس مع أهل البدع، والاستماع إليهم

الأصل في الجلوس مع أهل البدع ـ إذا لم تكن هناك مصلحة راجحة من وراء ذلك ـ عدم الاستماع إليهم والجلوس معهم، بل إن الجلوس معهم والاستماع إليهم داخل تحت قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨][(١)].

حيث وعظت هذه الآية موعظة عظيمة من يتسمَّح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله ويتلاعبون بكتابه وسُنَّة رسوله ﷺ، ويردُّون ذلك إلى أهوائهم الـمُضلَّة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم، وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزُّهه عما يتلبَّسون به شبهة يشبِّهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حقَّ معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المُضلَّة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسُّنَّة.

فإنه ربما يَنْفُقُ عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه، ما يصعب علاجه ويعسر دفعه؛ فيعمل

---

(١) **ينظر**: المبتدعة وموقف أهل السُّنَّة والجماعة منهم، محمد يسري: (ص٢١٩).

بذلك مدة عمره ويلقى الله به معتقدًا أنه من الحق وهو مِن أَبْطَلِ الباطلِ وأنكر المنكر(١).

ولهذا كان السلف الصالح حريصين على التحذير من مجالسة أهل البدع أو الاستماع إلى شبهاتهم؛ خوفًا من آثارها المؤثرة على قلب المسلم، فإن الشُّبَه خطَّافة، وإذا استقرت في القلب فستؤثر في فكر المرء وسلوكه، ومن ثَمَّ ستكون مانعة للفهم الصحيح لكتاب الله ﷻ، **يوضح ذلك قول الإمام الثوري**: «من سمع ببدعة، فلا يحكِها لجُلسائه، لا يُلْقِها في قلوبهم». **قال الذهبي معلقًا**: «أكثر أئمة السلف على هذا التحذير؛ يرون أن القلوب ضعيفة، والشُّبَه خطَّافة»(٢).

وكان الحسَنُ البصري يقول: «لَا تُجالسوا أهل الأهواء، وَلَا تُجادلوهم، ولا تسمعوا مِنهم»(٣).

ولما كتب رجل إلى الإمام أحمد يستأذنه فيه أن يضع كتابًا يشرح فيه الرَّد على أهل البدع وأن يحضر مع أهل الكلام فيناظرهم ويحتج عليهم؛ **فكتب إليه**: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، أحسن الله عاقبتك، ودفع عنك كل مكروه ومحذور! الذي كنَّا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم أنهم كانوا يكرهون الكلام، والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمور في التسليم والانتهاء إلى ما كان في كتاب الله أو سُنَّة رسول الله ﷺ، لا في الجلوس مع أهل البدع والزيغ لتردَّ عليهم؛ فإنهم يلبِّسون عليك، وهم لا يرجعون، فالسلامة ـ إن شاء الله ـ في ترك مجالستهم والخوض معهم في بدعتهم وضلالتهم، فليتَّق الله امرؤ وليَصِرْ إلى ما يعود عليه نفعه غدًا؛ من عمل صالح يقدمه لنفسه، ولا يكن ممن يحدِث أمرًا فإذا هو خرج منه

---

(١) **ينظر**: فتح القدير، للشوكاني: (٢/ ١٤٦).
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي: (٧/ ٢٦١).
(٣) **ينظر**: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، للالكائي: (١/ ١٥٠).

أراد الحجة، فيحمل نفسه على المحال فيه وطلب الحجة لما خرج منه بحق أو بباطل؛ ليزين به بدعته وما أحدث، وأشد من ذلك أن يكون قد وضعه في كتاب قد حُمل عنه؛ فهو يريد أن يزين ذلك بالحق والباطل، وإن وضح له الحقُّ في غيره، ونسأل الله التوفيق لنا ولك. والسَّلامُ عليك»[١].

وروي عن أبي قِلابة[٢] قوله: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما تعرفون»[٣].

بل إنهم كانوا ـ رحمهم الله ـ يَنُصُّون أن الجلوس إليهم والاستماع منهم يمرض القلب؛ وإذا مرض قلب العبد قلَّ الانتفاع؛ والفهم، **قال الحسن البصري:** «لا تجالس صاحب بدعة؛ فإنه يمرض قلبك»[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقًا: «فبهذا ونحوه رأى المسلمون أن يهجروا من ظهرت عليه علامات الزيغ من المظهرين للبدع، الداعين إليها، والمظهرين للكبائر»[٥]. كل ذلك خوفًا أن يقع في قلب المسلم الصافي شيئًا من شوائبهم أو شؤمهم الصارف عن تدبر كتاب الله، ولهذا بيَّن القرآن الكريم أن عدم تدبر المنافقين للقرآن الكريم سببه الأقفال التي على قلوبهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

---

(١) الإبانة الكبرى، للإمام ابن بطة: (٢/ ٤٧١).

(٢) أبو قِلابة الجرمي عبد الله بن زيد، البصري، قدم الشام، حدث عن: ثابت بن الضحاك في الكتب كلها، وعن: أنس كذلك، ومالك بن الحويرث كذلك، وغيرهم، قال ابن سعد: كان ثقة، كثير الحديث، وكان ديوانه بالشام. اختلف في سنة وفاته، والأكثر على أنها (١٠٤هـ). **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (٤/ ٤٦٨)، الحلية: (٢/ ٢٨٢)، طبقات الفقهاء للشيرازي: (٨٩)، تاريخ ابن عساكر: (٩/ ١٥٦)، تهذيب الكمال (ص٦٨٥، ١٦٤٥).

(٣) **ينظر**: الإبانة الكبرى، للإمام ابن بطة: (٢/ ٤٥٣).

(٤) الاعتصام، للشاطبي: (١١/ ١٣٨).

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢٤/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؛ **أي**: أن عليها أقفالًا لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن[1]، وتأمل تنكير (القلب) وتعريف (الأقفال)؛ فإن تنكير القلوب يتضمَّن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على القلوب أقفالها، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة.

وفي قوله: ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ بالتعريف نوع تأكيد؛ فإنه لو قال: أقفالًا، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم؛ فلما أضافها إلى القلوب عُلم أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد: أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها[2].

فالأولى بالمتدبر للقرآن أن يخاف على قلبه من أهل البدع، وأن يربأ بنفسه عن مجالسهم، فقد يُمنع بجلوسه معهم والاستماع إليهم تدبر كتاب ربِّه، وفهم مواعظه، وتذكر آياته.



(١) أضواء البيان: (٧/٢٥٦).
(٢) التفسير القيِّم لابن القيِّم: (٢/١٢٨).

المَبْحَثُ الثَّانِي

قصر تدبر القرآن على المجتهدين فقط

وهذا الأمر ليس وليد الوقت، وإنما هو قول بعض متأخري أهل الأصول[1]، وأفضل من أبان هذه المسألة وفنَّدها العلامة الشنقيطي في كتابه «أضواء البيان»؛ حيث يقول: «اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وإن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التي لم يَستنِد اشتراطُ كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سُنَّة ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة ـ قول لا مستند له من دليل شرعي أصلًا.

بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين، على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسُّنَّة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما.

أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعًا.

وأما ما علمه منهما علمًا صحيحًا ناشئًا عن تعلم صحيح، فله أن يعمل به، ولو آية واحدة أو حديثًا واحدًا.

ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من لم يتدبر كتاب الله ـ عام لجميع الناس.

---

(١) سيأتي ذكرهم في النص الآتي.

ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكملًا لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلًا.

فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصلاح الأصولي، لَمَا وبَّخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى.

ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذًا فدخول الكفار والمنافقين في الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدمَ تدبرهم كتاب الله، وعدمَ عملهم به!

وقد علمتَ أن الواقع خلاف ذلك قطعًا، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد. والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة من الكتاب والسُّنَّة، لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد، حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع، وبذلك تعلم أن ما ذكره صاحب «مراقي السعود»[١] تبعًا للقرافي[٢] **من قوله**:

(١) **يعني بذلك**: الشيخ عبد الله بن الحاج إبراهيم، ولد سنة (١١٥٢هـ) في منطقة تجكجة الواقعة في الشمال الشرقي من دولة موريتانيا المعاصرة، في أحضان أسرة شرف وعلم وزهد وصلاح، لازم علامة شنقيط في النحو المختار بن بونا (سيبويه شنقيط) عدة سنوات، وأخذ عن غيره من العلماء في بلاد شنقيط، له كتب منها: طلعة الأنوار في مصطلح الحديث، وغرة الصباح في اصطلاح البخاري، ومراقي السعود وشرحه شرحًا سماه نشر البنود، في أصول الفقه، توفي سنة (١٢٣٣هـ). **ينظر ترجمته بقلم:** الهادي بن محمد المختار النحوي، في ملتقى أهل الحديث.

(٢) أحمد بن إدريس بن عبد الرحمٰن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي: من علماء المالكية المشاهير، نسبته إلى قبيلة صنهاجة (من برابرة المغرب) وإلى القرافة (المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي) بالقاهرة، ولد سنة (٦٢٦هـ)، وهو مصري =

مَنْ لَمْ يَكُنْ مُجْتَهِدًا فَالْعَمَلُ مِنْهُ بِمَعْنَى النَّصِّ مِمَّا يُحْظَلُ[1]

لا يصح على إطلاقه بحال؛ لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل.

ومن المعلوم أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسُّنَّة، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

ومن المعلوم أيضًا أن عمومات الآيات والأحاديث الدالة على حثِّ جميع الناس على العمل بكتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ ـ أكثر من أن تُحصى...

فتخصيص جميع تلك النصوص بخصوص المجتهدين، وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسُّنَّة على غيرهم تحريمًا باتًّا ـ يحتاج إلى دليل من كتاب الله أو سُنَّة رسوله ﷺ، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بآراء جماعات من المتأخِّرين المقرِّين على أنفسهم بأنهم من المقلِّدين.

ومعلوم أن المقلِّد الصِّرف، لا يجوز عدُّه من العلماء ولا من ورثة الأنبياء... وقال صاحب «مراقي السعود»، في «نشر البنود» في شرحه لبيته المذكور آنفًا ما نصُّه: **يعني**: أن غير المجتهد يُحظَل له؛ **أي**: يمنع أن يعمل بمعنى نصٍّ من كتاب أو سُنَّة وإن صح سندها؛ لاحتمال عوارضه من نسخ وتقييد، وتخصيص، وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلِّصه من الله إلا تقليد مجتهد؛ قاله القرافي. انتهى محل الغرض منه بلفظه.

= المولد والمنشأ والوفاة، له مصنفات جليلة في الفقه والأصول، منها «أنوار البروق في أنواء الفروق»، و«الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرف القاضي والإمام»، و«الذخيرة» وغيرها، وكانت وفاته سنة (٦٨٤هـ) ودفن بالقرافة. **ينظر**: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي (ص٦٢).

(١) **الحَظْلُ**: المنع؛ يقال: حظلتُ على الرجل، وحظرتُ، وعجرت، وحجرتُ؛ بمعنى واحد. **ينظر**: تهذيب اللغة: (٤/ ٢٦٤).

وبه تعلم أنه لا مستند له، ولا للقرافي الذي تبعه في منع جميع المسلمين غير المجتهدين من العمل بكتاب الله، وسُنَّة رسوله، إلا مطلق احتمال العوارض، التي تعرض لنصوص الكتاب والسُّنَّة، من نسخ أو تخصيص أو تقييد ونحو ذلك، **وهو مردود من وجهين**:

الأول: أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود الناسخ، والعام ظاهر في العموم حتى يثبت ورود المخصِّص، والمطلق ظاهر في الإطلاق حتى يثبت ورود المقيِّد، والنصُّ يجب العمل به حتى يثبت النسخ بدليل شرعي، والظاهر يجب العمل به عمومًا كان أو إطلاقًا أو غيرهما حتى يرد دليل صارف عنه إلى المحتمل المرجوح، كما هو معروف في محله.

وعلى كل حال فظواهر النصوص من عموم وإطلاق ونحو ذلك، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه، من مخصِّص أو مقيِّد، لا لمجرد مطلق الاحتمال، كما هو معلوم في محله.

فادعاء كثير من المتأخرين، أنه يجب ترك العمل به حتى يُبحث عن المخصص والمقيد مثلًا ـ خلاف التحقيق.

الوجه الثاني: أن غير المجتهد إذا تعلَّم آيات القرآن، أو بعض أحاديث النبي ﷺ ليعمل بها، تعلَّم ذلك النصَّ العامَّ أو المطلق، وتعلَّم معه مخصِّصه ومقيِّده إن كان مخصَّصًا أو مقيَّدًا، وتعلَّم ناسخه إن كان منسوخًا، وتعلُّم ذلك سهل جدًّا، بسؤال العلماء العارفين به، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتدِّ بها في ذلك، والصحابة كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها، وحديثًا فيعمل به، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، وربما عمل الإنسان بما علم فعلَّمه ما لم يكن يعلم، كما يشير له قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، على القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذي يفرق به بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ الآيَةَ [الحديد: ٢٨].

وهذه التقوى التي دلت الآيات على أن الله يعلِّم صاحبها بسببها ما لم يكن يعلم، لا تزيد على عمله بما علم من أمر الله، وعليه فهي عمل ببعض ما علم زاده الله به علم ما لم يكن يعلم.

فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة، حتى يحصِّل رتبة الاجتهاد المطلق، هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن، حتى يحصِّلوا شرطًا مفقودًا في اعتقاد القائلين بذلك. وادِّعاء مثل هذا على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله ـ هو كما ترى»(١).

وردَّ على هذه الشبهة أيضًا العالم المحقق الصنعاني بكلام بديع جاء فيه: «إن الله سبحانه كمَّل عقول العباد، ورزقهم فهم كلامه وما أراد، وفهم رسول الله ﷺ، وَحفظ تعالى كتابه وسُنَّة رسوله إلى يوم التناد، بِأن كثيرًا من الآيات القرآنية وَالأحاديث النبوية لا يُحتاج فِي معناها إلى علم النَّحْو وإلى علم الأصول؛ بل في الأفهام والطباع والعقول مَا سارع به إلى معرفَة المراد منها عند قَرعها الأسماعَ من دون نظر إلى شيء من تلكَ القواعِد الأصوليَّة والأصول النَّحْوية، فإن من قرع سَمعه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، يفهم معناه من دون أن يعرف أَن «مَا» كلمة شَرط و﴿تُقَدِّمُوا۟﴾ مجزوم بهَا لأنه شرطها و﴿تَجِدُوهُ﴾ مجزوم بهَا لأنه جزاؤه... ولذا ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامَه وجوابه وهو كلام معرَب في الأغلَب، بل تراهم يسمعُونَ القرآن فيفهمون معناه، ويبكون لقوارعه وما حَواه، ولا يعرفون إعرابًا ولا غيره مما سُقناه.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي: (٧/ ٢٥٨).

بل ربَّما كانَ موقع ما يسمعون في قلوبهم أعظم من موقعه فِي قلوب من حقق قواعد الِاجتهاد وَبلغ غَايَة الذكاء والاتقاد، وَهَؤُلَاء العامة يحضرون الخطب في الجمع والأعياد، ويذوقون مواعظه ويفهمونه ويفتت مِنْهُم الأكباد، وتدمع مِنهُم العُيُون، ويدركون من ذلك ما لا يُدرِكهُ العلماء المُحقِّقون، ويسمعون أحادِيث التَّرغيب والترهيب، فيكثر منهُم البكاء والنحيب، وأنت تراهم يقرؤون كتبًا مؤلفة من الفُروع الفقهية. . . ويفهمون ما فيها ويعرفون معانيها ويعتمدون عليها، ويرجعون في الفتوى والخصومات إليها، فليتَ شِعري ما الذي خصَّ الكتاب والسُّنَّة بالمَنعِ عن معرفَة معانيها، وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها؟ حتَّى جُعلت معانيها كالمقصورات في الخيام؛ قد ضُربت دونها السجوف[1]، وَلم يبق لنا إليها إلَّا ترديد ألفاظها والحروف، وإِذن استنباط معانيها قد صار حِجرا مَحْجُورا، وحرمًا محرَّمًا محصورا»[2].

ومما سبق يتبين أن القول: بقصر التدبر على المجتهد فقط، قول ضعيف لا مستند له؛ فلا يصح قصره على فئة معينة من العلماء، بل الواجب أن يُقبل كل مسلم على كتاب ربِّه، ويغرف من بحره بقدر ما منَّ الله تعالى به عليه من العلم والفهم، وعليه أن يسعى للتعلم الذي يوصله إلى المراتب العليا من التدبر، ولا ريب أنه بحسَب علم المرء يكون تدبره وفقهه في كتاب الله، نسأل الله الكريم من فضله.



(١) **ينظر في بيان معناها**: (ص٩٨).

(٢) **ينظر**: إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، للصنعاني: (ص١٦٠).

المَبحَثُ الثَّالِثُ

الحرص على تتبُّع شواذِّ القراءات

المقصود هنا القراءت الشاذة التي هي في اصطلاح القُرَّاء: ما خرج من أوجه القراءات عن أركان القراءة المتواترة التي اجتمعت فيها أركان القراءة الصحيحة، **وهي**:

١ ـ موافقة اللغة العربية القراءة ولو بوجه.

٢ ـ موافقة أحد المصاحف العثمانية.

٣ ـ ثبوت سندها، وجمهور أهل العلم على اشتراط التواتر فيها(١).

والقراءة الشاذة ما نقل قرآنًا من غير تواتر واستفاضة متلقاة بالقبول من الأئمة وموافقة للغة(٢). فالأولى للمتدبر أن يحرص على القراءة بالمشهور من القراءات والروايات، وليجتنب الشواذ من ذلك وإن كانت جائزة في العربية، وأما ما خالف المصحف منها فهو المجمع على تركه وإن شهدت العربية بصحته؛ لأن القراءة سُنَّة لا يجوز مخالفتها ولا العدول عنها(٣).

ومن الخطأ أن «يشتغل المسلم بهذه القراءات الشاذة وفي تحصيلها

---

(١) النشر في القراءات العشر، لابن الجزري: (١/ ٩)، والقول الجاذ لمن قرأ بالشاذ للنويري: (ص٥٧)، وإقراء القرآن الكريم، للدخيل: (١٧٢).

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي: (١/ ٣٣٢).

(٣) بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء، للبناء: (ص٤٨).

فيفني أكثر عمره فِي جمعها وتصنيفها والإقراء بِهَا ويشغله ذلك عَنْ معرفة الفرائض والواجبات! ولربَّما رأيت إمام مسجد يتصدَّى للإقراء ولا يعرف مَا يفسد الصلاة، وربما حمله حبُّ التصدر حتى لا يُرى بعين الجهل على أن يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم، **ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه، ثم فهمه، ثم العمل به، ثم الإقبال على ما يصلح النفس ويطهِّر أخلاقها، ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع، ومن الغَبْن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم**، قال الحسن البصري: أنزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس تلاوته عملًا؛ **يعني**: أنهم اقتصروا على التلاوة وتركوا العمل به»[١].

قال الآجُرِّي محذرًا من بعض من كانت هذه بضاعته فقط دون المقصود، وهو التدبر: «فأما من قرأ القرآن للدنيا ولأبناء الدنيا، فإن من أخلاقه أن يكون حافظًا لحروف القرآن مضيعًا لحدوده، متعظِّمًا في نفسه، متكبرًا على غيره، قد اتَّخذ القرآن بضاعة... يفخر على الناس بالقرآن، ويحتج على من دونه في الحفظ بفضل ما معه من القراءات، وزيادة المعرفة بالغريب من القراءات التي لو عقل لعلم أنه يجب عليه أن لا يقرأ بها...»[٢].

غاية المراد أن الذي يحرص على تتبع هذه القراءات الشاذة ويفني عمره في تحصيلها، فالغالب أن انشغاله هذا صارف له عن التدبر، وعن الاتعاظ بآيات الله وأحكامه؛ كما أشار إليه ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في الكلام السابق؛ لأن العمر قصير والوقت يمضي، ومن الغَبْن الفاحش تضييع العمر في غير الأصل المهم، وهو تدبر كتاب الله والعيش في ظلاله.



---

(١) **ينظر**: تلبيس إبليس، لابن الجوزي: (ص١٠١).

(٢) **ينظر**: أخلاق أهل القرآن، للآجري: (ص٨٧).

المَبحَثُ الرَّابِعُ

اتباع المتشابه من الآيات

جاء في صحيح الإمام مسلم عن عائشة ﵂، قالت: «تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ)**»[(١)].

إنَّ من يقوم باتباع المتشابه من الآيات هو في الحقيقة يقوم بعملية انتقاء للنصوص متوافقةً مع هواه ومقصده، وبزعم التدبر له فهو قد يُبيح كبائر المحرمات، وعظائم الذنوب، ويسقط أهم الواجبات والفرائض، **ومن الأمثلة على ذلك**[(٢)]:

متَّبع المتشابه قد يستدل على جواز الكفر بقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩] فيزعم أن الله - تعالى - خيَّر الناس بين الإيمان والكفر، والتخيير بينهما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، حديث رقم: (٢٦٦٥).

(٢) **ينظر**: خطورة اتِّباع المتشابه، إبراهيم بن محمد الحقيل، نُشر في أكثر من موقع على الشبكة العنكبوتية، ومنه استفدتُ في جُلِّ هذا المبحث.

يقتضي استواءهما، ويغضُّ الطرف عن الآيات الكثيرة التي تتوعد الكافر بالنار، ومنها آخر هذه الآية التي يستدِلُّ بها على قوله؛ فهي في سياق التهديد والوعيد وليس فيها تخيير: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقد استدل بهذه الآية على الحرية الدينية كثير ممن فتنوا بالغرب وحريته[(١)].

وإذا كان بإمكان متَّبع المتشابه أن يسوِّغ العقائد الزائفة، ويساوي الكفر بالإيمان، ويحكم لأصناف الكفَّار بالجنة، ويستدل لما يقول بنصوص ينتقيها من القرآن بقصد التدبر والفهم، ويُعرِض عن غيرها على طريقة أهل الكتاب في إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعضه؛ فإنه يستطيع من باب أَوْلى أن يبيح ما دون الشرك والكفر من المحرمات: كالاختلاط، والخلوة بالأجنبية، وسفر المرأة بلا محرم، وغير ذلك من المحرمات، ويستدل لما يريد بنصوص مشتبهة ويترك المحكم الواضح.

وإذا كان متَّبع المتشابه يستطيع أن يبطل التوحيد بنصوص ينتقيها من القرآن، فلن يعجز عن إبطال ما هو دون التوحيد من الواجبات: كصلاة الجماعة، وحجاب المرأة، ووجوب المحرَم لها حال السفر، وغير ذلك، وسيجد من النصوص ما يؤيد باطله إذا كانت العملية عملية انتقاء واختيار.

---

(١) في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ ألَّف وزيرٌ كتابًا زعم فيه أن النبي ﷺ قد رضي دين اليهود والنصارى، وأنه لا يُنكر عليهم ما هم فيه من الكفر، ولا يذمُّون ولا ينهَون عن دينهم، ولا يؤمرون بالانتقال إلى الإسلام؛ مستدلًّا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] فردَّ عليه شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٥٢٦) وما بعدها.

ولخطورة اتباع المتشابه وترك المُحْكَم من النصوص في إفساد دين من يفعل ذلك، وإضلاله لغيره، حذَّر الله ـ تعالى ـ عباده من سلوك هذا المسلك، وأخبر أن من يسلكه إنما يبتغي الفتنة لمرض في قلبه، **وهذا المرض**: إما أن يكون بشبهة، ودواؤه العلم، وإما أن يكون بشهوة؛ كمن يريد بفعله عَرَضًا من الدنيا، ودواؤه تقوى الله ـ تعالى ـ والخوف منه. قال الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ**﴾ [آل عمران: ٧].

ولأن اتباع المتشابه من النصوص سبب لفساد القلب وزيغه، فقد ناسب أن يعقب آية التحذير منه آية أخرى تخبر عن دعاء الراسخين في العلم؛ وهي قولهم كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨].

كما أن النبي ﷺ حذَّر من اتِّباع المتشابه في الأحكام؛ لأن من شأنه أن يزيل الورع من الإنسان إلى أن يصل به إلى الحرام، فعَنِ النُّعمَانِ بن بشير، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقولُ ـ وأَهْوى النعمان بإصبعيهِ إلى أُذُنَيْهِ ـ: (**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ**)[1].

فصار الناس تجاه اشتباه النصوص واشتباه الأحكام فريقين:

الفريق الأول: أهل الإيمان القوي والعلم الراسخ، ومن تبع جادَّتهم؛ فهؤلاء يتثبَّتون أمام المتشابهات ولا يتزعزعون؛ لقوة إيمانهم بدينهم، ورسوخهم في علوم الشريعة؛ فلا يتركون المحكم لأجل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم: (٥٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم: (١٥٩٩)، واللفظ له.

المتشابه، ولا يضربون النصوص بعضها ببعض، ويقابلون المتشابه بما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، كما أنهم يتورَّعون عن المشتبه بين الحلال والحرام في الأحكام؛ عملًا بقول النبي ﷺ كما في حديث النعمان السابق: (**فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**). **قال الشاطبي**: «وحين خصَّ أهل الزيغ باتباع المتشابه، دلَّ التخصيص على أن الراسخين لا يتبعونه، فإذًا لا يتبعون إلا المحكم، وهو أمُّ الكتاب ومُعظَمُهُ»[1].

الفريق الثاني: ضعيفو الإيمان، وليس لهم رسوخ في العلم؛ فأيُّ وارد لشبهة يَمِيد بهم، فتزيغ بالمتشابهات قلوبهم؛ كما ذكر الله تعالى حالهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]. ويتساهلون في مشتبه الأحكام حتى يجاوز بهم إلى الحرام، كما في قوله ﷺ في الحديث السابق: (**وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ**).

وتقسيم قلوب أصحاب هذين الفريقين (الراسخ والزائغ) يكون على وَفْق ما جاء في حديث حُذَيْفَة رضي الله عنه حيث قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: (**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا؛ فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا؛ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**)[2].

---

(١) ينظر: الاعتصام، للشاطبي: (٢/٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين، حديث رقم: (١٤٤).

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «ما بَالُ هؤُلاءِ يَجدُونَ عند مُحْكَمِهِ، ويَهْلِكُونَ عند مُتَشَابهِهِ؟!»[١].

وفي ختام هذا المبحث أسوق وصية عظيمة نافعة في هذا الأمر ينقُلها ابن القيِّم عن شيخه ابن تيمية ـ رحمهما الله تعالى ـ بقوله: «وقال لي شيخ الإسلام رحمه الله وقد جعلتُ أُورِد عليه إيرادًا بعد إيراد: لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة؛ فيتشرَّبها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة؛ تمرُّ الشبهات بظاهرها ولا تستقرُّ فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته؛ وإلا فإذا أشربت قلبك كلَّ شبهة تمرُّ عليها صار مقرًّا للشبهات. أو كما قال، فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك»[٢].

فاللَّهُمَّ اعصمنا بدينك وكتابك وبسُنَّة نبيِّك ﷺ في الاختلاف في الحق، ومن اتِّباع المتشابهات ومن سبل الضلالة ومن شبهات الأمور من الهوى والزيغ والخصومات[٣].



(١) **ينظر**: السُّنَّة، لابن أبي عاصم: (١/ ٢١٢).
(٢) **ينظر**: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيِّم: (١/ ١٤٠).
(٣) روي هذا الدعاء من قول إبراهيم التيمي كما أخرجه أبو نُعيم في حلية الأولياء: (٤/ ٢١٢).

المَبْحَثُ الْخَامِسُ

الحرص على كثرة التلاوة والحفظ دون التدبر

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: ذكر الخلاف في هذه المسألة مع بيان القول الراجح.
- المطلب الثاني: المبالغة في تجويد الحروف دون التدبر.
- المطلب الثالث: الحرص على الحفظ دون التدبر.

 المطلب الأول 

ذكر الخلاف في هذه المسألة مع بيان القول الراجح

أجمع أهل العلم من السلف والخلف على استحباب ترتيل القرآن وتحسين الصوت به، قال ابن قدامة في «المغني»: «واتفق العلماء على أنه تستحبُّ قراءة القرآن بالتَّحزين والتَّرتيل والتَّحسين»(١). **وقال النووي**: «أجمع العلماء ﵃ من السلف والخلف من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار وأئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة»(٢).

واختلفوا في الأفضلية بين كثرة التلاوة مع سرعة القراءة والترتيل، وبين قلة التلاوة مع التدبر والترتيل؟ على قولين:

القول الأول: ذهب ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وجماهير أهل العلم إلى: أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها، ونصر هذا الرأي ابن القيِّم نصرًا قويًّا في «زاد المعاد»، ورجحه أيضًا ابن الجوزي، والغزالي، وابن الجزري، وغيرهم من العلماء(٣).

واحتج أرباب هذا القول بما يلي:

ـ أن ذلك هو هدي النبي ﷺ، فإنه كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وقام بآية حتى الصباح؛ كما في حديث أبي ذر ﵁(٤).

---

(١) المغني: (١٠/ ١٧٨). (٢) التبيان: (ص١٠٩).

(٣) زاد المعاد: (١/ ٣٣٧)، والمنار المنيف: (ص٢٩)، وتلبيس إبليس: (ص١٢٨)، والنشر في القراءات العشر: (١/ ٢٠٩).

(٤) سبق تخريجه: (ص١١٠).

- أن المقصود من قراءة القرآن فهمه وتدبره، والفقه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه، **كما قال بعض السلف**: «نزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملًا»[١]؛ ولهذا كان أهلَ القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب. وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم[٢].

- أن الإيمان أفضل الأعمال، وفهم القرآن وتدبره هو الذي يثمر الإيمان، وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر، فيفعلها البر والفاجر، والمؤمن والمنافق، كما قال النبيُّ ﷺ: **(وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ؛ وَطَعْمُهَا مُرٌّ)**[٣].

والناس في هذا أربع طبقات:

الأولى: أهل القرآن والإيمان، وهم أفضل الناس.

الثانية: من عَدِمَ القرآن والإيمان.

الثالثة: من أوتي قرآنًا، ولم يؤت إيمانًا.

الرابعة: من أوتي إيمانًا ولم يؤت قرآنًا.

قالوا: فكما أن من أوتي إيمانًا بلا قرآن أفضل ممن أوتي قرآنًا بلا إيمان، فكذلك من أوتي تدبرًا وفهمًا في التلاوة، أفضل ممن أوتي كثرة قراءة وسرعتها بلا تدبر[٤].

القول الثاني: قالوا: إن كثرة القراءة أفضل، **ونسبه الإمام ابن القيِّم إلى أصحاب الشافعي؛ حيث قال في «زاد المعاد»**: «وقال أصحاب الشافعي رحمه الله: إن كثرة القراءة أفضل»[٥].

---

(١) قاله ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) **ينظر**: زاد المعاد: (١/ ٣٢٨).

(٣) سبق تخريجه: (ص١٢٠).

(٤) المرجع نفسه.

(٥) زاد المعاد: (١/ ٣٣٧).

وأثبته ابن الجزري الشافعي كما في كتابه «النشر في القراءات العشر[١]»، واحتَجَّ أصحاب هذا القول: بحديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: **(مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ)**. رواه الترمذي وصحَّحه[٢].

---

(١) النشر في القراءات العشر: (١/ ٢٣٤)، ولعله نقله عن ابن القيِّم؛ فنصُّه شبيه بنص ابن القيِّم.
وههنا مسألة يحسن التنبيه عليها، وهي: أن نسبة هذا القول للشافعية تحتاج إلى تحرير؛ **فحين الرجوع إلى المراجع المعتبرة في الفقه الشافعي ظهر ما يلي**:
- جاء في إعانة الطالبين، للدمياطي: (١/ ٢١٣) **ما نصُّه**: «ويسن ترتيلها، وهو التأني فيها. فإفراط الإسراع مكروه، وحرف الترتيل أفضل من حرفي غيره».
- وجاء في تحفة المحتاج بشرح المنهاج **ما نصُّه**: «وقوله: «أفضل من حرفي غيره»؛ **أي**: فنصف السورة مثلًا مع الترتيل أفضل من تمامها بدونه، ولعل هذا في غير ما طلب بخصوصه كقراءة الكهف يوم الجمعة فإن إتمامها مع الإسراع لتحصيل سُنَّة قراءتها فيه أفضل من أكثرها مع التأني». ونص على هذا أكثر الشافعية كما في حاشية الجمل على المنهج لزكريا الأنصاري: (٢/ ٣٨٠)، وكما في نهاية الزين في إرشاد المبتدئين لابن نووي الجاوي: (ص٧٦) وغيرهما.
- وجاء في المجموع شرح المهذب للنووي: (٢/ ١٨٨) **ما نصُّه**: «ويسن ترتيل القراءة... واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع، ويسمى: الهذّ، قالوا: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمن بلا ترتيل. قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر، ولأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير، وأشد تأثيرًا في القلب».
فنصوصهم هنا واضحة في ترجيح الترتيل مع التدبر، لكنهم استثنوا الإسراع في القراءة فقط لأجل إدراك فضيلة الوقت كقراءة سورة الكهف في يوم الجمعة، فلعل من نسب لهم ذلك اعتمد على هذا. **على أن الإمام الشافعي في الأم (١/ ١٠٩) قال**: «وأقل الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الإبانة، وكلما زاد على أقل الإبانة في القراءة كان أحبَّ إليَّ، ما لم يبلغ أن تكون الزيادة فيها تمطيطًا...». **قال ابن حجر**: «استحباب الترتيل لا يستلزم كراهية الإسراع، وإنما يكره الهذ وهو الإسراع المفرط». فتح الباري: (٩/ ٨٩). فقد يُفهم من كلام الإمام الشافعي رحمه الله أنه يحبذ سرعة الترتيل لإدراك فضيلة كثرة القراءة، وعلى هذا بني هذا القول، والله أعلم.

(٢) رواه الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا =

قالوا: إن ثواب كثرة القراءة أكثر عددًا في الحسنات من قلة القراءة؛ كما بينها هذا الحديث.

واحتجوا أيضًا بأفعال بعض الصحابة والسلف؛ كقراءة عثمان بن عفان رضي الله عنه القرآن في ركعة(١).

القول الراجح في المسألة أن يُقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا، **فالأول**: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبدًا قيمته نفيسة جدًّا، **والثاني**: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة(٢).

ولما جاء فِي صحيحِ البخاريِّ أن قراءة الترتيل والتأني هي قراءة النبي ﷺ؛ **فعن قتادة قال**: «سأَلْتُ أنسًا عن قِراءَةِ النّبيِّ ﷺ، فقال: كان يَمُدُّ مَدًّا»(٣).

وأيضًا أن هذه القراءة ما يوصي بها أصحابه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ **فقد سأل رجل عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ رضي الله عنه فقال**: «قرأتُ المُفصَّلَ الليلةَ في ركعةٍ! فقال: هذًّا مثلَ هذِّ الشِّعرِ! ونثرًا مثلَ نثرِ الدَّقَلِ! إنما فُصِّل لتفصِّلوا...»(٤).

وقال رجلٌ أيضًا لابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إنِّي رجلٌ سريعُ القراءة، وربَّما قرأتُ القرآن في ليلةٍ مرَّةً أو مرَّتينِ؟ فقال ابن عبَّاس: لأَنْ أقرأَ سُورَةً

= من القرآن ما له من الأجر، حديث رقم: (٢٩١٠)، وصححه الألباني، في السلسلة الصحيحة: (٧/ ٩٧٠).

(١) **ينظر**: زاد المعاد: (١/ ٣٣٧). (٢) **ينظر**: زاد المعاد: (١/ ٣٣٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، حديث: (٥٠٤٥). **قال ابن بطال في شرحه**: (١٠/ ٢٧٤): «إنما كان يفعل ذلك ـ والله أعلم ـ لأمر الله له بالترتيل، وأن يقرأه على مُكث، وألا يحرك به لسانه ليعجل به، فامتثل أمر ربِّه تعالى؛ فكان يقرؤه على مهل؛ ليبيِّن لأمته كيف يقرؤون، **وكيف يمكنهم تدبر القرآن وفهمه**».

(٤) مسند الإمام أحمد: (٦/ ٢٧)، وصححه الطحاوي في شرح معاني الآثار: (١/ ٣٤٦).

واحِدةً أعجَبُ إليَّ من أن أفعلَ ذلك الذي تفعل، فإنْ كنتَ فاعلًا ولا بدَّ، فاقرأْ قرَاءَةً تُسمِعُ أُذُنَيْكَ، ويَعِيها قلبُكَ»[١].

قال ابن الجوزي: «وقد رأيت من مشايخهم من يجمع الناس ويقيم شخصًا ويقرأ فِي النهار الطويل ثلاث ختمات، فَإِن قصَّر عيب وإن أتمَّ مُدح، وتجتمع العوام لذلك ويحسنونه كما يفعلون فِي حق السُّعاة، ويريهم إبليس أن في كثرة التلاوة ثوابًا، وهذا من تلبيسه لأن القراءة ينبغي أن تكون لله تعالى لا للتحسين بِهَا، وينبغي أن تكون على تمهُّل؛ وقال ﷻ: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]»[٢].

وقال في ردِّه على من يحتج بأفعال السلف: «وقد لبَّس على قوم بكثرة التلاوة فهم يهزُّون هزًّا من غير ترتيل ولا تثبُّت، وهذه حالة ليست بمحمودة، وقد روي عن جماعة من السلف أنهم كانوا يقرؤون القرآن فِي كل يوم أو في كل ركعة، وهذا يكون نادرًا منهم، ومن داوم عليه فإنه وإن كان جائزًا إلا أن الترتيل والتثبُّت أحبُّ إِلى العلماء، وقد قالَ رسولُ الله ﷺ: **«لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ»**»[٣].

ويقول ابن الجزري: «وأحسنَ بعض أئمَّتنا ـ رحمهم الله ـ فقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرًا، وإن ثواب كثرة القراءة أكثر عددًا. فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبدًا قيمته نفيسة جدًّا، والثاني كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة...»، **ثم ذكر قول الغزالي:** «واعلم أن الترتيل

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: (٢/ ٥٥٥)، رقم: (٤٠٦١).

(٢) **ينظر:** تلبيس إبليس، لابن الجوزي: (ص١٠٢).

(٣) **ينظر:** المرجع نفسه: (ص١٢٨)، والحديث أخرجه أبو داود في سننه: أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب تحزيب القرآن، حديث رقم: (١٣٩٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود: (٥/ ١٣٨).

مستحبٌّ لا لمجرد التدبر، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له أيضًا في القراءة الترتيلُ والتؤدة؛ لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرًا في القلب من الهذرمة والاستعجال»[1].

ويقول ابن القيِّم: «وكذلك قراءة سورة بتدبر ومعرفة وتفهم وجمع القلب عليها أحبُّ إلى الله تعالى من قراءة ختمة سردًا وهذًّا، وإن كثُر ثواب هذه القراءة، وكذلك صلاة ركعتين يُقبل العبد فيهما على الله تعالى بقلبه وجوارحه ويُفرغ قلبه كلَّه لله فيهما، أحبُّ إلى الله تعالى من مئتي ركعة خالية من ذلك، وإن كثر ثوابهما عددًا»[2].



(١) **ينظر**: النشر في القراءات العشر: (١/ ٢٠٩).

(٢) **ينظر**: المنار المنيف، لابن القيِّم: (ص٢٩)، ومفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٧).

 المَطْلَبُ الثَّانِي 

المبالغة في تجويد الحروف دون التدبر

وقد حذر العلماء من هذه السبيل، إذ الأصل في قارئ القرآن أن يهتم بمعاني القرآن المجيد ولا يجعل همتَه فيما حُجِبَ به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن إما بالوَسْوَسَةِ فِي خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك.

فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الربِّ من كلامه[1].

قال الإمام الذهبي: «فالقرَّاء المُجَوِّدة: فيهم تنطُّع وتحرير زائد؛ يؤدِّي إلى أن المجوِّد القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف والتنطع في تجويدها، بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله تعالى، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة، ويخلِّيه قوي النفس مزدريًا بحفَّاظ كتاب الله تعالى، فينظر إليهم بعين المقت، وبأن المسلمين يلحنون، وبأن القراء لا يحفظون إلا شواذَّ القراءة. فليت شعري أنت ماذا عرفت؟! وماذا عملت؟! فأما عملك فغير صالح، وأما تلاوتك فثقيلة عرية من الخشعة والحزن والخوف. فالله تعالى يوفقك ويبصرك رشدك ويوقظك من مرقدة الجهل والرياء. وضدهم قراء النغم والتمطيط؛ وهؤلاء من قرأ منهم بقلب وخوف قد يُنتفع به في الجملة؛ فقد رأيت منهم من يقرأ صحيحًا ويُطرب ويُبكي، ورأيت منهم من إذا قرأ قسَّى القلوب، وأبرم النفوس، وبدّل الكلام، وأسوأهم حالًا الجنائزية»[2].

---

(١) **ينظر**: مجموع الفتاوى، لابن تيمية: (١٦/ ٥٠).

(٢) **ينظر**: زغل العلم، للذهبي: (ص٢٥).

فلا ينبغي أن تصرف الهمَّة إلى ما حُجِبَ به أكثرُ الناسِ من: الوسوسةِ في خروجِ الحروفِ، وترقيقِها وتفخيمِها، وإمالتها والنطق بالمدِّ الطويل والقصير والمتوسّط، وشَغله بالوصل والفَصل، والإضجاع والإرجاع والتَّطريبِ... وغيرِ ذلكَ مما هو مُفضٍ إلى: تغييرِ كتاب الله والتَّلاعُب به، والتَّنطّع؛ ممَّا يُحيل القلوب ويقطعُها عن فَهم مُراد الرَّبِّ من كلامه(١).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن ذلك ـ **أي**: مكايد الشيطان ـ الوسوسة في مخارج الحروف والتنطع فيها... ثم قال: ومن تأمل هَدْيَ رسول الله ﷺ وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم، يتبيَّن له أن التنطع والتشدق والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سُنَّته ﷺ»(٢).

فصدق ـ والله ـ لقد كانت قراءته ﷺ سَهْلةً ليِّنةً كما في البخاري من حديث عبد الله بن مغفَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «رأَيْتُ النبيَّ ﷺ يقْرَأُ وهو على ناقتِهِ أو جمَلِهِ وهِيَ تَسيرُ بِهِ، وهو يَقْرَأُ سُورة (الفتح) أَو من سُورةِ (الفتح) قِرَاءَةً لَيِّنَةً، يقْرَأُ وهو يُرَجِّعُ»(٣)، **ولهذا قال الإمام أحمد**: «تعجبني القراءة السَّهلة»(٤)، **قال ابن القيِّم**: «**والمقصود**: أن الأئمة كرهوا التنطع والغلو بالحرف»(٥).

فالتعسف في المخارج ليس من التجويد في شيء، ومع هذا فإن أداء القرآن وترتيله يحتاج إلى ضوابط أساسية مهمٌّ مراعاتها والأخذ بها وهي معلومة في فن التجويد، وتركها تفريطٌ في حقوق التلاوة السليمة،

---

(١) حاشية مقدمة التفسير، للشيخ ابن قاسم: (ص١٤).
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (١/ ١٦٢).
(٣) سبق تخريجه وشرحه: (ص١٩٥).
(٤) الآداب الشرعية، لابن مفلح: (٢/ ٢٩٧).
(٥) إغاثة اللهفان: (١/ ١٦٢).

وتطبيقُها من جملة السَّهل الذي يسَّره الله كما بينه في آية (القمر) بقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وهي لا تحتاج إلى التعسُّف والمبالغة في مخارج حروفها، **قال الشيخ السعدي في تفسير الآية:** «﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ سهَّلنا هذا ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم»[1].

ومن جميل ما حُكيَ في هذا الباب نظمًا[2]:

يَا مَنْ يَرُومُ تِلاَوَةَ الْقُرْآنِ ... وَيَرُودُ شَأْوَ أَئِمَّةِ الإِتْقَانِ
لَا تَحْسَبِ التَّجْوِيدَ مَدًّا مُفْرِطًا ... أَوْ مَدَّ مَا لَا مَدَّ فِيهِ لِوَانِ
أَوْ أَنْ تُشَدِّدَ بَعْدَ مَدٍّ هَمْزَةً ... أَوْ أَنْ تَلُوكَ الْحَرْفَ كالسَّكْرَانِ
أَوْ أَنْ تَفُوهَ بِهَمْزَةٍ مُتَهَوِّعًا ... فَيَفِرَّ سَامِعُهَا مِنَ الْغَثَيَانِ
لِلْحَرْفِ مِيزَانٌ فَلَا تَكُ طَاغِيًا ... فِيهِ وَلَا تَكُ مُخْسِرَ الْمِيزَانِ



(١) تفسير السعدي: (٤/١٧٤٦).
(٢) **ينظر نونية السخاوي في التجويد المسماة:** عمدة المفيد وعدة المجيد في معرفة التجويد: (٢/٣٦٥).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

الحرص على الحفظ دون التدبر

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنَّا صعُبَ علينا حفظُ ألفاظِ القرآنِ، وسهُلَ علينا العملُ به، وإنَّ من بعدنا يسهُلُ عليهم حفظُ القرآنِ، ويصعبُ عليهمُ العمَلُ به»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنه **قال**: «كان الفاضلُ من أصحابِ رَسُولِ الله ﷺ فِي صَدْرِ هذه الأُمَّة لَا يحفظُ منَ القرآنِ إلَّا السُّورَةَ أو نحوَها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآنَ منهمُ الصَّبِيُّ والأعمى ولا يُرزقُون العملَ به»[٢].

وقال خلف بن هشام البزار[٣]: «ما أظنُّ القرآنَ إلا عاريَّة في أيدينا، وذلك أنا رُوِّينَا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفظ (البقرة) في بضع عَشْرَةَ سَنَةً، فلما حفظها نَحَرَ جَزُورًا شكرًا لله، وإن الغلام في دهرنا هذا يجلس بين يديَّ فيقرأ ثلث القرآن لا يسقط منه حرفًا، فما أحسب القرآن إلا عاريَّة فِي أَيْدِينَا»[٤].

---

(١) **ينظر**: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (١/ ٤٠).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) خلف بن هشام بن ثعلب البغدادي، الحافظ، الحجة، أبو محمد البغدادي، البزار، المقرئ، مولده: سنة خمسين ومئة. سمع: مالك بن أنس، وحماد بن زيد، وأبا عوانة، وأبا شهاب الحناط عبد ربه، وشريكًا القاضي، وعدة، وتلا على: سليم، وعلى أبي يوسف الأعشى، وغيرهما. وتصدر للإقراء والرواية، توفي سنة تسع وعشرين ومئتين وقد شارف الثمانين. **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٥٧٦)، غاية النهاية: (١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٥)، تهذيب التهذيب: (٣/ ١٥٦).

(٤) **ينظر**: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (١/ ٤٠).

فقراءة آيَة بتفكر وتفهم خير من قراءَة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حُصُول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذِه كَانَت عَادَة السّلف؛ يردِّد أحدهم الآية إلى الصَّباح، وَقد ثَبت عَن النبي ﷺ أنه قامَ بآية يُرَدِّدهَا حتى الصَّباح، وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][١]، فقراءة القرآن بالتفكر هيَ أصل صلاح القلب؛ **ولهذا قال ابن مسعود** رضي الله عنه: «لا تهُذُّوا القرآن هَذَّ الشِّعْر، وَلَا تنثُروه نَثْرَ الدَّقَل، وقفُوا عِنْد عجائبه وحرِّكوا بِهِ القُلوب، لا يكن همُّ أحدكم آخرَ السُّورَة»[٢].

والمطلوب من القرآن هو فهم مَعَانِيهِ، والعمَلُ به، فإن لم تكن هذه هِمَّةَ حافظه لم يكن من أهل العلم والدِّين[٣].

ويظهر من مجموع هذه الآثار والأقوال أن الانحراف عن شرع الله وسُنَّة رسوله ﷺ وسبيل المؤمنين، بالانشغال بحفظ القرآن عن تدبره وفقهه ـ ظهر في القرن الأول؛ فتقرَّب من لم يجاوز القرآن تراقيهم إلى الله بالخروج على خير أولياء الله: عثمان وعلي رضي الله عنهما، بأدنى شبهة وقعت لهم حين فهموها من كتاب الله على غير وجهها، وتقرَّب من اتبع سبيلهم بالخروج على عامة الناس وقتل أنفسهم وقتل نفوسٍ حرم الله قتلها بغير حق.

ولقد كان من أبرز صفاتهم التي اشتهروا بها: الحرص على حفظ القرآن دون التدبر والفهم؛ كما قال فيهم النبي ﷺ: **(يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ)**[٤].

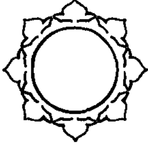
---

(١) سبق تخريجه: (ص١١٠).

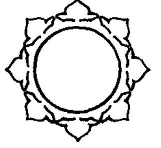
(٢) شعب الإيمان، للبيهقي: (٣/ ٤٠٦).

(٣) **ينظر**: مجموع الفتاوى، لابن تيمية: (٢٣/ ٥٥).

(٤) **ينظر**: الرَّد على الأخنائي: (١/ ٦٥). والحديث أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها: كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به، حديث رقم: (٥٠٥٨).



المَبْحَثُ ٱلسَّادِسُ



قصر معاني القرآن على أحوال خاصة

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: قصر حديث القرآن عن الأمم السابقة على من وردت فيهم.
- المطلب الثاني: قصر معاني القرآن على أحوال شخصية معينة.

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

قصر حديث القرآن عن الأمم السابقة على من وردت فيهم

القرآن الكريم أنزله الله تعالى لخطاب البشرية كلِّها أفرادًا وأممًا وجماعات، ولكن بعض الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمُّنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خَلَوا من قبل ولم يُعقِبوا وارثًا، وهذا حائل بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله! إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شرٌّ منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك(١).

وربما سمع بعضهم قول من يقول من المفسرين: هذه نزلت في عُبَّاد الأصنام، هذه نزلت في النصارى، هذه في الصابئة، فيظن الغُمْر(٢) أن ذلك مختص بهم، وأن الحكم لا يتعداهم، وهذا من أكبر الأسباب التي تحول بين العبد وبين فهم القرآن(٣).

إنَّ النص القرآني مطلوب العمل به، لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب، ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ حسب القواعد المقرَّرة؛ لأنَّه مُنزَّلٌ للعمل في النفس البشرية كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو النازلة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

فالأولى للقارئ أن يقدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن؛ فإن

---

(١) **ينظر**: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيِّم: (١/ ٣٥١).

(٢) وهو الجاهل الغِرُّ الذي لم يجرِّب الأمور. لسان العرب، مادة: (غمر).

(٣) **ينظر**: تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس، عبد اللطيف آل الشيخ: (١/ ٦٥).

سمع أمرًا أو نهيًا قدَّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدًا أو وعيدًا فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السَّمَر غير مقصود، وإنما المقصود أن يَعتبر بها ويأخذ من تضاعيفها ما يحتاج إليه، وإذا قُصد بالخطاب جميع الناس فهذا القارئ الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فليقدِّر أنه المقصود، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ **قال محمد بن كعب القُرَظي**[(١)]: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه؛ ليتأمَّله ويعمل بمقتضاه»[(٢)].



---

(١) محمد بن كعب بن سليم، قال ابن سعد: محمد بن كعب بن حيان بن سليم، العلامة، الصادق، أبو حمزة ـ وقيل: أبو عبد الله ـ القرظي، المدني، من حلفاء الأوس، وكان أبوه كعب من سبي بني قريظة، سكن الكوفة، ثم المدينة، وكان من أوعية العلم، توفي سنة عشرين ومئة. **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (٥/ ٦٥).

(٢) موعظة المتقين من إحياء علوم الدين، للقاسمي: (ص٨٤).

المَطْلَبُ الثَّانِي

قصر معاني القرآن على أحوال شخصية معينة

من الخطأ أن لا يسعى المرء إلى سماع القرآن إلا عند مرضه، أو موت قريبه، أو حال حزنه فقط. أمَّا إذا كان في حال صحته وكمال عقله وصفاء ذهنه فإنه لا يتشوَّف إلى سماع القرآن أو قراءته؛ فهو كمن يقرأ القرآن على حرف، فإن غمرته نعمة نسيه، وإن صدمته مصيبة رجع إليه. فحرم نفسه سلوك السبيل إلى تدبر القرآن.

وكذلك حال من لا يعرف القرآن إلا تلاوته فقط إما عند العزاء، أو عند افتتاح البرامج، أو في المناسبات العامة، ولا يعرف له وقتًا آخر لسماع القرآن أو قراءته؛ فأنَّى له التدبر والتأمل والاعتبار والتأثر وهذه حاله؟!

فمن الناس من قصر الخشوع في رمضان، أو في القنوت، أو عند خشوع الإمام، أو عند آيات العذاب وذكر النار وأهوال القيامة.

ومعلوم أن أسباب الخشوع ودواعيه متعددة؛ ففعله ﷺ عند التلاوة فيه خشوع وتدبر؛ فهو ينزِّه ويسبِّح عند آيات الأسماء والصفات، ويسأل الله من فضله عند ذكر جنَّته وإنعامه وفضله ورحمته، ويستعيذ عند ذكر النار والعذاب[1]، وهكذا ينبغي للمتدبر أن يتعايش مع الآيات ويتفاعل معها في حياته كلها.



(١) **ينظر**: تدبر القرآن، للسنيدي: (ص٦٤ ـ ٥١).

المَبْحَثُ السَّابِعُ

الانشغال بتتبُّع المُبْهَمات

قال العلامة الشنقيطي: «وما يذكره المفسرون من الأقوال في اسم كلبهم، فيقول بعضهم: اسمه قطمير، ويقول بعضهم: اسمه حمران، إلى غير ذلك، لم نُطل به الكلام لعدم فائدته.

ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبيِّنها الله لنا ولا رسوله ﷺ، ولم يثبُت في بيانها شيء، والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه.

وكثير من المفسرين يطنبون في ذكر الأقوال فيها دون علم ولا جدوى، كلَوْنِ كلب أصحاب الكهف، واسمه، وكالبعض الذي ضُرب به القتيل من بقرة بني إسرائيل، وكاسم الغلام الذي قتله الخضر، وأنكر عليه موسى قتله، وكخشب سفينة نوح من أي شجر هو، وكم طول السفينة وعرضها، وكم فيها من الطبقات، إلى غير ذلك مما لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على التحقيق فيه»[(١)].

إنَّ الاهتمام بمثل هذه المبهمات وبتفاصيل الحوادث التي لم يذكرها القرآن صارف عن التدبر وعن مقاصد الآيات العظيمة، فكثيرًا ما يرد في القرآن أعيان وأماكن وأعداد مبهمة ولم يبيِّنها الرسول ﷺ، فهي أمور لا يتوقف عليها عمل، ولا يحصل بها علم نافع يحتاج الناس إليه، والبحث فيها لا طائل تحته ولا فائدة فيه؛ فهو يصرف

---

(١) **ينظر**: أضواء البيان، للشنقيطي: (٣/ ٢٢٦).

صاحبه عن التدبر النافع إلى شيء ليس فيه نفع إذ لو كان فيه نفع؛ لذُكر[1].

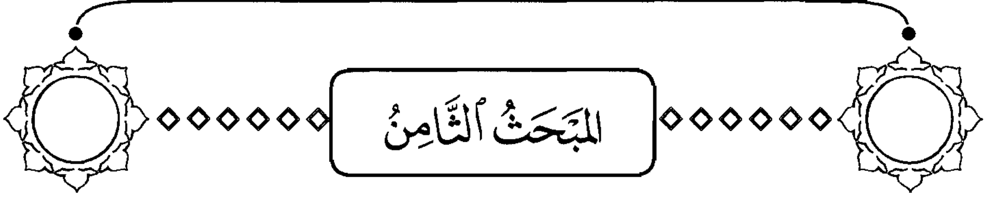
يقول الشيخ السعدي تعليقًا على قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]: «وتعيين تلك القرية لو كان فيه فائدة لعيَّنها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف، وطريق العلم الصحيح الوقوفُ مع الحقائق وترك التعرُّض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها ولا حجة عليها، ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن...»[2].

فخذ من هذا إشارة أيها المتدبر؛ ففي الآيات القرآنية من الأحكام والعبر والقصص والأخبار والمواعظ ما يُغنيك عن تتبع هذه المبهمات والانشغال بها.



(١) **ينظر**: تدبر القرآن: (ص٦١).

(٢) تفسير السعدي: (ص٨١٤ ـ ٨١٥) بتصرف يسير.



ابتداع طرائق مزعومة للتدبر

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: الطرائق المبتدعة القديمة ونقدها.
- المطلب الثاني: الطرائق المبتدعة المعاصرة ونقدها.

تَمْهِيدٌ

من المعلوم أن نشوء البدع سواء كان في موضوعنا «تدبر القرآن» أم في أي جانب من الجوانب التعبدية إنما يكون بعدة أسباب:

منها: الإفراط والغلو في الدين وضعف البصيرة والفقه فيه.

ومنها: السكوت عنها من العلماء وترك التحذير منها، وهذا في فترات القصور والتقصير لدى بعض أهل السُّنَّة، حيث يشتد تمسك العامة بالبدع، بحجة أنها أشياء مأثورة وقد رآها العلماء وخالطوا أهلها، ولم ينكروها، فدلَّ على أنها الشرع وغيرها الضلال المبين، وقد انتشر من هذا الطريق كثير من بدع المساجد والموالد والقراءات والألحان، وإحياء الليالي والاستئجار على الختمات، والتَّهاليل، والتَّسابيح، إلى غير ذلك مما هو معروف بأنه دين والدين منه بريء[١].

ومنها أيضًا: الجهل بما كان عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين في هذه الأمور التعبدية؛ لأنهم خير الأمة وأفضلها بعد نبيِّها ﷺ، ولذلك فإن معرفة ما هم عليه في ذلك موصل للنجاة والفلاح، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن معرفة مراد الله ومراد الصحابة هو أصل العلم ويَنبوع الهدى»[٢].

وإنَّ من الغَبْن الفاحش أن يكون صاحب القرآن متلبسًا ببدعة،

---

(١) **ينظر**: البدعة، أسبابها، ومضارها، لشيخ الأزهر: محمود شلتوت: (ص٤١).

(٢) مجموع الفتاوى: (٥/ ٤١٣).

فكيف إذا كانت من المحدثات في قراءة القرآن العظيم[١]؟! **وقد نُقل عن حذيفة رضي الله عنه نصيحة ثمينة لأهل القرآن والتدبر؛ قال فيها**: «كلُّ عبادةٍ لم يتعبَّد بها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبَّدوها؛ فإن الأول لم يدعْ للآخر مقالًا؛ فاتقوا الله معشر القراء وخُذوا بطريق من كان قبلَكم»[٢].

وقد حذر السلف من الخروج بقراءة القرآن إلى الطرق المبتدعة والأصوات المنغمة المحدثة والتدبر المزعوم ونحو ذلك، فالقرآن ينزَّه عن هذا كله.

قال الحافظ ابن كثير: «والغرض أن المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبُّر القرآن وتفهُّمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزَّه عن هذا ويجلُّ ويعظُم أن يُسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السُّنَّة بالزجر عن ذلك»[٣].

فالجهل بالمشروع في عبادة التدبر، وكل ما يوصل إلى التدبر السليم هو سببٌ لتفشِّي البدع في ذلك، فكثير من الجهلة يعتمد في وسائل تدبره على أحاديث وآثار وآراء ليست صحيحة، فتمسَّكوا بها وأثبتوها حجة على عملهم حتى عاشوا عليها وماتوا عليها، ثم احتج بعملهم من جاء بعدهم، وهكذا حتى انتشرت البدع والمحدثات. والله المستعان[٤]، **ونظرًا لخطورة هذا الأمر على متدبر القرآن جاء تقسيم هذا المبحث في مطلبين**:

---

(١) **ينظر**: بدع القراء القديمة والمعاصرة: (ص٦).
(٢) **ينظر**: الفتاوى للشاطبي: (ص١٩٨).
(٣) فضائل القرآن لابن كثير: (١/ ١١٤).
(٤) **ينظر** دواعي البدعة وأسبابها في الموسوعة الفقهية: (٨/ ٢٩).

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

الطرائق المبتدعة القديمة ونقدها

هناك بدع ومحدثات قديمة في أداء الترتيل، زعم أصحابها أنها معينة على التدبر، وأنها تساعد على الخشوع والتأثير، وهنا ذكر لبعض هذه المحدثات[(١)]:

١ ـ التنطع بالقراءة والوسوسة والتعسف في مخارج الحروف؛ بقصد التدبر والإسراف، خروجًا عن القراءة بسهولة واستقامة كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. وعن إعطاء الحروف حقها من الصفات والأحكام إلى تجويد متكلف. وفي الحديث: (**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا...**)[(٢)]؛ **أي**: لينًا لا شدة في صوت قارئه[(٣)].

٢ ـ الخروج بالقراءة عن لحن العرب[(٤)] إلى لُحُون العجم: وقد كان الناس قديمًا يقرؤون بلغاتهم، ثم خلف قوم بعد قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة، ولا علم التكلّف، فَهَفوا في كثير من الحروف وزلُّوا، وقرؤوا بالشاذ وأخلُّوا[(٥)].

---

(١) **ينظر رسالة العلامة بكر أبو زيد**: «بدع القراء القديمة والمعاصرة».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: (١/ ٣٠٧)، حديث رقم: (١٧٥)، وصححه محققو المسند.

(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيِّم: (١/ ١٦٠ ـ ١٦٢).

(٤) **قال ملّا علي قارى في: المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية**: (ص٩٩): «والمراد بألحان العرب: القراءة بالطبائع والأصوات السليقيَّة».

(٥) **ينظر**: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: (١/ ٤٢).

٣ ـ قراءة الأنغام والتمطيط: وربما داخلها ركض وركل ـ **أي:** ضرب بالقدمين ـ ولهذا سميت (قراءة الترقيص)، وهذه لا ينبغي القراءة بها؛ فالقرآن الكريم ينزَّه عن ذلك كلِّه.

٤ ـ التلحين في القراءة تلحين الغناء والشِّعر: وهو مسقط للعدالة ومن أسباب رد الشهادة قَضَاءً. وكان أول حدوث هذه البدعة في القرن الرابع على أيدي الموالي(١). ومن أغلظ البدع في هذا تلكم الدعوة الإلحادية إلى قراءة القرآن على إيقاعات الأغاني مصحوبة بالآلات والمزامير(٢)؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٠ ـ ٤٢].

٥ ـ ومما يُنهى عنه (التَّقلِيس) بالقراءة: وهو رفع الصوت، **ومنه قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في وصف أبي يوسف:** «كان أبو يوسف: قلَّاسًا» **أي:** يرفع صوته بالقراءة، وهذا جرَّ إلى إحداث وضع اليدين على الأذنين عند القراءة.

٦ ـ القراءة الجماعية، وهي: التزام قراءة القرآن جماعة بصوت واحد بعد كلٍّ من صلاة الصبح والمغرب أو غيرهما، وقد أنكرها جماعة من العلماء كابن تيمية والشاطبي وغيرهما(٣).

---

(١) **ينظر:** بدع القراء القديمة والمعاصرة: (ص٨). وسيأتي الحديث عن امتدادها، وهي القراءة بالمقامات في المبحث الآتي.

(٢) **ينظر:** تلبيس إبليس، لابن الجوزي: (ص١٢٨).

(٣) **ينظر:** مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢٢/٥٠٨)، والاعتصام: (١/٢١٩). وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، رقم: (٦٩١٧): «أن التزام قراءة القرآن جماعة بصوت واحد بعد كل من صلاة الصبح والمغرب أو غيرهما ـ بدعة».

٧ ـ **قراءة القرآن في منارة المسجد**: وقد لبَّس إبليس على قوم من القراء فهم يقرؤون القرآن في منارة المسجد بالليل بالأصوات المجتمعة المرتفعة الجزء والجزأين، فيجمعون بين أذى الناس فِي منعهم من النوم وبين التعرض للرياء، ومنهم من يقرأ في مسجده وقت الأذان؛ لأنه حين اجتماع الناس فِي المسجد[١].



(١) **ينظر**: تلبيس إبليس، لابن الجوزي: (ص١٢٨).

المَطْلَبُ الثَّانِي

الطرائق المبتدعة المعاصرة ونقدها

أكثر الطرائق السابقة التي ذكرت انعكست على الواقع المعاصر اليوم، وأصبحت تمارس في كثير من البلدان العربية، وبعضها صار أكثر انتشارًا منه قبل، مثل القراءة الجماعية أو الورد الجماعي الذي أنكره كثير من الأئمة كابن تيمية والشاطبي وغيرهما كما سبق(١)، وهناك بعض الطرائق التي ظهرت أو أُظهرت وانتشرت في واقعنا المعاصر، زعم أصحابها أنها معينة على الخشوع والتدبر لكتاب الله، ولكنها في حقيقتها وسيلة محدثة وطريقة خاطئة ما أنزل الله بها من سلطان، بل إن بعضها قد جاء في الشرع الحنيف التحذير منه بعينه، **وهنا ذكر لأبرز هذه الطرائق مع بيان غلطها**:

١ ـ القراءة التصورية للأمور الغيبية: وهي قراءة مقاطع أو سور من القرآن مرئية متحركة يوضع فيها صور شجر وأنهار وجنات خضراء وبحار ونار ونحوها؛ بقصد شدِّ انتباه المشاهدين لهذا المقطع وجعلهم يتدبرون ويخشعون من الآيات التي فيه، وهذه كثرت في زماننا وتعرضها أكثر القنوات الإسلامية اليوم، وفيها فتاوى من العلماء المعاصرين بمنعها؛

۞ ومن ذلك قول العلامة ابن عثيمين حين سئل: ما حكم رسم بستان كأنه يمثل الجنة، ونار كأنها تمثل النار؟

فأجاب: «هذا لا يجوز؛ لأننا لا نعلم كيفية ذلك، كما قال ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]،

---

(١) **ينظر**: مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢٢/٥٠٨)، والاعتصام: (١/٢١٩)، وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، رقم: (٦٩١٧).

ولا يعلم كيفية النار، فهي فضلت على نار الدنيا بتسع وستين جزءًا بما فيها النار الغليظة كنار الغاز وغيرها وما هو أشد، فهل أحد يستطيع أن يمثل النار؟ لا أحد يستطيع، ولهذا بلِّغ من يفعل ذلك أن هذا حرام، ومع الأسف الشديد أن الناس الآن بدؤوا يجعلون الأمور الأخروية كأنها أمور حسية مشاهدة...»[1].

يؤيد ذلك أيضًا عدة أمور:

- أن الأمور الغيبية لا عَهد للإنسان بها، فكيف يُصوّرها أو يتخيّلها.

- ما في ذلك من ذهاب عظمة هذه الأمور الغيبية من نفوس المسلمين، كيف وقد كادت أن تكون آيات القرآن جميعًا في الترغيب والترهيب.

- أن القرآن الكريم دعا للتدبر والتفكر في آياته المشهودة التي تراها وتشاهدها وتدركها عقول بني آدم؛ كما أشار إليه ابن القيِّم[2]، مثل: عظمة مخلوقات الله المشاهدة كالسماء والأرض والجبال والشجر والدوابِّ والبحار والأنهار والشمس والقمر وغيرها، **أما كيفية الأمور غير المشاهدة** كالصفات الخبرية واليوم الآخر وغيرها فدعا للإيمان بها والتسليم بنصوصها: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

٢ - التمايل عند القراءة بقصد الانسجام والتدبر: وهي من العادات التي يجب تركها؛ لأنها تتنافى مع الأدب مع كتاب الله ﷻ، ولأن المطلوب عند تلاوة القرآن وسماعه الإنصات وترك الحركات والعبث؛ ليتفرَّغ القارئ والمستمع لتدبر القرآن الكريم والخشوع لله ﷻ، وقد ذكر العلماء أن ذلك من عادة اليهود عند تلاوة كتابهم، وقد نُهينا عن التشبه بهم[3].

---

(١) انتهى من «لقاء الباب المفتوح»: (٢١/ ٢٢٠).
(٢) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٧).
(٣) **ينظر**: فتاوى اللجنة الدائمة: (٣/ ١٢٢).

٣ ـ **الانشغال بالإعجاز العلمي الظنِّي عن التدبر اليقيني**، وقصارى الأمر في مسألة الإعجاز العلمي أن الحقيقة الكونية التي خلقها الله وافقت الحقيقة القرآنية التي تكلم بها الله: وهذا هو الأصل لأن المتكلم عن الحقيقة الكونية المخبر بها هو خالقها؛ فلا يمكن أن يختلفا البتة(١). وكثير ممن دخل في تفسير كلام الله اليقيني بالظن في هذا العصر، ليس لهم من الإحاطة بشرع الله وبالعلوم الطبيعية ما يعذرهم في القول على الله والانحراف عن منهاج النبوة وفقه القرون المفضلة فيه. فالواجب على المسلم أن يتدبر في هدايات القرآن، وأن لا ينشغل بما يسمى «الإعجاز العلمي» على حساب الإعجاز الحقيقي للقرآن الكريم، بكونه نزل للاتعاظ والعمل، والإيمانُ بالقضايا الكونية التي ذكرها القرآن لا يحتاج إلى إدراك الحس؛ بل يكفي ورودها في القرآن، بخلاف القضايا العلمية التي يحتاج الإيمان بها إلى الحسِّ سواء أكانت هذه القضايا مذكورة في القرآن أم لم تكن مذكورة، والمسلم مطالب بالأخذ بظواهر القرآن، وأخذه بها يجعله يسلم من التحريف أو التكذيب أو التأويل الخاطئ(٢).

٤ ـ **تعلُّم المقامات والتزامها**(٣): ظهر في الآونة الأخيرة في الواقع العربي ما يُسمى «المقامات القرآنية»، وقد تنافست بعض القنوات الفضائية والمعاهد والدور في سبل نشرها وتعليمها وإيجاد المسابقات

---

(١) **ينظر**: الإعجاز العلمي إلى أين؟ للدكتور مساعد الطيار (ص٢٠).

(٢) **ينظر**: المرجع نفسه.

(٣) **ينظر في هذه المسألة ما يلي**: زاد المعاد لابن القيِّم: (١/ ٤٨٢)، نزهة الأسماع في مسألة السماع، لابن رجب: (ص٥٨)، البيان في حكم قراءة القرآن بالألحان: جمع أيمن رشدي سويد، الأنجم الزواهر في تحريم القراءة بلحون أهل الفسق والكبائر لزين الدين بركات بن أحمد الشافعي (ت٩٢٩هـ)، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز: (٩/ ٢)، بدع القراء للشيخ بكر أبو زيد، رسالة: البدع العملية المتعلقة بالقرآن الكريم جمعًا ودراسة للعبد الكريم: (ص٣٤٠)، فتوى رقم: (١٦٩٧٩٩) في موقع الإسلام سؤال وجواب، بحث عن القراءة بالمقامات في ملتقى أهل التفسير.

والجوائز عليها، وأصبح بعض القُرَّاء يتفرغ لتعلّمها أو تعليمها، ويتفنّن في تطبيقها ونشر ثقافتها.

ويحسن في مقدم كلامنا عن هذه المسألة توصيف هذه المقامات والتعرّف على ماهيتها؛ حيث إنها في أصلها أنواع من الألحان التي يغني بها أهل الغناء والموسيقا، وقد تطورت شيئًا فشيئًا حتى اعتُني بها ورُتّبت وحُصرت بأوزان معينة سميت فيما بعد «مقامات»، وقد بلغت عند أهل هذا الفن ستة مقامات رئيسة(١)، لكل واحد منها اسم ومعنى للقراءة فيه، **وبيانها عندهم كالتالي:**

مقام البيات: ويعنون به اللحن الذي يمتاز بالخشوع والرهبانية التي تجلب القلب وتجعله يتفكر في آيات الله ومعانيها.

مقام الرست: و«الرست» كلمة فارسية تعني الاستقامة، ويفضّل أهل المقامات هذا المقام عند تلاوة الآيات ذات الطابع القصصي أو التشريعي.

مقام النهاوند: ويمتاز عندهم بالعاطفة والرِّقة التي تبعث على الخشوع والتفكر، و«نهاوند» مدينة إيرانية نسب إليها هذا المقام.

مقام السِّيكَا: اسم فارسي «سه گاه» بمعنى ثلاث مراحل، وهو من أقدم المقامات، وقد وسموه للذي يقرأ بالبطء والترسل.

مقام الصبا: الصبا كلمة فارسية واسم ريح ليِّن وملائم... وقد تكون الكلمة المرادفة للصبا في العربية «النسيم»، وهو مقام جعلوه يمتاز بالروحانية الجياشة والعاطفة.

مقام الحجاز: وهو مقام من أصل عربي نُسب إلى بلاد الحجاز العربية، وعندهم أنه أكثر المقامات روحانية وخشوعًا في القرآن.

---

(١) **ينظر كتاب**: مقامات الموسيقا العربية، صالح المهدي، وكتاب: البيان لحكم قراءة القرآن بالألحان، جمع أيمن رشدي سويد: (ص٩).

وبعضهم يضيف مقامًا سابعًا وهو: **مقام العجم**، وهو يؤدي عندهم إلى إيجاد الاشتياق ورفع الشأن والنشاط عند المستمع، ويُستخدم في آيات تدل على عظمة الله وصفاته وأسمائه الحسنى والجنة، ومعجزات الأنبياء. وبعض أهل المقامات لا يعترف بهذا المقام كمقام مستقل، ويدمجه في أحد المقامات الستة السابقة.

وقد اشتهرت أنظمة ومقامات أخرى موسيقية غير هذه درج بعضهم على تعلّمها والقراءة بها، وفي الوقت الحاضر انتشرت وتوسعت حتى أصبحت تُدْرس وتُدَرّس في معاهد موسيقية متخصصة، وتعطى عليها الشهادات والدورات(١).

هذه إشارة مدخلية حول هذا الفن بكلام أهل الفن أنفسهم، وحين نتأمل ماهية ما جاء فيه تتجلى لنا الحقائق التالية:

• الملاحظ أن أصل هذه المقامات ونشأتها واردٌ من أهل الغناء والفن؛ لأنه عندهم أداء يُضبط بطابع موسيقي يمتاز به صوت معين مرتبطٌ بآلات اللهو والطرب؛ فهو إذن خارج من رحم الغناء وأهل الغناء ولا علاقة له أصلًا بالقرآن وأهل القرآن.

• أنه فن نشأ متأخرًا، ويقال: إن القراءة بالألحان حدثت وانتشرت في أواخر العصر الأموي، حيث دخل الغناء الفارسي وتشايع بألحانه عند بعض المسلمين، ثم تسامى بألحانه إلى القرآن الكريم، فكان ذلك أول ظهوره(٢)،

---

(١) المعاهد والمراكز المتخصصة كثيرة، منها: المركز الوطني العالي للموسيقا في لبنان، والمعهد الرشيدي للموسيقا في تونس، والمعهد الوطني للموسيقا في عَمّان، والمعهد الوطني للموسيقا في نابلس... وغيرها الكثير.

(٢) **ينظر**: المعجزة الكبرى القرآن، نزوله، كتابته، جمعه، إعجازه، وصوله، علومه، تفسيره، حكم الغناء به، لمحمد أبو زهرة: (ص٤٤١ ـ ٤٤٢).

قال الطرطوشي[١]: «فأما أصحاب الألحان فإنما حدثوا في القرن الرابع منهم محمد بن سعيد صاحب الألحان»[٢].

• أن هذا الفن في أصله قراءة بالألحان، والألحان مفردها «لحْن»، يقال: لحَّن في قراءته: إذا طرَّب بها وغرَّد[٣]، **جاء في «لسان العرب»**: «**اللَّحن**: التطريب وترجيع الصوت، وتحسين القراءة والشِّعر والغناء»[٤].

• أن هذه المقامات في أصلها دخيلة على العرب وعلى اللغة العربية؛ فالملاحظ عليها أنها مقامات أعجمية إلا الأخير منها الذي هو المقام «الحجازي».

• أن هذه المقامات هي جمعٌ لألحان الناس في غنائهم، فهي علم لاحق بعد القرآن والقراءة به. ويمكن للقراء أن يقرؤوا بأحد المقامات وهم لم يعرفوا عنها شيئًا. كما يمكن أن ينوِّع القارئ بين عدة مقامات بحسب الآيات ومعانيها وهو لم يعرف عن المقامات شيئًا!

إذا تبيَّن كون هذه المقامات في أصلها قراءة بالألحان اخترعها أهل الغناء والموسيقا والفن، وأنها في الأصل دخيلة على اللغة العربية فهي فارسية المصدر، وأن القراءة بها للقرآن نشأت متأخرًا فلم تكن معروفة عند الصحابة رضوان الله عليهم؛ فعلى هذا التصور يأتي الحكم الشرعي في الإقراء بها وتعليمها من خلال الأدلة التالية:

---

(١) محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الأندلسي الطرطوشي، شيخ المالكية، وطرطوشة بلدة في شمالي الأندلس، ولد سنة (٤١٥هـ)، لازم القاضي أبا الوليد الباجي، وسمع من أبي علي التستري وأبي عبد الله الحميدي، ألَّف رسالة في تحريم الغناء وكتابًا في الزهد وفي بر الوالدين، إضافة لكتابه الشهير: الحوادث والبدع، كان إمامًا في الفقه، توفي سنة (٥٢٠هـ). **ينظر**: سير أعلام النبلاء: (١٩/ ٤٩٠ _ ٤٩٦).

(٢) الحوادث والبدع: (ص٨٥).

(٣) **ينظر**: لسان العرب: (١٣/ ٣٨٢)، ومختار الصحاح: (١/ ٢٤٨).

(٤) لسان العرب: (١٣/ ١٨٣).

أولًا: أن الشريعة جاءت بتحريم القراءة بالألحان كما في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**وَسَيَجِيءُ مِنْ بَعْدِي قَوْمٌ يُرَجِّعُونَ بِالْقُرْآنِ تَرْجِيعَ الْغِنَاءِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ وَالنَّوْحِ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، مَفْتُونَةٌ قُلُوبُهُمْ وَقُلُوبُ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ**)[١]، وذكر ابن كثير أن في هذا الحديث الزجر عن هذه الألحان[٢].

وفي حديث آخر أن الرسول ﷺ تخوّف على أمته خصالًا، وذكر منها: (**وَنَشْءٌ يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ أَحَدَهُمْ لِيُغَنِّيَهُمْ، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّهُمْ فِقْهًا**)[٣].

۞ **وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله عن الألحان فقال**: «كلُّ شيء محدَثٍ فإنه لا يعجبني، إلا أن يكون صوت الرجل لا يتكلَّفه»[٤]. **وسئل أيضًا عن القرآن بالألحان فقال**: «بدعة لا تُسمع»[٥].

وقد نصَّ على ذلك غيره من الأئمة، كمالك والشافعي، فذكرا أن قراءة القرآن بقصد التلحين الذي يشبه تلحين الغناء مكروهة مبتدعة لا تجوز[٦].

وقال ابن رجب في قراءة القرآن بالألحان، بأصوات الغناء وأوزانه وإيقاعاته، على طريقة أصحاب الموسيقا: «أنكر ذلك أكثر العلماء، ومنهم من حكاه إجماعًا ولم يُثبت فيه نزاعًا، منهم أبو عبيد وغيره من الأئمة»[٧].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم: (٧٢٢٣)، وإسناده ضعيف، **يقول ابن كثير في فضائل القرآن**، (ص١٩٦): «طريقه حسنة في باب الترهيب».

(٢) **ينظر**: فضائل القرآن: (ص١٩٥ ـ ١٩٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم: (١٥٤٦٢)، **قال الشيخ حمود التويجري**: «وقد وقع مصداق هذه الأحاديث». إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة (٢/ ١٢١).

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٢/ ٤٢٧).

(٥) طبقات الحنابلة: (١/ ٥٧).

(٦) جامع المسائل: (٤/ ٣٥٥).

(٧) نزهة الأسماع في مسألة السماع: (ص٥٨).

وقال ابن الجوزي: «وأما ما أُحدث بعدهم ـ **يعني**: السلف ـ من تكلُّف القراءة على ألحان الغناء، فهذا يُنهى عنه عند جمهور العلماء؛ لأنه بدعة»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والسلف كانوا يحسِّنون القرآن بأصواتهم، من غير أن يتكلّفوا أوزان الغناء؛ مثل ما كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يفعل»[٢].

ثانيًا: أن القراءة بهذه المقامات نشأت متأخرًا ولم يعرفها سلفنا الصالح الذين هم أهل القرآن والإقراء والذين نزل عليهم القرآن، وهي قراءة متواترة عن كافَّة المشايخ جيلًا فجيلًا إلى رسول الله ﷺ وليس فيها تلحين ولا تطريب[٣]، ولو كانت خيرًا لسبقونا إليها، فأين هم مع عنايتهم بكتاب الله من هذا التلحين المقنَّن إن كان مشروعًا؟!

ثالثًا: أن كلام الله ينزَّه عن هذه الأوزان المخترعة والألحان الموزونة والمستمدَّة من علم الموسيقا؛ لما لكلمات الله من الجلالة والعظمة، والتقديس والتعظيم، فتُصان وجوبًا من أن تكون محلًّا للتمرُّس على هذه الإيقاعات ومحلًّا لتطبيق أوزان الموسيقا بتكرار الآيات مراتٍ ومراتٍ، حتى تضبط على وزن أحد المقامات ثم يطبِّق عليها المتعلِّم أو التالي المقام الآخر. . . وهكذا[٤].

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: (٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٢) جامع المسائل: (٣/ ٣٠٤).
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي: (٧/ ٥٤).
(٤) العجب ممن اشتهر في العالم الإسلامي بحسن قراءته أن يكون طريقه في التعلم وإتقان القراءة: الأغاني الماجنة! وقد اعترف بعضهم أنه كان يستمع للأغنية ذات المعازف حتى يتعلم طريقة القراءة! وقد انتشرت صورة لبعض كبار القراء وهو بجانب آلة الموسيقا المشهورة عندهم «البيانو»! بل وتشترط إذاعة عربية على كل مقرئ فيها أن يحمل شهادة من معهد موسيقا! وإلا حُرِم القراءة فيها!

رابعًا: أنَّ تتبُّع هذه المقامات وتعلّمها والانشغال بها صارف موغل من صوارف التدبر الذي هو ثمرة إنزال القرآن، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: «ولأن ذلك فيه تشبيه القرآن بالغناء، ولأن ذلك يورث أن يبقى قلب القارئ مصروفًا إلى وزن اللفظ بميزان الغناء لا يتدبَّره ولا يعقله، وأن يبقى المستمعون يُصغون إليه لأجل الصوت الملحَّن كما يُصغى إلى الغناء، لا لأجل استماع القرآن وفهمه وتدبُّره والانتفاع به»(١). **وقال ابن رجب**: «وفي الحقيقة هذه الألحان المبتدعة المطربة تُهيِّج الطباع، وتلهي عن تدبر ما يحصل له الاستماع، حتى يصير الالتذاذ بمجرد سماع النغمات الموزونة والأصوات المطربة، وذلك يمنع المقصود من تدبّر معاني القرآن»(٢).

وقال الطرطوشي: «وهذا يمنع أن يُقرأ بالألحان المطربة والمشبهة للأغاني؛ لأن ذلك يُثمر ضدَّ الخشوع ونقيض الخوف والوَجَل»(٣).

خامسًا: أن الواقع دلَّ على أن التأثير يقع ممن لا علم له بهذه الألحان، فكم من قارئ يتأثر ويؤثر في الناس وهو لا يعلم شيئًا من مقامات الألحان ـ كما أن التأثير لا يجوز إلا بسبب شرعي. واتخاذ أسباب محدثة لقصد التأثير هو من الممنوع في الشرع ـ وقد وفَّق الله تعالى كثيرًا من القراء في العالم الإسلامي، وأبكوا الناس بقراءاتهم ولم يتعلموا مقامًا ولم يسمعوا أغنية، وبعض الذين فُتنوا بهذه المقامات يسمع القارئ المتقن ذا الصوت الشجي، والترتيل الجميل؛ فينسب قراءته لأحد المقامات ويوهم نفسه وغيره أن هذا القارئ ممّن يمشي على طريقته بالقراءة على حسب أغنية أو لحن معيَّن، وليس الأمر كذلك(٤).

---

(١) جامع المسائل: (٣/ ٣٠٥).

(٢) نزهة الأسماع في مسألة السماع: (ص٨٥).

(٣) الحوادث والبدع: (ص٨٧).

(٤) **ينظر**: فتوى رقم: (١٦٩٧٩٩) في موقع الإسلام سؤال وجواب، ورسالة البدع العملية المتعلقة بالقرآن الكريم جمعًا ودراسة للعبد الكريم: (ص٣٤٦).

۞ **وعليه؛** يتبيَّن أن تعلّم المقامات وتعليمها والتكلّف في مراعاة أوزانها، أمر يخالف ما جاء به الشرع من تحريم القراءة بالألحان، خاصةً لحون أهل الفسق والغناء، ومن أمره بقراءة القرآن من غير تكلف، قراءةً هيِّنة ليِّنة غير متكلّفة، ومن أمره بالأخذ عن الصحابة الذين لم يعرفوا هذه المقامات وتلاميذهم الذين أقرؤوا الناس وعلّموهم أزمنة عديدة قبل انتشار هذه المقامات ومعرفتها، ومن تحذيره لترك التدبر والانشغال عنه بأمور أخرى كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؛ كل هذه الأمور وغيرها مما سبق ذكره تؤيد ترك ذلك وعدم الانشغال به.

*** لكن هناك مسألة مهمة هنا وقد نبَّه عليها الإمام ابن القيِّم[(١)] وبها تجتمع المسألة ويتحقق القول، وهي: أن التلحين والتغني على قسمين:**

الأول: التلحين الفطري الطبيعي الذي اقتضته الطبيعة، وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خُلِّي وطبعَه، واسترسلت طبيعته، جاءت بذلك التطريب والتلحين، فذلك جائز، وإن أعان طبيعتَه بفضلِ تزيين وتحسين، **كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ**: «لَو علمتُ أنّكَ تَسمَع لَحَبَّرْتُه لَكَ تحبِيرًا»[(٢)]، والحزين ومَن هاجه الطرب والحبُّ والشوق، لا يملك من نفسه دفعَ التحزين والتطريب في القراءة، ولكن النفوسَ تقبلُه وتستحليه لموافقته الطبع، وعدم التكلف والتصنع فيه، فهو مطبوع لا متطبِّع، وكَلِفٌ لا متكلِّف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامعُ، وهو المراد بقولهم: اقرؤوا القرآن بلحون العرب[(٣)].

---

(١) **ينظر**: زاد المعاد: (١/ ٤٨٢ ـ ٤٩٣).

(٢) أخرجه ابن حبان، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، حديث رقم: (٧١٩٧)، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار: (٣/ ٢١٢).

(٣) **قال زكريا الأنصاري في الدقائق المحكمة شرح المقدمة الجزرية**: (ص٣٦): «والمراد =

الآخر: التلحين المتكلف الذي ليس في الطبع السماحة به، بل لا يحصُل إلا بتكلُّف وتصنُّع وتمرُّن، كما يتعلم أصوات الغِناء بأنواع الألحان البسيطة، والمركبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزانٍ مخترعة، لا تحصل إلا بالتعلُّم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلفُ، وعابوها، وذمُّوها، ومنعوا القراءةَ بها، وأنكروا على من قرأ بها.

وبهذا التفصيل يزول الاشتباهُ ـ بإذن الله ـ ويتبين الصوابُ من غيره، وكلٌّ من له علم بأحوال السلف، يعلم قطعًا أنهم بُرآء من القراءة بألحان الموسيقا المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها، ويُسوِّغوها، ويعلم أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب، ويحسِّنون أصواتَهم بالقرآن، ويقرؤونه بِشجًى تارة، وبِطَربٍ تارة، وبِشَوْق تارة، وهذا أمر مركوز في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه وندب إليه، وأخبر عن استماع اللّه لمن قرأ به، وقال: **(لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ)**[1]، **وفيه وجهان**: **أحدهما**: أنه إخبار بالواقع الذي كلُّنا نفعله، **والثاني**: أنه نفي لهدي من لم يفعله عن هديه وطريقته ﷺ، والله أعلم[2].



= بلحون العرب: القراءة بالطبع والسليقة كما جبلوا عليه من غير زيادة ولا نقص». **وقال ملَّا علي قارى في المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية**: (ص٩٩): «والمراد بألحان العرب: القراءة بالطائع والأصوات السليقية».

(١) سبق تخريجه (ص١١١).

(٢) زاد المعاد: (١/ ٤٩٣).

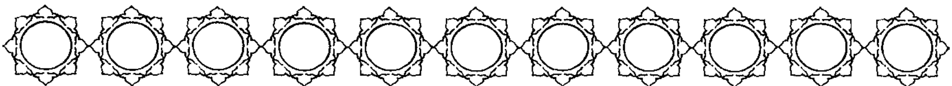


ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

الوقوع في الشهوات

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: الإصرار على المعاصي والذنوب.
- المبحث الثاني: مرض القلب.
- المبحث الثالث: اتباع الهوى.
- المبحث الرابع: الانشغال بالحياة الدنيا وزينتها.
- المبحث الخامس: استماع الغناء وآلات اللهو.



المَبْحَثُ الأَوَّلُ

الإصرار على المعاصي والذنوب

من أعظم ما يصدُّ القارئ عن تدبر القرآن، ويحول دون إقبال قلبه على مواعظه وحكمه: إصراره على الذنوب والمعاصي والتكبر على شرع الله، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ **قال سفيان بن عيينة** رحمه الله: «سأمنعُهم من فهم القرآن»[(١)].

قال ابن قدامة: «وليتخلى التالي من موانع الفهم...

ومن ذلك: أن يكون التالي مصرًّا على ذنب، أو متصفًا بكبر، أو مبتلًى بهوًى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه، فهو كالجرب على المرآة، يمنع من تجلي الحق، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصُّور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة»[(٢)].

وقال الزركشي: «وَاعْلَمْ أنه لَا يحصُلُ لِلناظر فهم معاني الوحي حقيقة ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المَعرِفَة، وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كِبرٌ أو هوى أو حُبُّ الدّنيا، أو يكونُ غيرَ

---

(١) تفسير البغوي: (٢/ ١٥٢).

(٢) **ينظر**: مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة: (ص٥٣ ـ ٥٤).

مُتَحقِّقِ الإيمان أو ضعيفَ التحقيق، أو معتمدًا على قول مُفسِّرٍ ليس عنده إلا علم بظاهر أو يكون راجعًا إلى معقوله، وهذه كلُّها حُجُبٌ وموانع وبعضها آكد من بعض»[(١)].

وذلك لأن الإصرار على الذنوب سبب ظُلمة القلب وصدئه، وهو كالخَبَثِ على المرآة، فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حُجب الأكثرون، وكلما كانت الشهوات أشد تراكمًا كانت معاني الكلام أشد احتجابًا، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه، فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة... وقد شرط الله الإنابة في الفهم والتذكير، فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣][(٢)].



(١) **ينظر**: البرهان في علوم القرآن، للزركشي: (٢/ ١٨١).

(٢) **ينظر**: إحياء علوم الدين، للغزالي: (١/ ٢٨٤).

المَبْحَثُ الثَّانِي

مرض القلب

ينبغي للمؤمن أن يعتنيَ بسلامة قلبه وصحته مِنَ الأمراض؛ فإنَّ القُلُوب تمرض كما تمرض الأبدان، وهذا القلب هو محلٌّ نظر الله ﷻ لعبده، والجوارح تبعٌ لصلاح القلب وفساده.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وروى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)[١].

ومريض القلب لا يتمكن من تدبر القرآن؛ إذ من شروط تحصيل لذة القرآن: جَمْعُ القلب؛ ولا يكون إلا عند صحته وسلامته من العلل، **قال ابن القيِّم**: «إذا أردتَّ الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك واحضر حضُور من يخاطبه به من تكلَّم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك، على لسان رسوله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ وذلك أن تمام التأثير لـمَّا كان موقوفًا على مؤثر مقتض ومحلٍّ قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه ـ تضمَّنت الآية بيان ذلك كله، بأوجز لفظ وأَبْيَنِه وأدلِّه على المراد.

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، حديث رقم: (٢٥٦٤).

فَقَوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أشار إِلَى مَا تقدّم من أوّل السُّورَة إلى هٰهُنَا؛ وهذا هو المؤثِّر.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل؛ وَالمُراد به القلب الحيُّ الذي يعقل عَن الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]؛ **أي**: حيَّ القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾؛ **أَي**: وجَّه سَمعه وأصغى حاسَّة سَمعه إِلى ما يُقال له، وهذا شَرط التأثّر بالكلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ **أَي**: شَاهد القلب حَاضرٌ غير غائب، قال ابن قُتَيْبَة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليسَ بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانِع من حُصُول التَّأثير؛ وهو سهو القلب وغَيبته عن تعقُّل ما يُقال له والنَّظَر فيه وتأمُّله.

فإذا حصل المُؤثر وهو القرآن والمحل القابِل وهو القلب الحَيّ، ووجد الشَّرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتِغَال القلب وذُهوله عَن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر - حصل الأَثر وهو الانتِفاع والتذكُّر»[1].

والناس تجاه هذا الأمر ثلاثة أقسام:

الأول: رجل قلبه ميِّت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقِّه.

الثاني: رجل له قلب حيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

(١) **ينظر**: الفوائد، لابن القيِّم: (ص٣).

الثالث: رجل حيُّ القلب مستعد، تُليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع، وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، مُلقٍ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه. فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور[1].



(١) مدارج السالكين، لابن القيِّم: (١/ ٤٤١).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

اتِّباع الهوى

إن من أعظم الصوارف عن فهم كتاب الله: اتباع الهوى؛ لأنه يجعل صاحبه يصرُّ على الخطأ الذي هو عليه؛ لذلك قال الله في صاحبه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات؛ فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠]... لهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسُّنَّة من العلماء والعباد يُجعل من أهل الأهواء؛ كما كان السلف يسمُّونهم أهل الأهواء؛ وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله»(١).

وإننا لو تأملنا ما في اتباع الهوى من المفاسد والمهالك لتبين لنا عظم أثره في منع الفهم السليم والتدبر الأمثل لكتاب الله، **وفيما يلي عرض لبعض هذه المفاسد؛ ليكونَ المتدبر على بصيرة وعلم في**

---

(١) **ينظر**: مجموع الفتاوى، لابن تيمية: (٢٨/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

الحذر منها[(١)]:

أولًا: أن متبع الهوى يعتقد ثم يبحث في القرآن عما يكون موافقًا لهواه، ولذا فلن يصل مطلقًا للانتفاع بالقرآن، ولا بهديه، ولن يصل القرآن قلبه فيتدبر فيه وينتفع بمواعظه إلا إن خرج اتباع الهوى من قلبه، وصار هواه تَبَعًا للوحي قرآنًا وسُنَّة.

ثانيًا: أن صاحب الهوى إلٰهه هواه، حيثما تولَّت مراكبه تولَّى، وأينما سارت ركائبه سار، فآراؤه العلمية، وفتاواه الفقهية، ومواقفه العملية، تبع لهواه، فدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فأنَّى له بعد ذلك التدبر والفهم؟ **قال عبد الله بن عون البصري**: «إذا غلب الهوى على القلب، استحسن الرجل ما كان يستقبحه»[(٢)].

ثالثًا: صاحب الهوى ليس له منهج واضح في تلقي الأدلة؛ فهو يردُّ الدليل إذا خالف هواه لأدنى احتمال، أو يتأوله على غير تأويله؛ **يوضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله**: «والمفترقة من أهل الضلال تجعل لها دينًا وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم، ثم يَعْرِضون على ذلك القرآنَ والحديث، فإن وافقه احتجُّوا به اعتضادًا لا اعتمادًا، وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله، وهذا فعل أئمَّتهم، وتارة يُعْرِضون عنه، ويقولون: نفوِّض معناه إلى الله، وهذا فعل عامَّتهم»[(٣)].

❁ **فاحرص أيها المتدبر على مجانبة الهوى**؛ فإنه من اتبع الهوى فقد هوى، وتذكر أن هواك ورأيك لا بد أن يكون تبعًا لما جاء في كتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ؛ فإن فيه الفوز والفلاح: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

---

(١) **ينظر**: الطب الروحاني، باب في ذم الهوى، لابن الجوزي.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٣/ ١٤٢).

(٣) الإبانة الصغرى: (١/ ١٢٣).

المَبحَثُ الرَّابِعُ

الانشغال بالحياة الدنيا وزينتها

انشغال القلب بالحياة الدنيا من أعظم الأمور التي تحول بينه وبين الإقبال على القرآن؛ ولذلك حذر الله من الدنيا، فقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال ﷻ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، قال: (**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**)[1].

وقد حكى الله ﷻ نبأ من آثر الدنيا وانشغل بزينتها فلم ينفعه علمه الذي كان معه، ولا الآيات التي آتاه الله، فكان من الغاوين الخاسرين؛ قال الله في حاله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، حديث رقم: (٢٧٤٢).

ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٨].

۞ **ولقد أبان الإمام ابن القيِّم هذه الآيات تبيانًا بديعًا محذرًا من انشغال العبد بالدنيا وعدم عمله بالقرآن فقال:** «وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه، بالكلب في حال لهثه ـ سرٌّ بديع؛ وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدَّة لهفه على الدنيا؛ لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللَّهَفُ واللَّهَثُ شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى، قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، فهو مثل الذي يترك الهدى، لا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع؛ قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث؛ وهكذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا وترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع؛ وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا، يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، وذلك لشدَّة حرصه؛ فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مُشبِهه؛ شدَّة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهف، فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلهف، وإن تركته ولم تعِظْه فهو يلهف، قال مجاهد: وذلك مثل الذي أُوتي الكتاب ولم يعمل به.

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾؛ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتِّباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله.

فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأسًا، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضَه ولم يرفعه»[١].

إن الذي يؤثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة، فليس من ذوي الألباب؛ ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب[٢].

فالله الله أيها المتدبر؛ لا تشغلنك الدنيا وزخرفها عن تدبر كتاب ربك والعمل بما فيه، ولتجعل أموال الدنيا وسيلة في يديك وليست غاية في قلبك؛ لكي لا تُحْرَمَ فهم كتاب ربك.



(١) **ينظر**: إعلام الموقعين، لابن القيِّم: (١/ ١٢٨ ـ ١٢٩).
(٢) **ينظر**: إحياء علوم الدين: (١/ ٢٨٤).

المَبحَثُ الخَامِسُ

استماع الغناء وآلات اللهو

لاستماع الغناء آثار وخيمة على العبد، وله خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق، ونباته فيه كنبات الزرع بالماء، فمن خواصه: أنه يلهي القلب ويصدُّه عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفَّة، ومجانبة شهوات النفوس، وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضدِّ ذلك كله، ويحسِّنه، ويهيج النفوس إلى شهوات الغي فيثير كامنها، ويزعج قاطنها، ويحركها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لِبان، وفي تهييجهما على القبائح فَرَسَا رِهان، فإنه صنو الخمر ورضيعه ونائبه وخليفته، وخدينه وصديقه، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذي لا يُفسخ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تنسخ، وهو جاسوس القلوب، وسارق المروءة، وسُوسُ العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، ويطلع على سرائر الأفئدة، ويدِبُّ إلى محلِّ التخيُّل، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة والسخافة والرقاعة، والرعونة، والحماقة. فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار، وبهاء العقل، وبهجة الإيمان، ووقار الإسلام، وحلاوة القرآن، فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله، وقَلَّ حياؤه، وذهبت مروءته، وفارقه بهاؤه، وتخلى عنه وقاره، وفرح به شيطانه، وشكا إلى الله تعالى إيمانُه، وثقُل عليه قرآنه، وقال: يا ربِّ، لا تجمع بيني وبين قرآن عدوك في صدر واحد، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه، وأبدى من سرِّه ما كان يكتمه، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب.

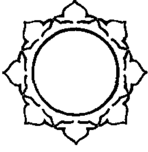
وسر المسألة: أنه قرآن الشيطان، فلا يجتمع هو وقرآن الرحمٰن في قلب أبدًا[١]، **ولقد صدق الإمام ابن القيِّم حين قال**:

وَاللَّهِ إِنَّ سَمَاعَهُمْ فِي الْقَلْبِ والْـ ... إِيـمَانِ مِـثْلُ الـسُّمِّ فِي الأَبْـدَانِ
وَاللَّهِ مَـا انْفَـكَّ الَّذِي هُوَ دَأْبُهُ ... أَبَـدًا مِـنَ الإِشْـرَاكِ بِـالـرَّحْـمٰـنِ
فَالْقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلاَلُهُ ... حُـبًّـا وَإِخْـلَاصًـا مَـعَ الإِحْـسَـانِ
فَـإِذَا تَـعَـلَّـقَ بِـالـسَّـمَـاع أَصَـارَهُ ... عَـبْـدًا لِـكُـلِّ فُـلَانَـةٍ وَفُـلَانِ
حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا ... فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ[٢]



(١) **ينظر**: إغاثة اللهفان، لابن القيِّم: (١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

(٢) **ينظر**: متن القصيدة النونية، لابن القيِّم: (١/ ٣٢٦).



أَخِيرًا: العِلَاجُ القُرْآنِي لِلْحَثِّ عَلَى التَّدَبُّرِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى الآيَاتِ الَّتِي ذَمَّتْ تَرْكَ التَّدَبُّرِ وَأَرْشَدَتْ إِلَى عِلَاجِهِ

المتأمل للآيات الواردة في القرآن الكريم عن التدبر يجد أنها جاءت في أربعةِ مواضعَ من كتاب الله ﷻ؛ اثنتان منهما نزلتا على رسول الله ﷺ في مكة في شأن الكفار، واثنتان نزلتا في المدينة في شأن المنافقين، ذمَّ القرآن هؤلاء القوم على تركهم للتدبر، فجاءت الآيات للذم والتوبيخ لهم، لكنها من باب الأولى جاءت محذرة للمسلمين المتلقِّين لهذا القرآن أن يسلكوا سبيلهم أو يعرضوا كما أعرضوا، **وفيما يلي عرض لهذه الآيات مع بيان علاجها وهدايتها**:

أولًا: قول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]؛ **هذه أول آية نزلت في شأن التدبر**، نزلت في مكة في سورة ﴿صٓ﴾ مبينة أولًا بركة هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ على جميع الناس، ثم بينت أن الغاية من إنزاله أن يتدبر الناس آياته، وليس مجرد سماعه أو تلاوته، ثم بينت أيضًا أن هذا التذكر المقصود لا يحظى به إلا أهل العقول السليمة. **وعلى ذلك يستطيع المتدبر أن يستخرج هدايات هذه الآية وعلاجها في الآتي**: الإيمان بعظمة القرآن وأنه منزل من عند عظيم حكيم، ثم الإيمان ببركته وكثرة خيره ونفعه[1]،

(١) **ينظر**: تفسير البغوي: (٧/ ٨٨).

ثم وجوب العلم والعمل به الذي هو التدبر، ثم العلم أنه بحسب لُبِّ الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب[(١)].

ثانيًا: قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]؛ **هذه هي الآية الثانية التي نزلت في شأن التدبر**، نزلت في مكة أيضًا في سورة (المؤمنون) حيث اشتملت على التأنيب الشديد للمشركين في عدم تفهُّمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له، وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خُصُّوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وقد مات آباؤهم في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير؛ فكان اللائق بهم أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عنهم[(٢)]. **فيستطيع المتدبر أن يستنتج من هذه الآية الموبِّخة لهؤلاء القوم أن هذا القول ـ وهو القرآن ـ لا يملك من يتدبره أن يظل معرضًا عنه**؛ لأن فيه من الكمال والعزة والشرف، وفيه من موافقة الفطرة، وفيه من غذاء القلب، وفيه من زاد الفكر، وفيه من قويم المناهج، وفيه من محكم التشريع ـ ما يجعل متدبره لا يستطيع الإعراض عنه وعن الإيمان به؛ لأن سر إعراض هؤلاء القوم أنهم لم يتدبروه! فيحرص المسلم بعد ذلك على عدم الإعراض عن تدبر آيات هذا القرآن الكريم، والإقبال عليه بروح إيمانية وقلب طاهر.

ثالثًا: قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]؛ **ثم بعد ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ في المدينة الآية الثالثة في شأن التدبر في سورة (النساء)**،

---

(١) **ينظر**: تفسير السعدي: (ص٧١٢).

(٢) **ينظر**: تفسير ابن كثير: (٥/ ٤٨٣)، وأضواء البيان: (٥/ ٣٣٩).

حيث وردت هذه الآية في سياق الحديث عن المنافقين الذين كانوا يحضرون مجالس الرسول ﷺ فكانوا يتظاهرون بالإسلام، ولكنَّ قلوبهم غير مؤمنة، وأفعالهم معرضة، مع أن الله قد أنزل ما يدلهم على الحق، ويهديهم السبيل القويم، وهو القرآن؛ فقال لهم معرضًا عن خطابهم المباشر مقابل إعراضهم وتكبرهم عن القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؟! في استفهام إنكاري يلومهم على ترك التدبر، مقرونًا بلفت انتباههم إلى إعجاز هذا القرآن باتِّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض، ولكنَّ هذا التلويم ليس من الدرجة القصوى، فلعلهم يثوبون ويعودون إلى رشدهم[(١)]. **فيستفيد المتدبر من ذلك**: حثَّ نفسه على تدبر كتاب الله بإخلاص وصدق؛ لكي لا يتشبه بالمنافقين، معتبرًا ومتأملًا في عظمة منزله وعظمة تشريعه وإعجازه، وأنه لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض، وبذلك يصل إلى درجة اليقين بكلام الله؛ لأنه يراه يصدِّق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا. ويعلم كمال القرآن وسلامته من الاختلاف؛ كما قال مُنزِله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]؛ **أي**: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلًا[(٢)].

رابعًا: قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؛ **ثم نزلت هذه الآية الرابعة والأخيرة عن المنافقين في المدينة كما في سورة (محمد)، بأسلوب أشد**؛ حيث ارتقى البيان إلى توبيخهم على ترك التدبر مع بيان سبب ذلك: بأن قلوبهم عليها أقفال

(١) **ينظر**: تفسير الطبري: (٨/ ٥٦٧)، وقواعد التدبر الأمثل، للميداني: (ص١١).
(٢) **ينظر**: تفسير السعدي: (ص١٨٩).

لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن؛ فهذه الأقفال تحول بينها وبين فهم القرآن وبينها وبين النور[١]. **يقول شيخ المفسرين الطبري معلقًا على هذه الآية:** «أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن، الذي أنزله على نبيِّه عليه الصلاة والسلام، ويتفكَّرون في حُججه التي بيَّنها لهم في تنزيله؛ فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون؟! ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [المزمل: ٢٤] يقول: أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعِبَر؟!»[٢].

فالمتدبر إذا قرأ هذا التوبيخ الشديد عالج نفسه، وخاف على حاله من ذلك؛ فذهب أولًا إلى قلبه فطهره وأزال عنه الشوائب والموانع التي تمنع التدبر من أقفال الشبهات والشهوات؛ لأن القلب إذا طهُر لن يشبع من كلام الله[٣]، وطهارته هي صيانته من هذه الأقفال التي تحول بينها وبين نور القرآن.

وعلى كل حال فجميع هذه الآيات تخاطب المؤمنين من باب أولى؛ لأنهم هم أهل الانتفاع بتدبر القرآن، فهي تحذر جميع المسلمين أن يسلكوا هذا الطريق، ففيها تحذيرٌ لنا وتوبيخٌ لهم[٤]، وهي تدل أيضًا على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه لجميع المسلمين[٥].

وبعد؛ فإنه يمكن تلخيص ما سبق من علاج لترك التدبر في الأمور الآتية:

---

(١) **ينظر**: أضواء البيان، للشنقيطي: (٧/ ٢٥٩).
(٢) تفسير الطبري: (٢٢/ ١٧٩).
(٣) جاء في الزهد للإمام أحمد: (ص١٨٨) **عن عثمان بن عفان** رضي الله عنه **قوله**: «لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله عز وجل!».
(٤) **ينظر**: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط، للطيار: (ص١٨٦).
(٥) أضواء البيان: (٧/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

• **الإيمان بعظمة القرآن**: من خلال تذكر عظمة مُنزِّله ﷻ، ومن خلال الإيمان ببركته وكثرة خيره ونفعه.

• **العلم والعمل**: فالعلم والعمل ضروريان لفهم وتدبر كتاب الله، والعلم به يكون بحسب لُبِّ الإنسان وعقله؛ لأن التذكر والانتفاع لا يكون إلا من ذوي العقول الحصيفة، والأذهان النظيفة.

• **الإقبال على تدبر القرآن وعدم هجره في جميع شؤون الحياة؛** لأن من مسببات الإعراض عن القرآن عدمَ تدبره كما كان يفعل المشركون؛ فكلما بعُد المرء عن التدبر جاء الإعراض، فالقراءة وحدها لا تكفي. فيحرص المتدبر على عدم الإعراض عن تدبر آيات هذا القرآن الكريم، والإقبال عليه بروح إيمانية وقلب طاهر.

• **اليقين بإحكام آياته وإتقان ألفاظه**، والإيمان بأنه لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض، وبذلك يصل إلى درجة اليقين بكلام الله؛ لأنه يراه يصدِّق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا. ويعلم كمال القرآن وسلامته من الاختلاف.

• **تطهير القلب من الأقفال**: سواء أقفال الشبهات أو الشهوات؛ «لأن صاحب القلب الحي بين قلبه وبين معاني القرآن أتمُّ الاتصال، فيجدها كأنها قد كُتبت فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب»[(١)].

وفي الختام نذكر هنا كلامًا جامعًا لشيخ الإسلام ابن تيمية بيَّن فيه بعض ما سبق بيانه بإيجازٍ بديع جاء فيه: «أن من أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله، بعقله، وتدبَّرَه بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا منثوره»[(٢)].

---

(١) قاله الإمام ابن القيِّم في الفوائد: (ص٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: (٢/ ٧٤١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

تَدَبَّرْ كِتَابَ اللَّهِ يَنْفَعْكَ وَعْظُهُ ... فَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَبْلَغُ وَاعِظِ
وَبِالْعَيْنِ ثُمَّ الْقَلْبِ لَاحِظْهُ وَاعْتَبِرْ ... مَعَانِيَهُ فَهْوَ الهُدَى لِلْمُلاحِظِ
وَأَنْتَ إِذَا أَتْقَنْتَ حِفْظَ حُرُوفِهِ ... فَكُنْ لِحُدُودِ اللَّهِ أَقْوَمَ حَافِظِ
ولَا يَنْفَعُ التَّجْوِيدُ لَافِظَ حُكْمِهِ ... وَإِنْ كَانَ بِالقُرْآنِ أَفْصَحَ لافِظِ
وَيُعْرَفُ أَهْلُوهُ بِإِحْيَاءِ لَيْلِهِمْ ... وَصَوْمِ هَجِيرٍ لَاعِجِ الْحَرِّ قَائِظِ
وَغَضِّهِمُ الأَبْصَارَ عَنْ كُلِّ مَأْثَمٍ ... يُجَرُّ بِتَكْرِيرِ الْعُيُونِ اللَّوَاحِظِ
وَكَظْمِهِمُ لِلْغَيْظِ عِنْدَ اسْتِعَارِهِ ... إِذَا عَزَّ بَيْنَ النَّاسِ كَظْمهمُ المَغَايِظِ
وَأَخْلَاقُهُمْ مَحْمُودَةٌ إِنْ خَبَرْتَهَا ... فَلَيْسَتْ بِأَخْلَاقٍ فِظَاظٍ غَلائِظِ
تَحَلَّوْا بِآدَابِ الْكِتَابِ وَأَحْسَنُوا التْـ ... ـتَفَكُّرَ فِي أَمْثَالِهِ وَالمَوَاعِظِ
فَفَاضَتْ عَلَى الصَّبْرِ الجَمِيلِ نُفُوسُهُمْ ... سَلامٌ عَلَى تِلْكَ النُّفُوسِ الفَوَائِظِ[1]



(١) الآداب الشرعية لابن مفلح: (٥٦٨/٣).

الخَاتِمَة

الحمدُ لله أكثر الحمد وأوفاه، والصلاة والسلام على نبيِّه ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمَّا بعد:

ففي نهاية المطاف وختام الكلام، أدوِّن الخلاصة العامة للبحث مدعَّمة بالنتائج والتوصيات التي هدي البحث إليها، **وبيان ذلك في المسائل الآتية:**

١ ـ أنَّ جُلَّ المعاني التي وردت في تعريف التدبر عند اللُّغويين مأخوذة من: النظر في أدبار الشيء، وعواقبه ونهاياته، وبهذا ندرك أن دلالاته يمكن أن ترشدنا إلى أن التدبر، يحتاج إلى: التتبع، والتعمق، والنظر في مآلات الأشياء.

٢ ـ أنَّ المفسرين المتقدمين لم يخصُّوا التدبر بتعريف اصطلاحي خاص ينفرد عن التعريف اللُّغوي؛ لأن كلمة التدبر من الكلمات الواردة في القرآن على أصل معناها اللُّغوي، ولم تنتقل إلى اصطلاح شرعي جديد، فحقيقتها اللُّغوية متَّفقٌ على معناها، ولم تنتقل إلى حقيقة شرعية.

٣ ـ أنَّ العلماء في جميع تعريفاتهم للتدبر قد صرحوا بلزوم اقتران التدبر بالعمل والانتفاع، بمعنى أنه لا بد أن يكون العمل من قصد القارئ أصلًا؛ لأنه لازم حصول التدبر، وهذا هو الذي يميز التدبر عن غيره من المصطلحات القرآنية الأخرى المشابهة مثل: (التفسير، والاستنباط، والتفكر، والتأمل).

٤ ـ أنَّ هذه المصطلحات المشابهة للتدبر متقاربة وليست مترادفة، وإذا ذَكَر بعض أهل العلم أنها مترادفة، فإنما يقصد الترادف الجزئي الذي يوجد في بعض أجزاء المعنى دون بعضها الآخر.

٥ ـ تدبر القرآن الكريم في الجملة واجب شرعي على كل قارئ؛ كلٌّ حسب فهمه وقدراته وطاقاته الإدراكية؛ لأنه لا يعذر أحد بترك التدبر مطلقًا؛ خاصة وأن القرآن قد يسره الله للذكر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

٦ ـ يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم القرآن وتدبره على حسب قدرته، والعمل بما علمه وتدبره؛ شريطة أن يكون هذا العلم ناشئًا عن علم صحيح.

٧ ـ أنَّ التدبر يقع في المعلوم من القرآن، أما ما لا يدركه العقل من الأمور الغيبية وكيفياتها التي استأثر الله بعلمها؛ فالواجب الإيمان بها دون البحث في تفاصيلها، وهي مما لا يحصل بيانه من جهة العقل، ومتى وقع طلبها من جهته حصل الانحراف والزيغ في شرع الله.

٨ ـ الواجب على المتدبر أن يعتمد في فهمه للآيات والمعاني على التفاسير السالمة من التأويلات والانحرافات، وهي تفاسير السلف الموثوقة، ومن سار على نهجهم من المفسرين الذين جاؤوا من بعدهم؛ فقلما تجد فيها الخطأ سواء من جهة الدليل، أم من جهة الاستدلال.

٩ ـ آية سورة ﴿قٓ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] **أشارت إلى الشروط الإجمالية الواجب توافرها في المتدبِّر، وهي:** كون المتدبِّر حيَّ القلب، وأن يفعل الأسباب المعينة على التدبِّر، وأن يجتنب الأمور التي تَصْرِفُ عن التدبر.

١٠ ـ جميع آيات التدبر الأربع التي نزلت في الحديث عن سياق الكفار والمنافقين هي تخاطب المؤمنين من باب أولى؛ لأنهم هم أهل الانتفاع بتدبر القرآن، فهي تحذر جميع المسلمين أن يسلكوا هذا الطريق، ففيها تحذيرٌ لنا وتوبيخٌ لهم.

١١ ـ أثرُ أبي عبد الرحمٰن السلمي المشهور[1] هو الأسُّ الذي تبنى عليه قضية التدبر؛ حيث إنه وضح بصورة جليَّة الطريقة المثلى لتدبر كتاب الله، ممن عاصر التنزيل وعرف التأويل.

١٢ ـ أن تعلم القرآن وأخذه بالطريقة التي رويت عن الصحابة أدعى للفهم والاستيعاب من غيرها؛ فالله ﷻ يقول لنبيه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

١٣ ـ أن منهج السلف الصالح في التدبر بُني على ركنين (الفهم، والعمل) ويبرز في الجانب العملي؛ لأنهم كما قال ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما: «وسهل علينا العمل به»، «رزقوا العمل بالقرآن»، وهذا الأمر المهمُّ الذي يفقده كثير من الناس اليوم.

١٤ ـ أن الإيمان بالله ﷻ ومحبته وتعظيمه تدفع المسلم لتحقيق تدبر كتاب ربه، فمتى آمن العبد بربه وعظَّمه أحبَّ كلامه وتدبره وتأثر به، **وقد قال ابن مسعود** رضي الله عنه: «من أحبَّ القرآن فهو يحبُّ الله؛ فإنما القرآن كلام الله».

١٥ ـ أن عظمة كتاب الله متجلية من كل جانب منه، واستشعار المؤمن لهذه العظمة في قلبه سبب رئيس في تحصيل التدبر الإيماني؛ لأن العناية بالشيء والاهتمام به فرعٌ عن استشعار عظمته، ولقد تتابعت كلمات السلف الصالح في بيان عظمة القرآن في مواطن كثيرة ومناسبات متفرقة.

---

(١) **ينظر**: (ص١٢٥ ـ ١٢٦).

١٦ ـ يجب على المسلم أن يخلص نيته في تدبره لكتاب الله تعالى، وأن يقصد به وجه الله؛ فإنما تكون نتيجة التدبر والتفهم على قدر النية.

١٧ ـ أن الإقبال على القرآن والانتفاع به وتدبره متحقق لأصحاب القلوب الحيَّة، فكلما كان العبد لقلبه أجمع، وعن الشواغل أبعد، كان أقرب إلى فهم وتدبر ما يتلو من كتاب الله؛ إذ إن القلب محَلُّ تفهم القرآن وتدبره.

١٨ ـ مراعاة الأحوال المناسبة لقراءة القرآن لها أثر في التدبر وسلامته، فالقلب المشغول والجوارح المشغولة لا يمكن أن تتلذذ بنعمة هذه العبادة العظيمة.

١٩ ـ الأثر المروي عن حذيفة بن اليمان ﷺ في بيان صفة قيام الرسول ﷺ بالليل[1]**؛ يظهر للأمة المنهج العملي السليم في كيفية إحياء الليل**، ويوضح لطالب التدبر المحور العملي الذي ينبغي أن يقتدي به في أداء هذه العبادة الجليلة.

٢٠ ـ المداومة على القراءة في التهجد فيها خيرات عظيمة، وهي معينة جدًّا على التدبر وتأثر القلب وخشوعه، فلا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهل حفظه، وييسِّر فهمه إلا القيام به في جوف الليل.

٢١ ـ لاختيار المكان المناسب لتلاوة القرآن أثر عظيم في عملية التدبر، حيث ينبغي للقارئ أن يختار الأماكن المناسبة لقراءته بعيدًا عن قوارع الطرق والملهيات والشاغلات التي تشغل الذهن وتصرف القلب.

٢٢ ـ أن سلامة التلاوة ومراعاة التجويد تعين على فهم القرآن، ومن المعلوم أن مبنى الكلام قائم على المعنى، وسلامة النطق تزيد فهم هذا المعنى، وتكمل الإدراك، وتعين على التدبر، وإذا اختل النطق بالكلمة

---

(١) **ينظر**: (ص١٦٤).

ولحن القارئ فيها فإن المعنى قد يتغير؛ وذلك مما يبعد القلب عن التدبر وفهم الآيات.

٢٣ ـ أن الترتيل هو زين القرآن، وهو معين على التدبر ويزيد القراءة حلاوة وانجذابًا، ويساعد على الحفظ والفهم، والنفوس تنجذب للقراءة المرتلة الخاشعة أكثر من انجذابها للقراءة الخالية من الترتيل، فإذا انجذبت النفوس استمعت لآيات ربها بقلب مفتوح وصدر مشروح وفهم وتأمل.

٢٤ ـ الجهر بالصوت بما يدور في القلب أعون على التركيز والانتباه ـ وهو في قراءة القرآن آكد ـ والمتدبر مخير بين الجهر بالقراءة والإسرار بها، إلا أنه إن كان الجهر أنشط له في القراءة أو كان بحضرته من يستمع قراءته أو ينتفع بها فالجهر أفضل، وإن كان قريبًا منه من يتهجد أو من يتضرر برفع صوته فالإسرار أولى.

٢٥ ـ مما يستعان به على فهم القرآن وتدبره: علم الوقف؛ فبه تتضح الوقوف التامة، والكافية، والحسان، فتظهر المعاني للسامع المتأمل، والقارئ المتدبر على أكمل وجوهها وأصحها، وأقربها لمأثور التفسير، ومعاني لغة العرب، فإن اعتماد علماء الوقف والابتداء في وضع الوقوف وتفصيلها، وبيان وجوهها، مبنيٌّ على النظر في معاني الآيات.

٢٦ ـ من الأحسن أن يراعي المتدبر في مداومته لقراءة كتاب ربِّه على تحزيب الصحابة ﷺ الذي جمع بين النظائر على نسقٍ، ثمَّ هو فوق ذلك مقسّم في أعداده أحسن تقسيم بطريقة لا كلفة لمعرفتها، وترتيبها على الأوتار: ثلاث، وخمس، وسبع... إلخ.

٢٧ ـ أن يعلم المتدبر أن من تأويل القرآن ما لا يُدرك علمُه إلا ببيان الرسول ﷺ؛ كما يقوله شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله تعالى؛ فيحسن بالمتدبر معرفة ذلك والاطلاع عليه في مظانه.

٢٨ ـ على المتدبر أن يبحث في مصادر التفسير الموثوقة عن البيان النبوي للآيات؛ فإن لم يجد ذلك فلينتقل إلى تفسير كبار الصحابة ﷺ ومن بعدهم ممن اشتهر بالتفسير، ثم إذا لم يجد ذلك ينتقل إلى كبار التابعين الذين أخذوا التفسير عن صحابة رسول الله ﷺ.

٢٩ ـ معرفة أسباب نزول القرآن من الأسباب الّتي لا يستغني عنها المتدبّر لكلام الله تعالى، وفيها من الفوائد شيء عظيم، إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها؛ لامتناع معرفة تفسير الآية، وقصد سبيلها؛ دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

٣٠ ـ يحسن بالمتدبر أن يكون عارفًا بدلالات الجمل من جهة علم البلاغة وبالأخص علم المعاني. ومما يعين على فهم القرآن وفهم كلام أئمة السلف في التفسير معرفة ما له علاقة بعلم التفسير: كدلالة الجملة الاسمية والفعلية، ودلالة التقديم والتأخير في الجملة، ونحوهما.

٣١ ـ إدراك إرشادات سياق الآيات من اللحاق والسباق مهم، ينبغي للمتدبر أن يراعيه؛ فلا ينظر في الكلمة أو الجملة مستقلة بنفسها، بل عليه أن ينظر إليها في سياق النص القرآني؛ فإن ذلك معين على تحديد المعنى المراد، لا سيما إذا كان للكلمة أو الجملة أكثر من معنى.

٣٢ ـ (مقاصد السور) من العلم النادر العزيز، وهو مهم لكل طالب علم في التفسير، ولكل متدبر، بقدر ما ذكر من مراعاة الضوابط من البحث عن تنصيص الأئمة عليه في كلامهم، أو أن يكون ظاهرًا في الآيات والسور.

٣٣ ـ أن تكرار الآية من صور الوقوف على المعاني، حيث إن تكرار الآية ـ إن أقبل عليها القلب ـ يفتح كنوزًا عظيمة، وأسرارًا عجيبة للمتدبر؛ ولذا حرَص عليه العارفون المتدبرون؛ لإدراكهم أثر ذلك وفائدته.

٣٤ ـ أن تفكر المتدبر في آيات الله المسموعة يورث في قلبه محبةَ الخالق وتعظيمَه، وإخلاص العبادة له، والتوكل عليه، وزيادة الإيمان واليقين، وغير ذلك من مقامات العبودية وأعمال القلوب.

٣٥ ـ أن الواجب على المكلَّف أن يشغل نفسه بهذه العبادة الجليلة (التفكر) في حدودها ومجالاتها المنضبطة، ويتعاهدها في جميع الأحوال؛ وذلك أن التفكير السليم يوصل صاحبه إلى الخير في الدنيا والآخرة.

٣٦ ـ أن يعلم المتدبر أنَّ بكاءه ﷺ لم يكن شهيقًا ورفع صوت، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، ويُسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه عند سماعه للقرآن بكاءَ اشتياق ومحبة، مصاحبًا للخوف والخشية.

٣٧ ـ اطلاع المتدبر على قدوات المتدبرين دافع رئيس للاقتداء والاهتداء، ومن ذلك: القراءة للأحاديث والآثار المروية عن رسول الله ﷺ في قصص خشوعه وتأثره، وكذا عن أصحابه رضي الله عنهم والتابعين.

٣٨ ـ من أبرز مقاصد التدبر وغاياته: امتثال المتدبر للأوامر التي جاءت في كتاب الله، واجتناب النواهي التي نهى عنها، وإن إدراك القارئ لها ومعرفته لآثارها ونتائجها دافع رئيس لتتبعها في كتاب الله، ثم الامتثال لها، وهي وصية عظمى وفائدة كبرى.

٣٩ ـ من المفيد أن يتعلم المتدبر أساليب الاستنباط، ويعرف أنواعها ومآخذها وطرقها؛ لكي يفيد منها في سيره مع كتاب الله تدبرًا وفهمًا واستنباطًا.

٤٠ ـ إذا لمس المجتمع آثار التدبر وعايشها واقعًا ملموسًا فإنه سيتمسك بذلك ويحافظ عليه، ويبحث عن الأسباب والوسائل التي تسعى لنشر علم التدبر بين أبناء مجتمعه، ليحيا حياة إيمانية طيبة.

٤١ ـ إن القوم الذين يداومون على قراءة كتاب الله بتدبر وخشوع هم من أبعد الناس عن الحزن والضيق والقلق. فكما أنَّ الروحَ إذا دخلتِ الأبدانَ حرَّكتها وأحيتها، كذلك تدبر القُرآن إذا دخل القلب أحياه ونفعه.

٤٢ ـ إن أثر تدبر القرآن على الأمة جمعاء عظيم، وإن من أبرز آثاره: الأثر الأمني الذي يجمع للحياة الإنسانية جميع الأحوال الصالحة من الصحة والرزق والرخاء والأمن والاستقرار والعيش الرغيد.

٤٣ ـ الأولى بالمتدبر للقرآن أن يخاف على قلبه من أهل البدع وأهل المعاصي، وأن يربأ بنفسه عن مجالسهم، فقد يُمنع بجلوسه معهم والاستماع إليهم تدبر كتاب ربه، وفهم مواعظه، وتذكر آياته.

٤٤ ـ لا يصح ما يقال من قصر التدبر على فئة معينة من العلماء، بل الواجب أن يُقبل كل مسلم على كتاب ربه، ويغرف من بحره بقدر ما منَّ الله تعالى به عليه من العلم والفهم، وأما القول: بقصر التدبر على المجتهد فقط، فقول ضعيف لا مستند له.

٤٥ ـ أن الذي يحرص على تتبع القراءات الشاذة ويفني عمره في تحصيلها فالغالب أن انشغاله فيها صارف له عن التدبر والاتعاظ بآيات الله وأحكامه.

٤٦ ـ الأصل في قارئ القرآن أن يهتم بمعاني القرآن المجيد، ولا يجعل همتَهُ فيما حُجِبَ به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن: بالوَسْوَسَةِ فِي خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك؛ فإن التكلف في ذلك حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الربِّ من كلامه.

٤٧ ـ الأولى للقارئ أن يستشعر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن؛ فإن سمع أمرًا أو نهيًا قدَّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدًا أو وعيدًا فكذلك، وإذا قُصد بالخطاب جميع الناس فليقدِّر أنه مقصود بهذا الخطاب أيضًا.

٤٨ ـ من الخطأ أن لا يسعى المرء إلى سماع القرآن إلا عند مرضه، أو موت قريبه، أو حال حزنه فقط، أمَّا إذا كان في حال صحته وكمال عقله وصفاء ذهنه فإنه لا يتشوَّف إلى سماع القرآن أو قراءته؛ فيُحَرِّمُ على نفْسِه السبيل إلى تدبر القرآن.

٤٩ ـ الاهتمام بالمبهمات وبتفاصيل الحوادث التي لم يذكرها القرآن صارف عن التدبر، فكثيرًا ما يرد في القرآن أعيان وأماكن وأعداد مبهمة لم يبيِّنها الرسول ﷺ، وهي أمور لا يتوقف عليها عمل، ولا يحصل بالبحث عنها علم نافع يحتاج الناس إليه.

٥٠ ـ الجهل بالمشروع في عبادة التدبر وطرائقه سببٌ لتفشِّي البدع في ذلك، فكثير من الجهلة يعتمد في وسائل تدبره على أحاديث وآثار وآراء ليست صحيحة.

٥١ ـ القراءة التصورية للأمور الغيبية بقصد التدبر، قراءة كثرت في زماننا، وعُنِيت كثير من القنوات الإسلامية بعرضها؛ وقد صدرت من العلماء المعاصرين فتاوى بمنعها.

٥٢ ـ المقامات في أصلها قراءة بالألحان اخترعها أهل الغناء والموسيقا والفن، وهي دخيلة على اللغة العربية فهي فارسية المصدر، والقراءة بها نشأت متأخرًا فلم يكن ذلك معروفًا عند الصحابة ﷺ.

٥٣ ـ تعلم المقامات وتعليمها والتكلف في مراعاة أوزانها؛ أمر يخالف ما جاء به الشرع من تحريم القراءة بالألحان وخاصة لحون أهل الفسق والغناء.

٥٤ ـ التلحين الفطري الطبيعي الذي اقتضته الطبيعة، وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، جائز، ولا يدخل في المقامات المذمومة.

٥٥ ـ من أعظم ما يصدُّ القارئ عن تدبر القرآن: إصراره على الذنوب والمعاصي، وهي أعظم حجاب للقلب، وبها حُجِبَ الأكثرون، وكلما كانت الشهوات أشدَّ تراكمًا كانت معاني الكلام أشدَّ احتجابًا، وكلما خفَّ عن القلب أثقال الدنيا قَرُبَ تجلِّي المعنى فيه.

٥٦ ـ ينبغي للمؤمن أن يعتنيَ بسلامة قلبه وصحته مِنَ الأمراض؛ فإنَّ القُلُوب تمرض كما تمرض الأبدان، وهذا القلب هو محلٌّ نظر الله ﷻ لعبده، والجوارح تَبَعٌ لصلاح القلب وفساده.

٥٧ ـ متَّبع الهوى يعتقد ثم يبحث في القرآن عما يظنُّه موافقًا لهواه؛ ولذا فلن يصل مطلقًا للانتفاع بالقرآن، ولا بهديه، ولن يصل القرآن قلبه فيتدبر فيه وينتفع بمواعظه إلا إن سعى في التخلص من الهوى وتصفية قلبه منه، وصار هواه تبعًا للوحي قرآنًا وسُنَّة.

٥٨ ـ أن العلاج القرآني في ضوء آيات التدبر تبيَّن على النحو الآتي: وجوب الإيمان بعظمة القرآن، وبالعلم والعمل، وبالإقبال على القرآن وعدم هجره في جميع شؤون الحياة، وباليقين بإحكام آياته وإتقان ألفاظه، وبوجوب تطهير القلب من الأقفال: سواء في ذلك أقفال الشبهات والشهوات.



التَّوَصِيات

• **توصية للمجتمع**: تدبر القرآن عبادة جليلة من الضروري نشر علمها في المجتمعات الإسلامية اليوم، وعلى جميع المستويات، بشتى الوسائل لتثقيف المجتمع وتعريفه بمفهوم هذه العبادة وأسبابها وموانعها وضوابطها.

• **توصية في التزام الضابط العام للتدبر**: وهو وجوب التزام منهاج السلف الصالح في التدبر، وهديهم في تدبرهم لكتاب ربهم، والوقوف على ذكر أحوالهم وتراجمهم وقصصهم؛ وذلك أن الجهل بمنهاجهم في عبادة التدبر، سببٌ لتفشِّي البدع والمحدثات.

• **توصية للمشرفين على المحاضن التربوية**: بتوطين منهجية التدبر في هذه المحاضن، ومحاولة حثِّ التلاميذ على تنمية مَلَكةِ الفهم والتدبر، لأجل أن يظهر ذلك في سلوك الدارسين وأخلاقهم، ومن ذلك اطلاعهم على قدوات المتدبرين ونماذج المهتدين، وأن يضعوا ضمن برامجهم وخططهم مراعاة هذا الأمر؛ لأنه ثمرة إنزال القرآن.

• **توصية لجمعيات تحفيظ القرآن الكريم**: بتهيئة بيئة للتدبر في حلقات تحفيظ القرآن، والعمل على تمليك الطلاب مقومات التدبر وأدواته ووسائله؛ كمعرفة عظمة الله تعالى وقدسية وحيه، وفهم مقاصد الإسلام ومحاسنه، وتحسين المستوى اللُّغوي، وفهم الغريب، وتنمية ملكة التركيز، وقراءة التفسير الميسر لما يُحفظ، وتحسين الصوت

بالقرآن، وتكرار تلاوة الآية، والتؤدة في التلاوة وتجنب الإسراع، والحث على التلاوة في الليل، وسماع القرآن من غيره بخشوع، والتدارس الثنائي، وتغليب الضبط والإتقان على مجرد الحفظ بدونه، وغير ذلك مما يعين على التدبر ويدفع ما ينافيه.

• **توصية للجامعات والمعاهد العلمية والتعليم العام**: بإنشاء مقررٍ يُدرس في كليات الشريعة وأصول الدين في أصول تدبر القرآن الكريم، وتكليف لجان متخصصة لوضع مفرداته ومواضيعه؛ فالطلاب والطالبات بحاجة ماسَّة إلى العلم والعمل بما في القرآن فلا يكفي مجرد تلاوته وإقامة حروفه.

• **توصية بإنشاء كراسٍ بحثية في التدبر**: وذلك بتخصيص بحوث وباحثين لخدمة التدبر ومستجداته، مصطلحًا وتطبيقًا، وعقد حلقات نقاش لذلك بالتعاون مع الجمعيات والمراكز المختصة والمهتمة بتدبر القرآن الكريم.

• **توصية في إبراز ثمرة التدبر**: وهو الاهتمام بالجانب التطبيقي للتدبر كما رسمه وبينه أثر أبي عبد الرحمٰن السلمي المشهور؛ فهو الأسُّ الذي تبنى عليه قضية التدبر؛ حيث إنه وضح بصورة جليَّة الطريقة المثلى لتدبر كتاب الله، التي قامت على ركنين أساسيين: (الفهم، والعمل) وهذا الأمر المهمُّ الذي يفتقده أبناء الأمة اليوم.

• **توصية للأمة جميعًا**: والتي تعيش الآن في زمنٍ كثرت فيه البدع، وتلاطمت فيه الفتن، وتحكمت فيه الشهوات والشبهات، وتغيرت فيه المبادئ والمعتقدات؛ فهي أحوج ما تكون إلى تدبر كتاب الله؛ بأن يتجه أفرادها جميعًا، شعوبًا ودولًا، حكامًا ومحكومين، اتجاهًا صحيحًا بكامل أحاسيسهم ومشاعرهم، بقلوبهم وقوالبهم، إلى كتاب الله تلاوة وتدبرًا.

• **ختامًا أيها القارئ الكريم، والناظر اللبيب**، هذه بضاعة صاحبها المُزجاة مَسوقةٌ إليك، وهذا فهمه وعقله معروضٌ عليك، لك غُنمه، وعلى مؤلفه غُرمه، فإن عدِم منك حمدًا وشكرًا فلا يعدَم منك عُذرًا، فما كان من صواب فمن الواحد المنان، وما كان من خطأ فمنِّي ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله ﷺ.

والله المسؤول أن يجعله لوجهه خالصًا، وينفع به مؤلفه وقارئه وكاتبه في الدنيا والآخرة؛ إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب(١).

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري
العاشر من شهر الله المحرم
من عام ١٤٣٦هـ
الرياض

---

(١) **ينظر**: طريق الهجرتين: (١/ ٢١)، وحادي الأرواح: (١/ ٨) للإمام ابن القيِّم.

الفَهَارِسُ

- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

فِهْرِسُ المصَادِرِ والمرَاجِع

- **الإبانة الكبرى**، لابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، ت: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
- **أبرز أسس التعامل مع القرآن الكريم**، أ. د. عيادة بن أيوب الكبيسي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٣١هـ.
- **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري، ت: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبي تميم ياسر إبراهيم، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **الإتقان في علوم القرآن**، عبد الرحمٰن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.
- **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **أحكام الحواس الخمس دراسة فقهية مقارنة معاصرة**، ندى محمد صوّان، دار النوادر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.
- **الإحكام في أصول الأحكام**، أبو الحسن سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي، المكتب الإسلامي، بيروت، المحقق: عبد الرزاق عفيفي.
- **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

- **أخلاق حملة القرآن**، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، دار الصَّفا والمروة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، أبو عبد الله محمد بن مفلح، ت: شعيب الأرناؤوط، وعمر القيَّام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.
- **الأذكار**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ت: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة عام: ١٤١٤هـ.
- **إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد**، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الصنعاني، ت: صلاح الدين مقبول أحمد، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- **أرقام تحكي العالم**، محمد صادق مكي، كتاب البيان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- **أساس البلاغة**، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الزمخشري، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- **أسباب نزول القرآن**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، ت: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، ت: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **أسد الغابة**، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم عز الدين ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، طبعة عام: ١٤٠٩هـ.
- **الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان**، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم، ت: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

- **الإصابة في تمييز الصحابة**، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **الأصلان في علوم القرآن**، أ. د. محمد عبد المنعم القيعي رَحِمَهُ اللَّهُ، الحقوق للمؤلف، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، طبعة عام: ١٤١٥هـ.
- **الاعتصام**، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **الإعجاز العلمي إلى أين؟ مقالات تقويمية للإعجاز العلمي**، د. مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ.
- **الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية**، عمر بن عليٍّ بن موسى بنِ خليل البغدادي الأزجي البزَّار، ت: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة.
- **الأعلام**، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
- **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيِّم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.
- **أفلا يتدبرون القرآن**، أسماء بنت راشد الرويشد، مدار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **أفلا يتدبرون القرآن**، أ. د. ناصر بن سليمان العمر، دار الحضارة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.
- **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، ت: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ.

- **اقتضاء العلم العمل**، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، ت: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٣٩٧هـ.
- **إقراء القرآن الكريم، منهجه وشروطه وأساليبه وآدابه**، دخيل بن عبد الله الدخيل، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **أكثر من مئة كلمة قرآنية قد تفهم خطأً**، عبد المجيد إبراهيم السنيد، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.
- **الأنجم الزواهر في تحريم القراءة بلحون أهل الفسق والكبائر**، زين الدين بركات ابن أحمد الشافعي، دار البشائر، ت: مشعل المطيري.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمٰن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **البحث العلمي: حقيقته، ومصادره، ومادته، ومناهجه، وكتابته، وطباعته، ومناقشته**، عبد العزيز بن عبد الرحمٰن الربيعة، بدون دار، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ.
- **البحر المحيط في أصول الفقه**، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، دار الكتبي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة ١٤٢٠هـ.
- **بدائع الفوائد**، الإمام ابن قيم الجوزية، ت: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.
- **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، طبعة عام: ١٤٠٧هـ.
- **بدع القراء القديمة والمعاصرة**، بكر بن عبد الله أبو زيد، مكتبة السُّنَّة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

- **البدع والنهي عنها**، أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي، ت: عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **البدعة أسبابها ومضارها**، شيخ الأزهر محمود شلتوت، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **البرهان في تناسب سور القرآن**، أحمد بن إبراهيم الثقفي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ.
- **البكاء في الكتاب والسنة**، د. رقية بنت محمد المحارب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٢٨هـ.
- **بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام**، علي بن محمد بن عبد الملك ابن القطان، ت: د. الحسين آيت سعيد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **التأثر بالقرآن والعمل به... أسبابه ومظاهره**، أ. د. بدر بن ناصر البدر، مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي، دار الهداية.
- **التبيان في آداب حملة القرآن**، يحيى بن شرف الدين النووي، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- **تحبير التيسير في القراءات العشر**، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، ت: د. أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد»**، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، طبعة عام: ١٩٨٤هـ.
- **تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق**، د. رقية جابر العلواني، المعهد النسوي للتكوين الشرعي، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨م.

- **تدبر القرآن الكريم وقفات ولفتات**، د. عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، بدون دار الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- **تدبر القرآن**، سلمان بن عمر السنيدي، كتاب المنتدى، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.
- **التسهيل لعلوم التنزيل**، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي، ت: د. عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- **تعظيم قدر الصلاة**، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، ت: د. عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **تعليم تدبر القرآن الكريم أساليب عملية ومراحل منهجية**، د. هاشم بن علي الأهدل، معهد الإمام الشاطبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **تفسير الراغب الأصفهاني**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت: مجموعة محققين، طبعات متفرقة على أجزاء: ١٤٢٠هـ، ١٤٢٢هـ، ١٤٢٤هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**، لابن أبي حاتم، عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس بن المنذر الرازي ابن أبي حاتم، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**، فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- **تفسير القرآن الكريم، أصوله وضوابطه**، أ. د. علي بن سليمان العبيد، مكتبة التوبة.
- **التفسير اللغوي للقرآن الكريم**، د. مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

- **تفسير آيات من القرآن الكريم** (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس): محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، ت: د. محمد بلتاجي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة: بدون.
- **تفسير مقاتل بن سليمان**، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، ت: عبد الله محمود شحاتة، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **التفسير والمفسرون**، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ١٤٢١هـ.
- **تهذيب الأسماء واللغات**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، لبنان.
- **تهذيب التهذيب**، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.
- **تهذيب اللغة**،أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- **توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار**، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاني ثم الصنعاني، ت: أبو عبد الرحمٰن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- **التوقيف على مهمات التعاريف**، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله السعدي، ت: عبد الرحمٰن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، دار المعارف.
- **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم**، زين الدين عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

- **جامع المسائل**، لابن تيمية، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، ت: محمد عزير شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **جامع بيان العلم وفضله**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، ت: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ.
- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، ت: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض.
- **الجرح والتعديل**، عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس بن المنذر الرازي ابن أبي حاتم، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٢٧١هـ.
- **حاشية مقدمة التفسير**، عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، بدون ناشر، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
- **حتى نتدبر منهاج الله**، د. عدنان علي النحوي، دار النحوي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤٠٩هـ.
- **الحوادث والبدع**، محمد بن الوليد بن محمد أبو بكر الطرطوشي المالكي، ت: علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.
- **خزانة الكتب**، القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، إشراف: علوي السقاف، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- **خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.

- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، عبد الرحمٰن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت.
- **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، ت: د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
- **ذيل طبقات الحنابلة**، زين الدين عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب، ت: د. عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- **رسائل ابن حزم الأندلسي**، ت: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.
- **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيِّم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ.

- **الزهد والرقائق**، لابن المبارك، أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك، ت: حبيب الرحمٰن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **الزهد**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ت: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.
- **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **السنن الكبرى**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِرْدي الخراساني، أبو بكر البيهقي، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.
- **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ.
- **السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، ت: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة**، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٣هـ.
- **شرح العقيدة الطحاوية**، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، ت: أحمد شاكر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

- **شرح حديث النزول**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٧هـ.
- **شرح رياض الصالحين**، الشيخ العلامة محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦هـ.
- **شرح صحيح البخاري**، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، ت: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.
- **شرح مشكل الآثار**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **شرح مقدمة في أصول التفسير**، لابن تيمية، شرح: د. مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.
- **شعب الإيمان**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِرْدي، أبو بكر البيهقي، ت: د. عبد العلي عبد الحميد حامد ومختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، أحمد بن فارس، الناشر: محمد علي بيضون، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
- **صحيح أبي داود**، أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**، محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيِّم الجوزية، ت: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

- **ضعف العمل بالقرآن الكريم**، فهد بن منصور الدوسري، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**، أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.
- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- **ضوابط استعمال المصطلحات العقدية والفكرية عند أهل السُّنَّة والجماعة**، د. سعود بن سعد العتيبي، مركز تأصيل للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- **الطب الروحاني**، أبو الفرج عبد الرحمٰن ابن الجوزي، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ت: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- **طبقات الشافعية**، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة، ت: د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- **طبقات المفسرين** ، عبد الرحمٰن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، ت: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
- **طبقات المفسرين**، محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **عظمة القرآن الكريم**، محمود بن أحمد الدوسري، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي، ت: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت.

- **العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السُّنَّة والجماعة**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، ت: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.
- **العلامة الشنقيطي مفسرًا**، د. عدنان بن محمد آل شلش، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- **غاية المريد في علم التجويد**، عطية قابل نصر، القاهرة، الطبعة السابعة.
- **الفتاوى الكبرى**، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر.
- **فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- **فتح من الرحيم الرحمن، في بيان كيفية تدبر كلام المنان**، أحمد بن منصور آل سبالك، المكتب الإسلامي لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- **فذكر بالقرآن**، أبو عبد الرحمن جمال القرش، دار الهجرة، الخبر، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- **الفروق اللغوية**، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري، ت: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
- **فصول في أصول التفسير**، مساعد سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- **فضائل القرآن**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- **فضائل القرآن**، الحافظ أبي العباس جعفر بن محمد المستغفري، ت: د. أحمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم.

- **فضائل القرآن**، القاسم بن سلام، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- **فضل علم الوقف والابتداء وحكم الوقف على رؤوس الآيات**، عبد الله علي الميموني، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- **الفهرست**، أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، ت: د. أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، طبعة عام: ١٤٣٠هـ.
- **الفوائد**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيِّم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.
- **قاعدة في فضائل القرآن**، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن ابن تيمية، ت: د. سليمان بن صالح القرعاوي.
- **القاموس الفقهي لغةً واصطلاحًا**، د. سعدي أبو جيب، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.
- **القاموس المحيط**، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ.
- **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ**، عبد الرحمٰن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠هـ.
- **كتاب التوابين**، محمد بن أحمد المقدسي، ت: عبد القادر الأرناؤوط، طبعة دار البيان.
- **كتاب السبعة في القراءات**، أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد، ت: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- **كتاب العين**، أبو عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، ت: د مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- **كتاب الفروع ومعه تصحيح الفروع لعلاء الدين علي بن سليمان المرداوي**، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الحنبلي، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

• **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، ت: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

• **الكتب السبعة [صحيح الإمام البخاري، وصحيح مسلم، أبو داود، النسائي، الترمذي، ابن ماجه، موطأ مالك]**، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، طبعة عام: ١٤١٩هـ.

• **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

• **كيف ننتفع بالقرآن الكريم**، د. أحمد البراء الأميري، دار السلام، مصر، الطبعة الرابعة، ١٤٣١هـ.

• **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، ت: ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

• **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

• **مباحث في علوم القرآن**، مناع خليل القطان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ.

• **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت: حسين سليم أسد الداراني، دار المأمون للتراث، دمشق.

• **المجموع شرح المهذب «مع تكملة السبكي والمطيعي»**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الفكر.

• **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمعها: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، عام النشر: ١٤١٦هـ.

• **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- **المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية**، د. خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **المحرر في علوم القرآن**، د. مساعد بن سليمان الطيار، معهد الإمام الشاطبي، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ.
- **مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر**، أبو عبد الله محمد بن نصر ابن الحجاج المَرْوَزِي، اختصره: العلامة أحمد بن علي المقريزي، الناشر: حديث أكادمي، باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **مختصر كتاب الاعتصام**، علوي بن عبد القادر السقاف، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين ابن قيِّم الجوزية، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.
- **المراحل الثمان لطالب فهم القرآن**، د. عصام بن صالح العويد، مركز تدبر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الهند، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- **المستدرك على الصحيحين**، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- **المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني**، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ت: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرين بإشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

- **مسند الدارمي المعروف بـ«سنن الدارمي»**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، ت: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **المصنف**، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، المجلس العلمي، الهند، توزيع المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.
- **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.
- **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة.
- **المعين على تدبر الكتاب المبين**، مجد بن أحمد مكي، دار نوادر المكتبات للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- **المغرب في حلى المغرب**، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، ت: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٥م.
- **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.
- **مفاتيح للتعامل مع القرآن**، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ.
- **مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة**، د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، بدون دار، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **مفهوم التدبر في ضوء الدراسة التحليلية لآيات القرآن**، د. محمد بن زيلعي هندي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- **مفهوم التدبر... تحرير وتأصيل أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم**، مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
- **مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر**، د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطَّيَّار، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **مقاييس اللغة**، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، الطبعة ١٣٩٩هـ.
- **مقدمة في أصول التفسير**، ابن تيمية، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- **مقدمة في أصول التفسير**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن ابن تيمية، ت: عدنان زرزور، دار القرآن الكريم.
- **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.
- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، ت: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **المنثور في القواعد الفقهية**، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- **منهج الاستنباط من القرآن الكريم**، فهد بن مبارك الوهبي، معهد الشاطبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- **منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم**، أ.د. بدر بن ناصر البدر، دار الضياء الخيرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- **منهج تدبر القرآن الكريم**، حكمت بن بشير ياسين، دار الحضارة.
- **الموافقات**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

- **موسوعة المستشرقين**، د. عبد الرحمٰن بدوي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م.
- **موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ**، مجموعة من المختصين، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- **موطأ الإمام مالك**، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، صحَّحه ورقَّمه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، عام النشر: ١٤٠٦هـ.
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.
- **نحو منهج أمثل لتفسير القرآن الكريم**، أحمد بن محمد الشرقاوي، دار طيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
- **النشر في القراءات العشر**، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، ت: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، شهاب الدين أحمد بن محمد المَقَّري التلمساني، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- **هذه رسالات القرآن**، فريد الأنصاري، دار السلام، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ.
- **وعود القرآن بالتمكين للإسلام**، د. صلاح بن عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خَلِّكان، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

المجلات ومواقع الشبكة العنكبوتية:

- **مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية**، العدد الحادي عشر، السنة السادسة، جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ، تصدر من معهد الإمام الشاطبي.
- **مجلة المنار**، محمد رشيد رضا، الجزء الخامس عشر.
- **موقع سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى.**
- **موقع فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى.**
- **موقع ملتقى أهل الحديث.**
- **موقع ملتقى أهل التفسير.**
- **موقع الإسلام سؤال وجواب.**
- **موقع الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.**
- **موقع صيد الفوائد.**
- **موقع إسلام ويب.**

فِهْرِسُ المَوْضُوعَات

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

١٥ درس